

التصوف والتفكيك

درس مقارن بين ابن عربي ودريدا

تأليف: أيان الموند

ترجمة و تقديم: حسام نايل

مراجعة: محمد بريوي

التصوف والتفكيك

درس مقارن بين ابن عربي ودریدا

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1740

- التصوف والتفكيك: درس مقارنة بين ابن عربي ودريدا

- أيان ألmond

- حمام نايل

- محمد بريري

- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

Sufism and Deconstruction:

A Comparative Study of Derrida and Ibn Arabi

By: Ian Almond

Copyright © 2004 by Ian Almond

This was first published 2004 by Routledge

Authorised translation from the English language edition

published by Routledge, a member of the Taylor and Francis Group.

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

التصوف والتفكيك

درس مقارن بين ابن عربي ودريدا

تأليف : أيان الموند
ترجمة وتقديم: حسام نايل
مراجعة: محمد بريري



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ألموند ، أيان

التصوف والتفكير: درس مقارنة بين ابن عربي ودريدا/ تأليف: أيان

ألموند، ترجمة وتقديم : حسام نايل، مراجعة: محمد بربرى.

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١

٢٦٠ ص ، ٢٤ سم

١ - الفلسفة الإسلامية.

٢- التصوف الإسلامى.

(أ) نايل ، حسام (مترجم ومقدم)

(ب) بربرى ، محمد (مراجع)

١٨٩,١

(ج) العنوان

رقم الإيداع / ١٦٦٧٥ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N -978-977-704-260-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

9 تقديم المترجم
23 مقدمة المؤلف
32 هوامش المقدمة
35 الفصل الأول: أغلال العقل، الاعتراض الصوفي والتفكيكي على الفكر العقلاى
39	مشروع التحرر عند ابن عربى ودريدا: تحرير الحق والكتابة من أغلال العقل
40	- أهل النظر ووثنية العلامة
43	- سياق ابن عربى: تحديد موقع الشيخ الأكبر
47	- الحق الذى لا مثل له
48	- الحق الذى لا يتناهى
51	- الحق الذى لا يقبل التكرار
58	- استحالة الحق: تزامن الحلول والعلو
62	مشروع التحرر عند دريدا: تحرير الحرف من أغلال الروح .
67	- الاختلاف المرجئ La Différance
74	- مرآة الاختلاف المرجئ: الغائبُ ينتج الحاضرَ
79 هوامش الفصل الأول
85 الفصل الثانى: إخلاص الحيارى، ابن عربى ودريدا فى مقام "البليلة"
87 ابن عربى ودريدا: عشاق وضوح أم بليلة؟
96 التفكيك: عَقْدٌ محلولةٌ وأنساقٌ مُعْطَلَةٌ

98 بابل عند دريدا: استبداد الوضوح
109 الطوفان عند ابن عربي: القداسة بما هي الحيرة
116 خلاصة: "المواقف الحقيقية"
120 هوامش الفصل الثاني
125	الفصل الثالث: سَنَّةُ الكتاب، معنى اللاتناهي في علم التأويل الصوفي والتفكيكي
132	الكتاب عند ابن عربي ودريدا: متى يكون النص الشاعر نصًا لا يتناهي؟
135	بحر بلا ساحل: القرآن مثلاً نموذجياً على نصية لا تنتاهي ...
141 علم التأويل الإيجابي: احتفاء بتكثر المعنى
144 الريانيون والشعراء
151 تناقضات ذاتية
162 هوامش الفصل الثالث
167	الفصل الرابع: نوق الغيب والأعماق، السرُّ عند دريدا وابن عربي
168 سرُّ اللاسرِّ عند دريدا
178 سرُّ عبادة الأوثان عند ابن عربي
184 عن تبعات السرِّ
196 خلاصة: الوهم الخادع عند دريدا وابن عربي
205 هوامش الفصل الرابع
	الخاتمة، تصفية الذات في ما بعد النبوية: ثلاث لحظات من الأفلاطونية
209 المحدثة في المعتمد الدريدي
212 فعل الكتابة و"الانفتاح" عند بلانشو

- 216 الترجمة عند بنيامين بوصفها عودة إلى الواحد الأول
- 222 "ما المؤلف؟": فوكو وتصفية الذات في ما بعد البنيوية
- 225 الله والكتابة: المركز ليس هو المركز، و"الله" ليس هو الحق ..
- 234 هوامش الخاتمة
- 237 ثبت المفردات والتعابير المهمة في الكتاب
- 251 بيليو جرافيا

تقديم المترجم

يثير هذا الكتاب درجة عالية من التوتر والقلق. ولعل من أسباب هذا التوتر صعوبة الإحاطة الوافية بأعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ونسقه الفكري الرفيع من أوله إلى آخره، وأيضًا العسر الشديد الذي يجده الراغب في أن يحيط علمًا بأعمال الفيلسوف الفرنسي الأعظم جاك دريدا واستراتيجيته التفكيكية بأطوارها وتجلياتها المتنوعة على امتداد أعماله من أولها إلى آخرها. وثمة سبب ثانٍ - مزدوج في تفسيره - يرجع إلى قدر من العنت الذي جعلنا لا نقبل تقبل المظمن المستريح الكثير من أفكار الشيخ العربي والفيلسوف الفرنسي لعلّة تتعلق بالتكوين الديني والثقافي المغلق الذي نشأنا عليه في العالم العربي، ويبدو أن هذا التكوين مستحکم راسخ عند الجميع؛ ظاهر عند البعض مستخف عند الآخر. ولعل السبب الثالث يتعلق بطبيعة هذا الكتاب ومنحاه المنهجي الذي اتخذ من منقلبات ما بعد الحداثة في العالم الغربي عروةً وثقى، فكان أن سلّط مؤلفه الضوء على أفكار بعينها عند الاثنين تزيد من حدة التوتر والقلق.

ولذا، يحتاج هذا الكتاب إلى قدر كبير من التواضع والتخلي عن الاستعلاء الناتج عن الاعتداد بأفكارنا ومعتقداتنا التي درجنا عليها؛ فعسى ينشأ من ثم حوار مفتوح معه لا يتقيد بقيد ولا ينضبط بضابط سوى أنه حوار. وعسى أن يكون فيه الداعي إلى مطالعة بعض أعمال الشيخ الأكبر ابن عربي والفيلسوف دريدا مطالعة هادئة متأنية، فلعل بعضًا من أفكارنا ومعتقداتنا التي ألفناها واعتدناها يتقلقل أو يهتز أو يترجرج على نحو يهيب قدرًا من إعادة النظر.

تحتاج طريقة تفكير أحدنا بين وقت وآخر إلى تنظيف، إلى غسل، أو إلى تغيير، حاجة بدن أحدنا إلى الاستحمام، أو حاجة الثوب إلى النظافة، وإن بلى فإلى استبدال. ويقوى الظنُّ في أن هذا الكتاب يُعِينُ أحدنا على حاجة من هذه الحاجات.

ويجذب موضوع الكتاب مَنْ يهتمون بدروس اللاهوت ودروس الفلسفة، كذا مَنْ يهتمون بدروس الأدب ونقده، على حد سواء، فإن أراد هؤلاء الثلاثة الانتفاع بالكتاب نفعهم. كما يجذب الكتاب، أيضاً، القارئ العام التوّاق إلى ضوء جديد مُعتبر، أو إلى مغامرة فكرية تفتح آفاقاً ممتدة واسعة. أما مَنْ يحلو له السير ليلاً بين أحراش غابة، أو قطع صحراء تحت وهج الشمس الشديد، فسيبادر إليه مبادرة الملهوف لأنه يزيد من حلاوة الأمر الذى يحلو له.

ولأن الجناحين اللذين يخلق بهما الكتابُ فى الهواء هما الشيخ الأكبر ابن عربى والفيلسوف الفرنسى دريدا فإن التوتر والقلق يتعلقان بإثارة مشكلات حول أفكارنا ومعتقداتنا عن: الله، والحقيقة، والأدب. فالشيخ الأكبر يهزّ المعتقدات الجامدة التى هى صنعة العين الواحدة والتى درجنا عليها بخصوص الله والحق أو الحقيقة؛ يهزها هزاً فيذرها قاعاً صافصفاً. أما الفيلسوف الأعظم دريدا فيرينا الثغرات التى يتزايد اتساعها والتى تملأ نسيج تحيزاتنا الإيديولوجية أو الجمالية أو البنيوية أو السردية أو التأويلية المحدودة أو ما أشبه من تحيزات حكمت - وتَحْكُمُ - تصوراتنا عن الأدب والدرس النقدى والنص الأدبى. ومن وراء هذه الثغرات تطل علينا رؤوس الميتافيزيقا التى صنعت لنا المعنى الواحد، والأصل الواحد، والحقيقة الواحدة، والمركز الأوحد، تسوقنا إلى الجهة المعصومة. وقد أَرانا دريدا أن هذه الرؤوس ذات عين واحدة أيضاً.

لذا، يحتاج هذا الكتاب إلى رأس ينظر بعينين فى كل الجهات، كما يحتاج إلى عقل وقلب يتصافران معاً، يُكذِّب أحدهما الآخر، ويُصدِّق أحدهما الآخر، ولا يعلو أحدهما على الآخر.

١- الأکبری/الدردی: بحثًا عن إسلام آخر

تقترب الإستيمولوجيا الإلهية عند ابن عربی فی بعدها الأنطولوجی الرکین اقتربًا کبیرًا من استراتيجیة التفکیک عند دریدا. ویکاد هذا الاقتراب- الغریب علینا- یبطل الإشکال الحدیث الذی نشأ فی العالم العربی من جرّاء إیقاع الخلاف والاختلاف بین الدینی الإلهی والدنیوی العلمانی. إذ یتنزّل الدینی تنزّلًا لافتًا إلی الدنیوی، وبالمقابل یعلو الدنیوی علوًا لافتًا؛ فیتقاطعان عند لحظة بعینها لو أننا استبصرناها حق التبصر فسوف تنحل الكثير من القضايا والمشکلات المثارة منذ الجد العظیم رفاعة الطهطاوی حتی آخر أحفاده حالیًا نصر أبو زید وجابر عصفور.

إن الإحراج الذی تعانیه مسيرة التنویر فی مصر ناجم فی الأساس عن نظرة نسقیة بنیویة جعلت من الإسلام نظامًا واحدًا وبناءً واحدًا یتماهی مع نفسه وینطبق علی نفسه. وواقع الحال فی الماضی البعید، وفی الحاضر الراهن، علی خلاف هذه النظرة السائدة حالیًا فی مصر. إذ ینطوی الإسلام بداخله علی إسلامات أخرى کفيلة بتهدید وجهة النظر الأحادیة التی رأت فی الإسلام النسق الواحد الذی تتصادی فیهِ الأصوات وتترجّع إلی مرکزهِ الأوحد المتخیل، أو إلی مرکز أوجبه مسارٌ تاریخیٌ مستبدٌ.

٢- الأصلُ المبددُ المتفرقُ: المركز لیس هو المركز

فی فاتحة کتاب *الفتوحات المکیة* یقدم الشیخ الأكبر درسه الأول عن التبذیر والتفریق مشیرًا إلی أن "عقیده خواص أهل الله من أهل الطریق المحققین أهل الكشف والوجود" حقها أن تأتي مبددةً علی أبواب کتابه، وهو یحاکی فی تبذیره هذا التجلیات الإلهیة اللامتناهیة بلا أول ولا آخر. إن الحق أو الأصل لا یأتی مرة واحدة أبدًا. ومن ثم، لا نقدر علی تعیننه أو الإشارة إلیه؛ فلا نستطیع أن نحدد له

بنية ولا مركزًا. وكلما ظننا أن هذا هو المركز، تلاشى الظنُّ لوجود مركز جديد، فـ الحق له ما لا يتناهى من المراكز. وهذا درس فى الصيرورة والتغير: درس فى التفكير.

ويقول دريدا إن التفكير تقنية مفيدة من منظور الإيمان؛ فالحاجة ماسة إلى نقد المؤسسة اللاهوتية من أولها إلى آخرها. وهى المؤسسة التى تحجب اللاتناهى المشار إليه وتُعتمُّ عليه بإيجاب مركز واحدٍ أول. وهو مركز لا يصمد فى واقع حاله أمام التفكير. فالشيخ العربى والفيلسوف الفرنسى يقولان لنا إن ما نسميه "الله" قد لا يكون هو الله، وما نسميه "الحقيقة" قد لا تكون هى الحقيقة؛ الأمر الذى يفتح الطريق واسعاً أمام إسلامات أخرى يفوق عددها الظنَّ.

٣- براعة مؤلف الكتاب واستدراك عليه

ولذا، فالكتاب مثير حقاً، ويضع قارئه فى حال جديدة تُخلفه عن ما كان عليه قبل قراءته. ولن تكون هذه الحال الجديدة- أو هذا الإخلاف- إن لم يتوفر شرط القراءة المبينة المخلصة؛ ألا وهو قدر عالٍ من إسلام النفس للمقروء يهيئها للإبانة عنه لاحقاً. إن علة التغير الحققة قدر من الإسلام يسميه المتخصصون فى محاورات أفلاطون التنازل السقراطى، وأزيد عليه تخليصه من غائلة الغلبة فيها، حتى يحدث نوع من اللقاء الحقيقى بالآخر الغريب.

والآخر فى هذا الكتاب مزدوج متضاعف. فهناك الآخر الذى ينتسب إلينا، والذى لظروف عديدة سياسية دينية ثقافية تَهَمَّش، وتهمش معه مسار معين فى لاهوت الإسلام، كان الشيخ الأكبر محبى الدين بن عربى علامة كبرى عليه تهميشاً جعله فى حكم الآخر الغريب. ثم هناك الآخر الغريب على الأصالة ألا وهو الفيلسوف الفرنسى الأعظم جاك دريدا، وقد تُدْفَعُ أصالة غريبته بنسبة عربية له، فإن صح الدفع فقد أشبهه سلفه الشيخ الأكبر. وأخيراً، هناك مؤلف الكتاب الذى استغرب

بتأليفه وأشكل. والاستغراب والإشكال مردّه في جانب منه أنه يرينا أمرًا جديدًا من أنفسنا قد غيرّه علينا، فإن كان الشيخ الأكبر أمرنا فقد ردّه المؤلف إلينا في ضوء جديد مستغرب، والاستغراب أفضى إلى إشكال؛ لأنه وهو يرده إلينا في الضوء الجديد أشكل علينا ما ظننا معرفته. ومن المعلوم أن النفس تستكن إلى الأليف المعتاد فإن تافت إلى غيره- وهو حاصل لا محالة- استشكل عليها أمر نفسها.

ففي الرد الجديد الذي ردّه المؤلف يقع الظنُّ بأن الشيخ الأكبر هو الفرنسيُّ دريدا فال الشيخ العربي إلى الاستعجاب، فأغرب المؤلف، ثم ألف حين أرسل دريدا في صورة نحسبه معها الشيخ الأكبر فال الفرنسيُّ إلى الاستعراب. وفي الحالين هو ليس هو. كأنك ناظر نظر المشتهى إلى جسدين اعتقنا، فما انماز سوى الرأس. وهو الواحد الأحد عند الشيخ الأكبر الذي يسبق المتكثّر المتضاعف وإليه يُردُّ. وفيما عدا الرأس ذاب الجسدان وانصهرا في فتنة الشهوة المشنقة.

إن هذا الكتاب بما يقدمه من معرفة عربية قديمة أغربها علينا وفرنسية جديدة ألّفها إلينا يهزأ بما نحن عليه من جهل بأنفسنا وبغيرنا. ولسوف يزداد الهزء إن اتخذ البعض ردود فعل سلبية نحوه.

ثم إنى لمسترك على المؤلف ما فاتته من دريدا؛ فثمة الأمر الجديد المعتبر، ألا وهو أن دريدا ذات يوم من أيام عام ١٩٨٨ تهيأ تهيئة شعائرية، ليست بالغريبة عليه، فقال إن التفكير "هو أكثر من لغة"، فأوجب بعد أن كان يسلب، ويقيد الإيجاب أشبه الشيخ الأكبر في إجابته الواحد الأحد السابق على التجلى المتكثّر المتضاعف. فالتعريف قيد على المعرف.

وهذا الاعتبار الجديد كان من شأنه تحويل مسار خطة الكتاب لو كان قد انتبه إليه المؤلف، فلو انتبه لكان قد صار الشيخ الأكبر طلاءً قصديريًا في المرأة التي تعكس الفيلسوف الفرنسي، وكان قد صار الفيلسوف الفرنسي طلاءً قصديريًا في المرأة التي تعكس الشيخ الأكبر، وكان المستخفى قد استخفى وهو يظهر على

ما أراد المؤلف مع ما فاتته. فليس هذا الفوت بالقادح الكبير عند المؤلف، غير أن المتعة الكبرى كان سيلقاها القارئ العربى وهو يتحرك صوب مرايا متجاورة تتبادل على أسطحها الصور فيحل الأكبرى محل الدردى، والعكس يحدث، حتى يستشكلا استشكالا يحول دون تمييز. والاستشكال الحائل دون تمييز - شريطة أن يظل استشكالا لا تطابقاً أو تماهياً - يعلو فى المقام على التشبيه أو الاشتباه عند أرباب ما بعد الحداثة على الإجمال.

وبهذا الفوت أو التغاضى، حفظ المؤلف ما فرق بينهما ظاهراً؛ ألا وهو الأمر القوى الشديد على أوروبا: الواحد الأحد. فإن اعتبرناه على ما اعتبره المؤلف ما عرفنا الاختلاف المرجئ ولا الواحد الأحد.

وثمة استدراقات أخرى هينة تتعلق بأنواع من السهو أو الغلط مما يقع فيه الأجنبى حين تعامله مع أرضنا الحضارية، وهو شبيه بسهولة أو غلطنا الهين - أحياناً - حين نتعامل مع أرضه الحضارية، فاستدركت ما ألمت به فى متن الترجمة ولم أر حاجة إلى الإشارة إليه.

ولا يقدح ذلك إطلاقاً فى قيمة الكتاب الذى يُعدُّ إلى جانب كتاب العربى المغربى خالد بلقاسم من أهم الكتب التى تناولت الشيخ الأكبر من منظور ما بعد الحداثة عامة والتفكيك خاصة. ومن عجب أن الكتابين صدرا فى عام واحد. وفى هذا التزامن اللافت الذى جمع الأجنبى ألموند إلى العربى المغربى بلقاسم إيماءً قوى شديد إلى خصوبة الشيخ الأكبر واستحقاقه المعاصرة.

٤- فى الضوء الجديد المعتبر

وتبقى إشارة لعله من المهم التنبيه إليها، وهى تخص قارئ النصوص الذى تلقى تدريباً أكاديمياً أغلق عليه الجهات فحسبها كلها جهة واحدة؛ وبحسبانه هذا قد عاكسَ خلقة الجسد البشرى الذى هو فى أصل خلقته منفتح مفتوح مستدير الحركة

ملتو، فجعل العينين عيناً واحدة وجعل الأذنين أذناً واحدة وجعل تقلب القلب حجراً صلباً راسخاً؛ ألا وهى استراتيجيات الهاجس والظن والريبة التى يفتحها الشيخ الأكبر ابن عربى والفيلسوف الفرنسى دريدا- كل على طريقته- بصدد الأصول المعرفية ورؤى العالم التى تصدر عنها طرق معالجة النصوص تقليدياً، وهى أصول تعسفية استبدادية تُعكس التفتح الروحى والجسدى الذى هو أصل خلقة الإنسان والذى كان من المفروض أن يكون أصل كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال؛ بل وإنها لتعكس اللاهوت المسلم المستتير على حدِّ الشيخ الأكبر.

أعنى تلك الأصول التى صدرت عنها نظريات الأدب وطرق معالجة النصوص قبل دعوى دريدا، ثم الأصول التى صدرت عنها- وتصدر- طرق تفسير النصوص الدينية والتفكير فى الله قبل فصل الشيخ الأكبر وبعده سوى أتباعه. وهى كلها تكشف عن الرغبة فى تملك واستملاك ما لا يقبل التملك أو الاستملاك، سواء كان النص الأدبى أم نص القرآن العظيم.

يحتاج قارئ الشيخ الأكبر والفيلسوف الفرنسى أن يحاكي جسده فى تفتحه وإشراقه، يحتاج إلى عقل عارٍ عن العقل يحاكي القلب والجسد. هذا هو معنى التفكير بالجسد الذى أشرت إليه فى موضع غير هذا. وكم من روعة وبهاء فى هذا: روعة الحرية وبهائها.

يحتاج القارئ أن يخلع ثوبه: ثوب العقل والجسد. وفى هذا الانخلاع عن الثوب نوع من الهزء والسخرية بالذات على ما درجت العادة الاجتماعية وفرضته أعراف الحياة بين الناس. ويلفتنا الفيلسوف الفرنسى إلى نشاطٍ فى التفسير النصيَّ جديدٍ أدّى إليه خلغُ ثوب الوهم، وهم أن النص حامل معنى حق علينا استكناه سرّه، ويقول إن خلغ ثوب الوهم فيه التأدية إلى الهزء والسخرية من الذات واستهزاء بها، ففتنى هذا الخلغ إلى ذاك. ولا يقدر عليه المتأنق الأكاديمى الذى يعكس تأنقُ ملبسه تأنقَ عقله مخافة قدح اجتماعى. والتأنقُ فى الملبس استعلاءً يرجعُ صدى استعلاء عقلٍ جمَلته القيود والضوابط وهيأته الأصفاد.

٥- الأفتدة الهواء

بعض النقاد يأخذون على عاتقهم القيام بوظيفة حراسة النصوص فيرعونها أخلاقياً وجمالياً مهتدين بتعاليم ميتافيزيقية ولاهوتية مضمرة، وأحياناً تتلون هذه الرعاية تلوناً صريحاً بأصول ماركسية قديمة أو بمسئحاثات دينية ليست منه في شيء (وقد يتحالفان تحالفاً يُرجَّعُ أصداءً سياسية ما!)؛ وهم الذين أسماهم الموند "البصاصون الأكاديميون" ممن يفتشون باستمرار عن المعنى الحق في النص محاولين استعادته وتملكه.

وقد أذكرتني هذه الرعاية بعفريت ألف ليلة وليلة الذي حبس امرأة أعجبتة في قمقم مستبداً بها حتى لا تتغير عليه، فكان أن تغيرت عليه وخانته بعدد الخواتم التي تحملها دليلاً ممن ضاجعتهم، وفي كل مرة تخرج من القمقم في غفلة العفريت فتفعل الأفاعيل على هواها دون هواه. هكذا حال النصوص مع حراسها، أدبية كانت أم دينية. الإنسان لا يقدر على حراسة نفسه فكيف ظن حراسة غيره؟! ألا وقد سلف أسلاف فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟!!

إن طبيعة الموضوع الذي يعالجه الكتاب تأبى تحكـم التـحـديد والقصر فإن عولج باستبدادٍ لم يُتَلْ منه شيء ولفات التلذذ الذي يصاحب التلون والتغير. وهما أصل الأشياء والموجودات فإن لم يُدركا فات التلذذ فوت الطعوم المختلفة في الثمرة الواحدة على المتعجل اللهوف المستبد. ويعرف جميع الناس اختلاف طعم لحم الشاة باختلاف مواضعه منها، ومع ذلك تجد أكثرهم ينكره حين ينظر بعقله في أمر أو كتاب. ويقولون هذا لحم واللحم صفته كذا، وهذا ليس على الصفة فليس بلحم. وعلى مناسبة الشاة هنا من الطريف التعجيل بإيراد مجاز سيطالعه القارئ في هذا الكتاب؛ ألا وهو مجاز البقرة، فأكثر الناس يحددون الله بمنظور واحد نافع لهم نفع البقرة يحبونها لخليبها وجبنها.

ألا وإن التلون والتغير ليجدهما المرء من نفسه وجسده؛ فمشاعر الإنسان وانفعالاته لا تمضى على صراط مستقيم تجاه الأمر الواحد والشخص الواحد، بل وإن ملامح الوجه لتتغير من الصباح إلى الظهر إلى الليل، وفي الوقت الواحد. فهل كان الظن من الإنسان أن العقل ضابط الهوى وسائس جموح الجسد وشرود النفس؟! ليس هذا الظن بسديد ولا يستقيم، على الأقل لو تقبلنا منظور الشيخ الأكبر الذي ينظر منه إلى الله، وهو منظور يهدد في حقيقة أمره فكرة المنظورية من أصلها وينسفها نسفاً. لأن الله لا يقبل المنظور. ولا يحيط به منظور. كذلك النص الأدبي.

وقد حال التدريب الذي تلقاه رئيس الشرطة بينه ورؤية الرسالة المسروقة الموضوعية على الطاولة أمام عينيه في قصة الكاتب إدجار آلان بو التي تحمل هذا العنوان. ولو أنه تدرّب على التلون والتغير في أنماط اللغز لما كتب السيد بو قصته التي نعرفها أو كتبها بطريق آخر. ثم، أما كان يكفي رئيس الشرطة التشكك والارتياب في التدريب الذي تلقاه حتى يصل إلى الرسالة المسروقة؟!

ينبهنا الأدب دومًا إلى أشكال النقص التي نعانيها في عقولنا وأنفسنا، فبدلاً من العصف به وقيده فعل عبد السوء بسيدنا علينا الإنصات إلى السيد الذي منه نتعلم. وأنا أتكلم عن النصوص الأدبية ذات الاعتبار التي إن طالعتها أخذتكم عن نفسك أخذَ العزيز المقتدر، فلا تدرى معها من أنت وما هي، كبعض نصوص أستاذينا العظمين إدوار الخراط ونجيب محفوظ.

بعض النقاد يتلقون العمل الأدبي تلقى المحكوم عليه بالإعدام شنقاً، فما عليهم إلا تهينة الأحبال الغلاظ وغطاء الرأس والوجه، وبعضهم ينفذ الحكم بلا غطاء غرقاً منهم في استبداد غير رحيم. أو يرونه امرأة يأخذونها غصباً؛ فيتلتمسون ظاهراً من قول وفعل أدتهم إليه مشاعرهم الباطنة المنحرفة المعوجة نحو المرأة. لقد دعانا الشيخ الأكبر إلى النظر بكلتا العينين، ويدعونا الفيلسوف دريدا إلى الكتابة بكلتا اليدين: نظر مزدوج وردّ مزدوج. وكلتا الدعوتين إنصات إلى تقلب القلب ومجاراته في عدم الاستقرار على حال.

النص صحراء بلا دروب لا تعطى نفسها أبدًا. فإن كان لا بد من الدخول إليها والسير فيها، فما نفع الخرائط، وما نفع شمعة في ليها الطويل؟ أو ليست هذه حياتنا نمضى فيها من درب إلى درب على الظن، ثم إن نظرنا خلفنا تحقّق أنها ما كانت سوى الصحراء، وكنا نحسبها المسالك ذات الأوتاد؟! يقول دريدا إن الخطاب الحى- وكذلك النص- بشبحيته وطيفه وصورته الزائفة ليس شيئًا جامدًا وليس عديم الدلالة؛ لأنه يدل دلالة ضعيفة باهتة. ويقول إن هذا الدال الباهت الضعيف، هذا الخطاب الذى لا يرقى إلى مرتبة شىء كثير، حاله من حال كل الأشباح: هائم على غير هدى، يتقلب فى هذا الطريق أو ذاك، شأن شخص ضلّ طريقه، شأن مَنْ فقد الرشد والصواب. ويقول دريدا إنه كالنسل المارق المنحرف، متشرد يغامر ويتسكع تائهاً فى الدروب لا يعرف مَنْ هو وما اسمه، مقتلع بلا جذور لا بيت له ولا وطن.

٦- عن الهاجس والظن والريبة

ولا يظنن القارئ أنى أسبقه بشىء أدعوه إليه؛ فأنا أتخلع عن نفسى مع كل فكرة مثيرة فى هذا الكتاب. ولطالما توقفت أمام عبارات وردت فيه هزئتى هزأً، وحقيق أن تهزأ قارئها، لعل أشدها العبارة الآتية الواردة فى بدايات الفصل الرابع تقريباً: "لا بد أن يكون السرُّ 'غير حقيقى' حتى يمارس قوته علينا". ولسوف يزداد التخلع والاهتزاز لو ربطناها ببعض تأويل الشيخ الأكبر فى كتابه *فصوص الحكم* سواء تلك التأويل التى أوردها السيد الموند أو التى تغاضى عنها.

وقد توقفت عن الترجمة مدة بسببها؛ فوقع العبارة بحد ذاتها قوى شديد، يحيل حياة بأسرها إلى كذب وسخرية. فإن فكرنا فيها على النحو الذى يحصر أثرها بين صدق وكذب وحق وضلال فليست بشىء وما انتفعنا. وقد فكرت فيها على هذا النحو الذى أظنه نحو معظمنا بحكم إلف وعادات راسخة فى التفكير، وليس هذا بعيد وإنما العيب الاستمرار فيه. فالعبارة إن حققناها حادى الحرية

وإعلان عن مسئولية التفكير والتزامه. تعلن العبارة عن أمانة عُرضت على الناس وحملوها، والحمل احتمال أيضاً وتحمل. فإنَّ صارت الأمانة أثقالاً ينوء بها العنق والظهر تفرَّغنا من وقَع العبارة على قلوبنا وأشبها الحمار المضروب به المثل فنخرج عن حد البشرية. أصل الأمانة الخفة لا الثقل، والتفكير حين يكون مسئولاً وملتزمًا سيكون خفيفًا. فهذا حملة واحتماله الذي صار ثقيلًا علينا. لماذا؟

التفكير عملية مستمرة وحركة دائبة، والأسفار على ظهر الحمار ثابتة لا تتحرك. يتعلّق الفارق من ثمَّ بالثبات. وما أثبت إلف وعادة عند الإنسان. الإلف والعادة تُوهِمُ ظاهراً بخفة وراحة أما باطنها فتقل ووطأة. الإلف والعادة أصنامنا الجديدة وعذاب شديد. الرسوخ والثبات هما العلاقة بين الأسفار والحمار. وقد استعاضت الشجرة عن ثبات أصلها في الأرض برؤوسها الكثيرة العالية المتمايلة مع الهواء. فلا إلف ولا عادة عند الشجرة لأن رؤوسها في حركة دائبة وتغير متواصل.

وكثير منّا يتولون أنفسهم بأنفسهم ولاية شجرة مقطوعة الرؤوس فلا رأس لها، أخلدوا إلى تحت الأرض، فلا تجد فيهم إلا إلفاً وعادة فأشبهوا غير بشريتهم. والإلف والعادة خروج عن حد البشرية المعتبر؛ ألا وهو أن الإنسان الكائن الحيّ المُبينُ الميت. وما الحياة والإبانة والموت إلا تغييرات كبرى تقع على البشر. فإن تكلمنا عن الموت تكلمنا عن التغيير الأقصى، فكيف نتقبله إن لم نكن مدربين على التغيير ابتداءً؟! وقد وقع في ظني أن صفة الفجيرة التي يضيفها الناس على الموت ما جاءت سوى لأنه مخالفة كبرى للإلف والعادة؛ لذا يتفرَّع منه البشر.

مع الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والفيلسوف الفرنسي الأعظم جاك دريدا نتدرب على التغيير، وفي التدرب على التغيير تأدية إلى هاجس وظن وريبة. والهاجس والظن والريبة معلّمة التواضع وتخلُّ عن الحكم والاستبداد والتحكم. أما التأدية الأعظم فإلى زحزحة التمرکز حول الذات وزحزحة صورة الآخر صنعية الذات. وسوف يتلوها قدرة على الإنصات إلى حد الآخر الذي ارتضاه لنفسه، إلى الآخر في تمامه وبهائه ورونقه، إلى الآخر وهو يتفتح علينا فنبين عنه على قدر

تفتحه. وفي إباننا عنه تفتحنا وإشراقنا، وما التفتح والإشراق سوى حركتنا الدائبة المتغيرة. فإن تعلم البشر فيما بينهم الإنصات إلى بينهم فلسوف يتقبلون الآتى بأخريته المطلقة، بغرابته المطلقة، بنوئها الأقصى عن الإلف والعادة، ولسوف يقفون على غرابة الغريب وما أعذبا من وقفة. لعله حينها نسترد بشريتنا المسلوبة عنا بحكم الذات وصنيرة الذات.

هذا الكتاب خطوة على طريق الارتياح المتواصل فى مألوفاتنا وعاداتنا الراسخة دينياً وسياسياً، وثقافياً واجتماعياً.

وفى النهاية، لا عزاء لى سوى أنى بذلت فى ترجمته الجهد الأقصى حتى خرج على صورة أرجوها من سلاسة الأسلوب ووضوح التركيب العربى، والحق أن هذا البذل ناتج فى الأساس عن تلهذى بالكتاب على صعوبته فقد صادف هوى فى نفسى. ولهذه المصادفة السعيدة كنت أتمثل عبارة المؤلف أحسن التمثل فى نفسى على قدر الطاقة، فأعبر عنها مقدماً ومؤخراً أنى شاء التركيب العربى السليم، ثم تجنبت ما وسعنى الحال الأخطاء الشائعة فى التركيب أو المفردات مما استألفناه مؤخراً.

وقد ورد فى الكتاب الكثير من أسماء فلاسفة ومتصوفة يهود ومسيحيين ومسلمين، سادة العصور الوسطى فى بلاد العرب وأوروبا، فاكتفيت بنبذة لبعضهم ممن يفيدون سياق الموضوع، وكان مرجعى كتاب *فلسفة العصر الوسيط* الصادر عن دار شرقيات عام ١٩٩٩، ومن المفيد مطالعته حتى يضع القارئ نفسه فى الجو العام الذى يحلق فيه ألموند. ثم ألحقت ثبناً بالمفردات والتعابير الضرورية، وبعضها وضعت له أكثر من مقابل عربى على ما احتمله السياق فى الكتاب.

ولا بد فى النهاية من توجيه الشكر العميق إلى الأستاذ سامى سليمان الذى لفتنى إلى هذا الكتاب الرائع، وإلى الأستاذ محمد بربرى الذى وفر لى نسخة منه، ودفعنى بحماس زائد إلى ترجمته، ثم تولى مراجعته. وإلى الأساتذة صفاء فتحى

وفريال غزول وشمس الدين الحجاجى على وقت بذلوه معى فى إيضاح بعض غوامض هذا الكتاب العسير، وإلى حضرة الأستاذ أحمد عثمان على ما أعطاه من مؤازرة ودفع معنوى كان لهما أثرهما الكبير فى مواصلة الترجمة. وأخيراً، إلى أستاذنا جابر عصفور لجهوده الكبيرة فى إثراء الحياة الثقافية المصرية والعربية فاتحاً بعزم شديد سبلاً جديدة من العلاقة بالآخر تهتدى بأسلافنا من التنويريين العظام فى مصر؛ فزاد آخرهم على أولهم.

٧- شمس الظهيرة

إن أصابع اليد الواحدة لتختلف بصماتها اختلافاً عجيباً. وإنه الاختلاف الحق، فحقيقٌ علينا تبصره وتأمّله. والله من وراء القصد وعليه التوكّل.

حسام فتحى نايل

الهرم، منشأة البكارى

٢٠١٠ / ٥ / ٢٩

مقدمة المؤلف

فى هذا الوقت، زعم أحدهم أن
"الوجودى طيلة الوقت" كان هو ابن
عربى الذى لم تكتفِ سبعة قرون
لاحقة عليه بمحاكاته، وإنما سرقه
العالم الغربى فى الخفاء... (أورمان
باموق، الكتاب الأسود)⁽¹⁾.

لعل تاريخ الأفكار لم يكن سوى توثيق دقيق لسرقات حدثت فى الخفاء. وبرغم أن
رواية باموق المثيرة الرائعة تنفر إلا قليلاً من هذه الأفعال، إن جاز القول، فكل يوم
تقريباً تُكتشف سوابق على الوجودية تماثلها، بدءاً من هيراقليطس Heraclitus
مروراً بأوغسطين Augustine انتهاءً بالأكويني Aquinas. ويتهم باموق من
الغريزة الإقليمية المعتادة عند الكثير من النقاد ممن يسعون إلى إعادة موازنة
عريضة فى الثقافة الحديثة، بل وقروناً بأكملها من الفكر، لصالح مصدر ثقافى
واحد (هو المصدر الثابت الذى ينتمى إليه الناقد) - يتهم مستخدماً ابن عربى
نموذجاً على برامج إسلامية عقلانية فى "الشرق" (وأستخدم الكلمة الأخيرة بأساً من
وجود تعبير أفضل) سعت إلى الزعم بأن أصول الغرب فى الشرق. إذ يُضرب
المثل بأثر مزعوم أثره الشيخ فى عمل دانتي Dante الكوميديا الإلهية *Divina*
Commedia - مع عدد من الأمثلة الأخرى - نموذجاً على تأويل معبر عن الرغبة
لا الواقع، ولا يذكر باموق بالاسم أن أول باحث قال هذه المقالة كان آسين
بلاسيوس Asin Palacios .

وسواء كان ابن عربي "سُرق في الخفاء" أم لا؛ فالأمر المؤكد أن ابن عربي شخصية "مثيرة مُشعَّة". فعلى مدى مائة وخمسين سنة تلت نشر العمل الأول من أعمال ابن عربي في أوروبا^(٢) أخذ الاهتمام بهذا المفكر، الذي لم تعرفه أوروبا من قبل، يتزايد. ومع الازدهار الاجتماعي وزيادة الدراسات النقدية والمجلات الفصلية ارتبط ابن عربي (أو الشيخ الأكبر كما يُعرف في العالم الإسلامي) بميكانيكا الكم وديانة الطاوية والقدّيس توما الأكويني وسيدنبرج Swedenborg والروحانية الجديدة، وكانط Kant ونظرية الفوضى، على سبيل المثال لا الحصر. وفي عمل صدر مؤخرًا عن روتلج Routledge، ألا وهو *تاريخ الفلسفة الإسلامية* *History of Islamic Philosophy*، تَضَمَّنَ فصلين رئيسيين موضوعهما محيي الدين بن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠)، أُلْحِقَ الشَّيْخَ بَرْمُوزَ "المشاركة" الذين لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة عددًا (الرومي، وابن رشد، وابن سينا) ممَّن يعرفهم غيرُ المتخصصين في الغرب.

وكما يحدث في الغالب، أثار هذا الاهتمام الغربي الشعبي الواسع بابن عربي ردود فعل دفاعية بين باحثين مترمّتين في حقل دراسات ابن عربي. فأخذ محمود الغراب - وهو من هؤلاء الباحثين - يبرهن في عشرين صفحة على أن ابن عربي لم يكن شيعيًا ولا متفلسفًا ولا إسماعيليًا ولا باطنيًا ولا متعاطفًا مع اليهود والمسيحيين على الأخص، وإنما هو "مسلم" "سلفي"^(٣). ويؤدى ويليام شيتيك William Chittick - وهو الشخصية الشامخة في حقل دراسات ابن عربي - درجة من الحذر نحو وصلَّ الشيخ بمنظرين معاصرين "زعموا أن اللغة محدَّدة الواقع"^(٤). وفي كل ذلك، ثمة رغبة حريصة على السياق (وبتعبير دريدا، "وصاية لا غنى عنها")^(٥)؛ أما الدعوة إلى تحديد ما يكونه ذلك السياق - وما إذا كان ابن عربي يقرأ فيه أم خارجه - فتظل كلامًا أيسر من عمل.

وليس موضوعُ هذا الكتاب الزعمَ بأن ابن عربي كان وجوديًا - أو ما بعد بنوي - طيلة الوقت، كما قال باموق مازحًا. وإنما سأحاول - على الأصح - تناول

التصوف والتفكيك (ولأستخدام تشبيهه بنيامين) بوصفهما شطايا مختلفة انتشرت من
 فائزة واحدة تَهَشَّمَتْ كُلُّهَا. وعند معالجة نصوص تفصل بين أصولها ثمانمئة عام
 تقريبًا وآلاف الكيلومترات، لن يكون هَمُّ هذا الدرس تحويل متصوف القرن الثالث
 عشر إلى منظرٍ ما بعد حدائى، ولا "أسلمة" جاك دريدا بتحويل كتاباته إلى صورة
 من صور التصوف الإسلامى (فنقدم الدليل على "جاك الوافد من البيار فى الجزائر"
 على حدِّ مداعبة جون كابوتو John D. Caputo)^(٦). وعلى مدى خمس عشرة سنة
 ماضية، قام باحثون من مختلف أنحاء العالم فى أقسام الدين واللاهوت المقارن
 بإعادة اكتشاف نماذج متنوعة سابقة على كتابات دريدا التفكيكية فى تراثهم
 الدينية، ولا ريب فى أن هذا الاتجاه يجد ما يشجع عليه، فمن المعتقد أن شخصيات
 أمثال ديونيسيوس الأيوباجى المنتحل Pseudo-Dionysius والعلامة إيكهارت
 Meister Eckhart وشانكارا Sankara ولاو-تسو Lao-Tzu وعين القضاة
 الهمذانى قاموا بتفكيك الفرضيات المتمركزة لوغوسيًا المتواترة فى عقائدهم؛
 فخلَّصوا الروحانية الأصيلة من الميتافيزيقا السارية فى أزمنتهم^(٧). وما من شك فى
 أن الهدف الأول من هذا الدرس إيضاح أن ثمة عملية تفكيكية مماثلة فى كتابات ابن
 عربى، غير أن هذا الإيضاح لا يسعى إلى تحويل ابن عربى الذى عاش فى
 العصور الوسطى إلى منظرٍ ما بعد بنوى.

وأرجو أن تكون المقارنات السابقة نقطة انطلاق هذا الدرس لا غاية فى
 ذاتها. فبدلاً من تقديم رواية ما بعد حدائية لكتابى *الفتوحات المكية* و*فصوص*
الحكم، يمكن إثارة عدد من الأسئلة الأكثر جدية: ما العلاقة الدقيقة بين ابن عربى
 ودريدا؟ وعلى أىِّ نحو يُناظرُ معجمُ شيخ متصوف أعمال منظرٍ فرنسى معاصر
 قال عن نفسه إنه "الملحد الحق"^(٨)؟ وهل تُغيَّرُ الاستعارات والاستراتيجيات
 والعناصر الرئيسية فى التفكيك من معناها تغييرًا كليًا فى سياق مقارنتها بالتصوف؟
 وأخيرًا، هل يعلمنا ابن عربى أن نقرأ دريدا بطريقة مختلفة (والعكس بالعكس)؟

ولا بد من الإشارة إلى أن اهتمام دريدا بالإسلام اهتمام طفيف سطحي^(٩)؛ فباستثناء تعليقات نادرة وردت في كتابه *هدية الموت The Gift of Death* وبعض ملاحظات عن الجزائر، تغيبُ التعليقات على الإسلام والفكر الإسلامي غيابًا لافتًا عند كاتب أمضى سنوات نشأته الأولى في بلد مسلم (الجزائر). ومع ذلك، اهتم دريدا- على نحو ما- بالتصوف والروحانية، أو إن شئنا الدقة، اهتم بالكيفيات التي حاول من خلالها عدد من المعلقين على أعماله أن يصفوه بأنه متصوف أو عالم لاهوت سلبي، وقال بعضهم إنه يجعل من شخصيات أمثال العلامة إيكهارت وديونيسيوس المنتحل- ممن ينتمون إلى التراث الصوفي- أسلافَ التفكيك. وعلى مدى سنوات، انشغل دريدا بدفع هذين الرأيين، ولعل من بين الأعمال الدالة التي أنجزها في هذا السياق مقال عام ١٩٨٧ "كيفية تجنب الكلام: إنكارات" How to Avoid Speaking: Denials؛ إذ يناقش دريدا في "إنكارات" النماذج المعرفية اليونانية... والمسيحية" في اللاهوت السلبي negative theology؛ فأبان أنه وإن كانت "إعادة مواءمة [الاختلاف المرجئ] ضمن حدود الأنطولوجيا تظل أمرًا ممكنًا دومًا"^(١٠) فإن مفكرين من أمثال ديونيسيوس المنتحل وإيكهارت ينشغلون- نهاية الأمر- بشيء جَدَّ مختلف؛ ألا وهو الحفاظ على "جوهرانية عالية hyperessentiality ووجود أبعد من الوجود"^(١١). وبرغم أن دريدا اقتصر في مواجهته اللاهوت السلبي على الصور اليونانية والمسيحية- وهو من وصف نفسه في عمله *اعترافات الختان Circumfession* بأنه "عربي فعلاً، يهودي بالكاد" فأحال أن يكون يونانيًا أو مسيحيًا- فقد كان على وعي بوجود تراثات أخرى متنوعة لم يشملها مقاله:

وهكذا، قررتُ عدم الكلام عن الاتجاهات السلبية أو النافية في تراثات أخرى كالتراثين اليهودي والإسلامي على سبيل المثال. إن ترك هذا المكان الهائل شاغراً، ذلك الذي كان سيصل- في المقام الأول- اسمَ الله باسم المكان، ليظل من ثمَّ على العتبة، هذا الترك

ألا يعبر عن أدوم إمكانات النفي؟ أليس في ما يتعلق بذلك الذى لا يمكن المرء الكلام عنه أفضل طريقة تحفظه صامتاً؟^(١٢).

لا شك أن هذا اعتراف- أو تغافل- مهم يثير عددًا من التساؤلات: ما الاختلاف الدقيق بين صورة اللاهوت السلبي اليونانية المسيحية التى رغب دريدا فى الكلام عنها والصور اليهودية الإسلامية التى استشعر أنه لا يقدر على الكلام عنها؟ هل يلمح دريدا إلى نجاح تفكيكى ما فى الروحانية اليهودية الصوفية؛ نجاح لم يختلط بنظائرها اليونانية المسيحية التى استندت استنادًا هيلينيًا كنيًا إلى Logos (= النوغوس، الكلمة، العقل) وإلى the epekeina tes ousias (= ما وراء الوجود الظاهر)؟ أم على العكس، يعتقد دريدا أن التراثين اليهودى والإسلامى- غير المألوفين عنده- يمكن تجريحهما ميتافيزيقياً على نحو ما فعل باللاهوت السلبي اليونانى المسيحى الذى يفككه بجرأة وجسارة؟

تظل إشارة دريدا إلى السطر الأخير الشهير فى عمل فتجنشتين رسالة *منطقية فلسفية*^(*) *Tractatus* (إن ما لا يستطيع الإنسان أن يتحدث عنه، ينبغى له أن يصمت عنه) غير واضحة. لماذا يظل "الموقع الهائل"، موقع اليهودية والإسلام، مسكوتاً عنه؟ وما الذى يمنحه معالجة خاصة؟ إن "المسكوت عنه" الذى أشار إليه فتجنشتين الشاب كان سكوتاً أو صمتاً غير دريدى بالمرّة، كان موقعاً أو مكاناً خارج عالم الوقائع والأشياء، ومن المستبعد أن يستخدم دريدا مثل هذا الموقع المنعالي لتعيين آخرية تغيّر مغايرة أصيلة النموذج المعرفى اليونانى المسيحى.

(*) هذه "الرسالة" كتبها فتجنشتين تحت عنوان *Logisch-Philosophische Abhandlung* ونشرت تحت هذا العنوان باللغة الألمانية عام ١٩٢١. ثم بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢ غير فتجنشتين عنوانها إلى الاسم اللاتينى الذى عُرفت به بعد ذلك وهو *Tractatus* بناءً على اقتراح جورج مور. ومن المحتمل أن يكون كتاب اسبينوزا *Theologico-Politicus* (= رسالة فى اللاهوت السياسى) هو الذى أوحى إلى مور بهذه التسمية. ثم ظهرت لها ترجمة جديدة بالإنجليزية عام ١٩٦١، أما الدقة فى الترجمتين فهى محل خلاف كبير بين الفلاسفة المهتمين بأعمال فتجنشتين- المترجم.

فإذا كان معنى التعبير الذي قاله دريدا- "لا يمكن الكلام عنه"- أنه لا "ينتمي" إلى تراثات اختار أن يتغافل عنها، فإن هذا التغافل يلفت النظر لغرابته: يهودى جزائرى يشعر أنه "فى بيته" حين يكتب عن راهب سورى دومينيكانى ألمانى بافرى^(*) ظاهرأتى، ثم يتردد فى الكتابة عن معتقده الخاص (وإن تخطى عنه)، أو عن التراث الإسلامى من هذه الوجهة (ابن مسرّة، ابن عربى، ابن رشد) الذى انتشر على مدى واسع فى أسبانيا المغربية المسلمة وفى "أوروبا المسيحية" التى انتقدها دريدا بحق فى موضع آخر.

فما العلة الحقيقية التى دفعت دريدا إلى اتخاذ قرار بـ"عدم الكلام" عن التراثين اليهودى والإسلامى فى تفكيكه الذى عارض به اللاهوت السلبى (الأمر الذى يضيف على مقاله "إنكارات" طابعاً أصولياً)؟ ثم لماذا اختار الإقامة فى أوروبا المسيحية؟ لعل دوافع دريدا بسيطة صريحة لا مركبة؛ فلعله لا يعرف ما يكفى عن مدرسة جيرونا^(**) Gerona أو سفر التجليات The sefer ha-bahir أو ابن عربى أو جلال الدين الرومى أو السهروردى، وربما لأنه لا يقرأ بالعربية أو الآرامية، أو لعله وقع فى غواية إيجاد نسب ممكن بين ديونيسيوس المنتحل وإيكهارت وهيدجر Heidegger (ويمكن قراءة أعمالهم بوصفها أسلافاً له) فضلً فى صحراوات غريبة على التصوف اليهودى القابالى Kabbalism أو النزعة الباطنية الفارسية. ومن المحتمل أن دريدا كان أكثر انجذاباً إلى تفكيك التراث المسيحى الأوروبى منه إلى التراث اليهودى الإسلامى غير الأوروبى فى لحظة من الصواب السياسى تحكمت فيه على طريقة البنية التحتية؛ وبعد كل كلامه عن "أوروبا التى وحدتها المسيحية" و"مازق الانغلاق الأوروبى المتمركز لوغوسياً"⁽¹³⁾، فلربما استشعر حاجة أكثر إلحاحاً إلى تفكيك التمرکزات اللوغوسية الأوروبية المسيحية لا نظائرها الإسلامية أو اليهودية.

(*) بافاريا: ولاية ألمانية تقع فى جنوب ألمانيا- المترجم.

(**) مدينة أسبانية تقع فى الجزء الشمالى الشرقى من أسبانيا- المترجم.

ومن الواضح أن الأسباب التي نتلمسها ساخرة أو كلبية، ولذا فمن الوارد أنها غير عادلة. ومهما كانت الأسباب التي دفعت دريدا إلى عدم الكلام عن الروحانية الإسلامية المتصوفة، فثمة الأمر الواضح؛ ألا وهو أن دريدا يقدم تفسيراً يليق بعالم اللاهوت السلبي وحده؛ فصمته الذي أشرنا إليه يُعدُّ "النفى الثابت" الأكبر بصدده قضية الإسلام. وسواء كان ما أقوله ينطوي على قدر من الإساءة أم لا، فخلاصة الأمر أن "التقاليد الإسلامية" تنتمي إلى شيء يُغالي في آخريته الجذرية فَبَعْدَ أَنْ يكتب عنها فرنسيٌّ ما بعد بنوي. وعليه، يصير الإسلام هو الآخر المسكوت عنه مرة أخرى، يصير آخر لا محلَّ له في النقد الموجَّه إلى اللاهوت السلبي المسيحي.

سأحاول ردًّا على ذلك إيضاح أن أعمال ابن عربي - إن استثنينا أنها أعمال باطنية صوفية مبهمة مشفرة بالمصطلحية الشرقية الروحانية - تثير الأسئلة نفسها التي أثارها عدد من الشخصيات المألوفة في الغرب، فتتحرك في اتجاه يماثل حركتها. إن ارتياب ابن عربي في الفكر العقلاني الميتافيزيقي وإدراكه قدرة اللغة على الخلق، وتبصره الرائع باستناد الهوية إلى الاختلاف، ثم تأويليته الرفيعة وتقديره الذاتية تقديرًا جديدًا... قد هيأت جميعها قدرًا كبيرًا من شبهه وتمائله مع شخصيات رئيسة في التراث الفلسفي الغربي. وفي ذلك ما يفسر حضور العلامة إيكهارت (١٢٦٠ - ١٣٢٧) حضورًا خفيًا ملموسًا على طول هذا الكتاب، ممثلًا شبح الشخصية الثالثة في درسنا المقارن بين ابن عربي ودريدا، وثمة سببان دفعا إلى هذا الحضور الشبحي: الأول أن إيكهارت الشخصية الأقرب في الغرب إلى ابن عربي، أما الثاني فعلاقته الكبرى باللاهوت السلبي كما يقدمه دريدا^(*).

(*) العلامة إيكهارت: أحد كبار متصوفة المسيحية في نهاية العصر الوسيط، وقد عدَّه هيدجر أحد شيوخ الفكر. وجد العلامة إيكهارت أنه ما كان من شأن "الإله" أن يصير "حق الإله" في ما وصفه به علماء اللاهوت وإنما في ما لم يصفوه به. وبذلك يُعدُّ إيكهارت علمًا من أعلام مدرسة اللاهوت السلبي النافي. وكان إيكهارت متشيعًا لأفكار ديونيسيوس الأريوباجي =

لقد وصف أحد النقاد ابن عربي بأنه "العلامة إيكهارت فى التراث الإسلامى" (١٤). ومن اللافت المدهش أن عددًا من الدراسات عن ابن عربي والترجمات الغربية تذكر إيكهارت عرضًا (انظر على وجه الخصوص، دوم سيلفستر هودهارد Dom Sylvester Houdehard)، أما باحثون آخرون من أمثال رالف أوستن Ralph Austin فيتحدثون عن "أوجه الشبه اللافتة". وإن لم نقرأ كلمة من أعمال ابن عربي فمن اليسير إدراك السبب فى أن العديد من الباحثين يربطون بينهما. فكلا المفكرين شرعا فى التوليف الجذرى بين التصوف والفلسفة، ثم عانينا الاضطهاد من السلطات نتيجة ذلك، كما أنهما شدًا الرحال إلى حجّات/رحلات طويلة لأعوام متواصلة (من أشبيلية إلى دمشق، ومن إيرفورت (١٥) Erfurt إلى أفينيون (١٦) Avignon)؛ وقد مهّد الطريق لعدد من أتباعهما بعدهما (هاينريش زوزى Suso، يوهانس تاوولر Tauler، داود القيصرى، الفاشانى) فشرحوا أعمالهما ونشروا أفكارهما.

كما أن المناقشات النقدية الحديثة التى دارت حولهما متناظرة؛ فثمة أدلة قدمها باحثون على تقليديتهما والتزامهما الطريق القويم، ثم تصنيفهما السدىنى (شيعى، سنى؟ كاثولىكى أو مصلح دىنى فى زمن مبكر؟)، وثمة الزعم نفسه بوحدة الوجود عندهما، بالإضافة إلى إثارة التساؤل نفسه عن مدى وضوحهما واتساقهما الفكرى الذى يجعل منهما مفكرين (دينيفل Denifle/عفيفى)، كما أنهما تعرّضا للمقارنات نفسها بأنساق الفكر فى الشرق الأقصى (سوزوكى Suzuki، يودا Ueda/إيزوتسو Izutsu)... وإن حاول المرء البحث عن مسيحية فى العصر الوسيط تساير ابن عربي فالعلامة إيكهارت هو البديل الأقرب.

المنتحل فأراد أن يُعيد إدخال بُعد السلبية فى لغة لاهوتية تسيطر عليها أنطولوجيا معاصريه سيطرة زائدة- المترجم.

(١٤) إيرفورت: مدينة فى الجزء الجنوبى الغربى من ألمانيا- المترجم.

(١٥) أفينيون: مدينة فى الجزء الجنوبى الشرقى من فرنسا- المترجم.

وبرغم أنى قد شعرت- فى غير هذا الموضوع- بشىء من الحرج فى القول بأن إيكهارت وابن عربى ينطلقان من نقطة واحدة تقريباً، ثم يطور كل منهما معجمه بشكل مختلف فى نهاية الأمر، فإن هذه التشابهات الكبيرة بين العلامة والشيوخ تُعدُّ مؤشراً جيداً فى استكشافنا التصوف والتفكيك^(١٥). وإن كان دريدا لم يكتب كلمة عن التصوف فقد كتب قدرًا وإفراً عن العلامة إيكهارت. فى أوائل عام ١٩٦٤، وفى صفحات من كتاب *إعادة نظر فى الميتافيزيقا والأخلاق* *Revue de Métaphysique et de Morale* أظهر دريدا معرفة موحية بمواعظ العلامة إيكهارت التى قالها باللغة العامية^(١٦)، أما فى مقاله "كيفية تجنب الكلام: إنكارات" فقد استفاد دريدا فى النقاط الأولية التى كان قد عرضها عن إيكهارت منذ عشرين سنة. وبطبيعة الحال، لا يعنى ذلك أن ما كتبه دريدا عن إيكهارت يصحُّ تلقائياً على ابن عربى أيضاً، بل يعنى أن افتتان دريدا بإيكهارت يعطينا فكرة عامة عن نقاط التماثل بين ابن عربى وإيكهارت (الارتياح فى الميتافيزيقا والعقلانية، الإلحاح على الانفتاح، تصور الله بوصفه بناء يُبتنى، الألوهية الخفية فى النفس، تدفق عمليات التأويل الجذرى...); الأمر الذى يجعلهما ميالين بقدر تماثل إلى إنجاز قراءة تفكيكية. ولن أستخدم إيكهارت ليكون مرادفاً مسيحياً بسيطاً جاهزاً لابن عربى؛ غير أنه من الممكن أن يلعب دور المقياس النافع نقيس به متى يتعاطف دريدا مع تصورات أوسع فى التصوف واللاهوت السلبي ومتى يُعادىها.

(١٥) كان العلامة إيكهارت قد ألقى بعض المواعظ على العامة بلغتهم العامية متناولاً فيها موضوعات لاهوتية فلسفية. ثم بعد وفاته بعام أدانه البابا يوحنا الثانى عشر بسبب هذه المواعظ. وكانت التهمة على وجه التحديد أنه كان قد عرض أموراً دقيقة حساسة على البسطاء من عامة الناس- المترجم.

هوامش المقدمة

(¹) Orhan Pamuk, *The Black Book*, trans, Güneli Gün, London: Faber and Faber, 1990, p.73.

(²) See M. Notcutt, "Ibn 'Arabi in Print", in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, p.335.

(³) See al-Ghorab's "Muhyiddin Ibn al-'Arabi amidst Religions and Schools of Thought", in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), op. cit., p. 224.

(⁴) W. G. Chittick, *The Self-Disclosure of God: Principles of Ibn al-'Arabi's Cosmology*, Albany: SUNY Press, 1998, p. xxxii.

(⁵) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, trans. G.C. Spivak, Baltimore: John Hopkins University Press, 1976, p. 158

(⁶) وعلى نحو مماثل كتب أوليفر ليومان فى سياق الحديث عن الموازاة بين الفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى ومناقشات بعينها فى عصر التنوير الأوروبى، محذراً من "النظرة السطحية": "وعلى سبيل المثال، تدور مناقشات غرضها إيقاع التماثل بين نقد أبى حامد الغزالى لتصور السببية الأرسطى وتحليل هيوم للعلاقة السببية. كذلك يُحاججُ بأن الصراع بين الغزالى والفلاسفة بخصوص أصل العالم يشبه أشكال الصراع التى تمثلها مناقشات كانط لخصومه. انظر:

Oliver Leaman, *An Introduction to Medieval Islamic Philosophy*, London: Cambridge University Press, 1985, p. xi.

(⁷) يقدم حميد ديشى فى مقاله "عين الفضاة الهمذانى والمناخ الفكرى فى زمنه" مثلاً على أن مفكرين مسلمين فى العصر الوسيط قد "عارضوا الميتافيزيقا بكياسة" ليفككوا "ميتافيزيقا مركزية اللوغوس المستحكمة"؛ وبصفة خاصة مع صعود الفلسفة اليونانية المتناقضة مع مركزية مبدأ الإسلام. انظر:

S. H. Nasr and Oliver Leaman (eds), *Routledge History of Islamic Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1996, p. 396

(⁸) Cited in Kevin Hart, "Jacques Derrida: The God Effect"- found in P. Blond (ed.), *Post-Secular Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1998, p. 261.

(¹) وقد تغير هذا الموقف مؤخراً، على سبيل المثال إشارات دريدا المتعلقة بالجزائر في مقاله
("Taking a Stand for Algeria")، وكذلك إشاراته عن الضيافة العربية في مقاله
("A note on Hospitality")، تشهد على هذا التغير، والمقالان ضمن كتاب:

G. Anidjar (ed.), *Acts of Religion* (London: Routledge, 2002, pp. 301-308, 356-420)

وشمة إشارات عن الإسلام ترد في سياق حديث دريدا عن الدين في لقاء كبرى، وعنوان مداخلة
دريدا هو:

"Faith and Knowledge: the Two Sorces of 'Religion' at the Limits of Reason Alone" trans. S. Weber and found in Gianni Vattimo (ed.), *Religion*. London: Routledge, 2000, pp.1-77

(²) Jacques Derrida, "How to Avoid Speaking: Denials", -trans, K. Frieden. in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*. Albany, NY: SUNY Press, 1993, p. 79.

(³) Ibid., p. 77.

(⁴) Ibid., p. 122.

(⁵) Jacques Derrida, "Post-Scriptum: Aporias, Ways and Voices", trans. J. P. Leavery, Jr, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, op. cit., p. 316.

(⁶) R. Netton, *Allah Transcendent: Studies in the structure and Semiotics of Islamic Philosophy, Theology and Cosmology*, Richmond: Curzon Press, 1994, p. 293.

(⁷) See I. Almond, "Divine Needs, Divine Illusions: Preliminary Remarks Towards a Comparative Study of Meister Eckhart and Ibn al-'Arabi", in *Medieval Philosophy and Theology* 10, Fall 2001.

الفصل الأول

أغلال العقل

الاعتراض الصوفي والتفكيكي على الفكر العقلاني

مَنْ قَالَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ وَلَمْ يَجِرْ،
كَانَ بَرَهَانًا بِأَنَّ جَهْلًا (ابن عربي،
الفتوحات المكية) (١).

لو كان المرء طموحًا بما يكفي لتأريخ الاعتراضات على الفكر العقلاني الغربي - على نحو يتسع لشخصيات من أمثال الغزالي، والعلامة إيكهارت Meister Eckhart، وروسو Rousseau، وبليك Blake، ونيتشة Nietzsche، وليفيناكس Levinas - فلعله من المهم رؤية ما قد تثمر عنه مثل هذه الدراسة من قواسم مشتركة بينهم. وعلى الأرجح، تزخر كتاباتهم باستعارات النفس والتنفس والروح والحرية، كما يشيع فيها تأكيد "الانفتاح" (الفتوح/الانفتاح: وهي كلمة مهمة عند ابن عربي ودريدا على السواء)، والنفسون الشديدة من الصرامة والأنساق، والإعلاء من قيمة الشرود، والحط من قدر العقل على أساس أنه قيد وتكلف بطريقة أو بأخرى... وبكلام آخر: يشيع عندهم رفض العقل رفضًا يتم في الغالب بطريقة جمالية.

وفى هذا الفصل، أتناول- بالتحليل والمقارنة- اعتراضين على الفكر العقلاني الميتافيزيقي: نقد ابن عربي لـ **النظر** أو الفكر النظري، وما يقوم به دريدا من إعادة فحص شاملة للتراث الفلسفي اللاهوتي بأكمله في الغرب؛ أى "تسق" المفاهيم الرئيسية الذى أنتجته المغامرة اليونانية الأوروبية"، كما يقدمه دريدا^(٢).

ولعل الأمر الأول الذى يلحظه القارئ المدقق فى أعمال ابن عربي ودريدا اتصافُ موقفيهما بتقرد مطلق. فكلاهما راغب عن إلحاق كتاباته بمدرسة فكرية ما (مذهب) أو تقليد فكرى معين، حيث يسود فى أعمالهما استقلال لافت؛ إذ ينتقدان- بشكل مضمّر حيناً وصريح حيناً آخر- أىّ مفكر يواجههما، سواء كان من المعتزلة أم من علماء الظواهر، وسواء كان من الأشاعرة أم من علماء اللغة البنيويين، وسواء كان من الباطنيين أم من الوجوديين. ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك عند الشيخ الأكبر ابن عربي أنه قبيل نهاية رسالته **شجرة الكون** يتخيل الله- الموجود فى كل زمان ومكان- وهو يوحى إلى النبي محمد؛ فيسرد عليه العديد من الأغلاط التى سيقع فيها المفكرون حين يحاولون فهم الذات الإلهية:

يا محمد، إنى خلقت خلقى ودعوتهم إلىّ، فاختلفوا فيما بينهم حولى، فقوم جعلوا العزيز ابنى، وأن يدى مغلولة وهم اليهود. وقوم زعموا أن المسيح ابنى، وأن لى زوجة وولداً، وهم النصارى، وقوم جعلوا لى شركاء وهم الوثنية، وقوم جعلونى صورة وهم المجسّمة. وقوم جعلونى محدوداً وهم المشبهة، وقوم جعلونى معدوماً وهم المعطّلة، وقوم زعموا أنى لا أرى فى الآخرة وهم المعتزلة^(٣).

ولا عجب أن يوصف ابن عربي- غير مرة- بأنه "مغرور متكبر" بسبب أقوال على هذه الشاكلة؛ فالشيخ الأكبر لم يكتف بعمل مسافة تفصله عن معاصريه وحسب، بل وضع انتقاداته لهم على لسان الله. ومن الواضح أنه قد أراد تجنب خطرين يقع فيهما أىّ مفكر إسلامى: إمكان **التعطيل** أو نفى الصفات الإلهية وسلبها، وإمكان **التشبيه** أو إثبات الصفات الإلهية وإيجابها. وهذا السبيل السويعر

الذي يشقه ابن عربي بين اللاهوت السلبي النافي apophatic واللاهوت الإيجابي الإثباتي cataphatic^(٤) ينبغي علينا سلوكه بحذر، إن أردنا فهم أسباب ابتعاد الشيخ عن أية صيغة من صيغ الفكر النظري. إن اعتراضات ابن عربي على فرق العلماء المذكورة في الفقرة السابقة- المعتزلة والمجسمة والمعطلة والمشبهة، ناهيك عن ذكر المسيحيين واليهود- ليست مجرد مباحكات تحزبية. ففي حقيقة الأمر، تتربص انتقادات ابن عربي بخطأ شائع، ملحوظ إلى حد ما؛ فثمة غلطة أساسية وقع فيها المفكرون السابقون عليه جعلته يستبعد استبعاداً شاملاً- تقريباً- جهود خمسة قرون من الفكر الإسلامي.

وبطريقة مماثلة، يكرس دريدا مسافة ما بين استراتيجياته النصية والمفكرين الذين يكتب عنهم؛ حيث يمسك بلحظات من الحضور الذاتي في أعمالهم تعود بهم ثانية إلى تراث متواتر من الميتافيزيقا المتمركزة لوجوسيا. غير أن دريدا- على انقيص من ابن عربي- يتضافر في كتاباته المديح والنقد على نحو حاذق غالباً، وبصفة خاصة حين يتناول مفكرين تقترب غاياتهم من غاياته. ففي مقال منشور عام ١٩٦٤ عن ليفيناس، يصف دريدا ليفيناس بأنه "يخون مقاصده في خطابه الفيلسفي"^(٥)، وفي الوقت نفسه يُبدى نعمة احترام نحو الأفكار التي تتألف وتغتسى في كتابه العظيم الكليّة واللاتناهي *Totality and Infinity*^(٦). وفي مقال "البنية

^(٤) التعطيل أو نفي الصفات الإلّيهية وسلبيها معناه تجريد الله من الصفات تجريداً كاملاً. أما التشبيه أو إثبات الصفات الإلّيهية وإيجابها فمعناه الزيادة في تعيين الله بإثبات الصفات، ومن أبرز الأمثلة على ذلك السجل المعروف بين المعتزلة والأشاعرة. وفي مسيرة اللاهوت المسيحي الأوربي توجد مدرستان: الأولى، مدرسة اللاهوت السلبي النافي التي تجزم بأن الله لا يمكن معرفته إلا من خلال نفي الصفات عنه؛ فإله هو ليس كذا ولا كذا، أي هو ما لا يكونه. أما الثانية فهي مدرسة اللاهوت الإيجابي الإثباتي، وتجرّم بأن الله يمكن معرفته من خلال إطلاق صفات عليه مثل: الحي القادر العظيم... إلخ، فإله هو كذا وكذا. ولابد من التنويه إلى أن الموند يتحرك في فهم ابن عربي ودريدا على أساس الخلفيات اللاهوتية المسيحية الأوربية في المقام الأول، وهي تتصادى من زوايا عديدة مع لاهوت أرشيف التوحيد بأنساقه الثلاثة في العالم العربي- المترجم.

والعلامة واللعب" (٦) Structure, Sign and Play، لا يحول "افتتان" دريدا بمسعى ليفي شتروس الدؤوب دون الكشف عن مشاعر الذنب الأنثروبولوجية التي تتطوى عليها "أخلاق الحنين إلى الأصول" (٧). وقد تعامل دريدا بطريقة مماثلة مع عدد من علماء اللاهوت السلبي المسيحي (من أمثال القديس أوغسطين Augustine، وديونيسيوس الأريوباجي المنتحل Pseudo-Dionysius، والعلامة إيكهارت)، ممن كانوا في العصور الوسطى قد استبقوا التفكير ببعض أفكارهم. فمن جهة، يبدل دريدا قصارى جهده ليشير إلى إعجابه باللاهوت السلبي؛ ذلك "المتن المفتوح والمغلق في آن معاً"، المكتوب بلغة "لا تكف عن اختبار حدود اللغة" (٨). ومن جهة أخرى، يظل اللاهوت السلبي - وهو يسائل الميتافيزيقا مسائلة جذرية - "منتمياً... إلى الوعد الأنطولوجوتي الذي يبدو أنه ينتهكه" (٩). يظل اللاهوت السلبي - في نهاية المطاف - متمركزاً لوغوسياً من حيث غايته؛ ليحفظ سرَّ اسم الله ويصونه.

وبكلام آخر: فكما يؤمن ابن عربي بأنه ما من مفكر يقدر على "تعريف حق الحق" (١٠)، يؤكد دريدا أنه ما من مفكر أمكنه الإفلات من تاريخ الميتافيزيقا؛ بل وإن الثلاثي: نيتشه، فرويد Freud، هيدجر Heidegger - وهم الذين يُحسب لهم القيام بمهمة "انتقاد مفاهيم الوجود والحقيقة... ومفاهيم الحضور الذاتي...، وتدمير الميتافيزيقا"، فافتتحوا تفتيت الميتافيزيقا الغربية وتصفيتها - يظلون "أسرى نوع من الدور" (١١). ويبقى شيء ما، ضرب ما من المعرفة أو الإدراك الخاص، يميز ابن عربي ودريدا عن تراثهما الخاص بكل منهما: "شيء ما" يشعر كلاهما أنهما قد فهماه؛ موقف ما أو ضرب ما من المعرفة الصوفية gnosis، وعى بتعقيد خفي مكّنها من وضع أسلافهما ومعاصريهما في سياق جديد بهذه الطريقة الواثقة.

(٦) توجد نسخة عربية لهذا المقال من ترجمة جابر عصفور، ومن المفيد مطالعتها لأن ظلالها واضحة على الكتاب بين أيدينا، انظر: "البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية"، مجلة فصول، زمن الرواية - الجزء الأول (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، شتاء ١٩٩٣) - المترجم.

وينشغل بقية هذا الفصل بمحاولة الوقوف على هذا "الشيء" الخاص: ما الذى يدفع- على وجه التحديد- ابن عربى ودريدا إلى رفض الفكر الميتافيزيقى رفضاً شاملاً؟ وعلى سبيل الإيجاز، يمكن المرء إجمال أسباب رفضهما فى إجابتين بسيطتين: يرى ابن عربى أن الفلاسفة واللاهوتيين لم يفهموا بعدُ التزامن بين علو الله (تنزيهه) ومحايبته (تشبيهه)^(١). وأما دريدا فيرى أن الميتافيزيقا الغربية لم تضع أبداً كلمة "معنى" وضعا إشكالياً حقاً، ولا تقبلت حقيقة أن العلامات لا تؤدى إلى "معانٍ" وإنما إلى علامات أخرى بكل بساطة. ولكن هاتين الإجابتين غير كافيتين؛ نظراً لأن أسباب عدم ثقة كل من ابن عربى ودريدا فى الميتافيزيقا أشد تعقيداً من ذلك، الأمر الذى يقتضى تحليل مصطلحات من قبيل الحق *the Real* والكتابة *écriture*^(*) إن أردنا فهم اعتراضاتهما.

مشروع التحرر عند ابن عربى ودريدا: تحرير الحق والكتابة من أغلال العقل

يتحدث ابن عربى ودريدا- فى سياقيهما- عن الأصفاد والحرية. وليس من قبيل المبالغة القول بأن روحاً تحررية ما تسرى فى أساس مشروعيهما على السواء. وليس المقصود "بالتحرر" هنا أى معنى اجتماعى، بل المقصود- على الأصح- إعتاق فكرة امتناع الحق على المعرفة، وإعتاق فكرة امتناع الكتابة على التحكم أو الضبط، من أغلال الفكر العقلانى الميتافيزيقى وقبوه^(**). وفى واقع الأمر، يمكن

(*) يستخدم أوموند على طول كتابه الكلمة الإنجليزية *the Real* بالحرف الكبير بمعنى "الحق" عند ابن عربى، وأحياناً ينص على كلمة "الحق" العربية بالخط الإنجليزى، والمقصود فى الحالىين "الذات الإلهية" أو "الله". أما الكلمة الفرنسية *écriture* فيستخدمها ليشير بها إلى "الكتابة" بالمعنى التفكيكى الذى استنته لها دريدا، ويواظب أوموند، على طول كتابه تقريباً، على إيراد الكلمة الفرنسية، ويقل استخدامه لمقابلها الإنجليزى *writing* بسبب حرصه على الأصداء التفكيكية لها- المترجم.

(**) المقصود بإعتاق "امتناع الحق على المعرفة"- أو عدم قابلية الحق للمعرفة- هدمُ الاعتقاد فى القدرة على تقييد "الحق" فى صورة من الصور ونفى ما عداها. ويعنى إعتاق "امتناع الكتابة على التحكم أو الضبط"- أو عدم القدرة على التحكم فى الكتابة- التذليل التفكيكى على بطلان=

المرء قولاً إن الغرض النهائي من كتاب دريدا في علم أنساق الكتابة *Of Grammatology*^(*) تحريرُ الكتابة من "مقام الأداة المستعبدة فيه إلى أقصى حد، ومن تصور أصلية اللغة المنطوقة"^(١٢). وبطبيعة الحال، لا تتطابق أهداف دريدا وابن عربي؛ فتحليل دريدا تحليل دلالي محض، أما ابن عربي فله هدف روعي أكبر يحرص عليه. وبالرغم من ذلك، فإن إعادة إثبات الشيء الحيوي المتقلب المراوغ الذي يتأبى على كل محاولاتنا في الحديث عنه، سوف تلعب دوراً متمثلاً في معجميهما على السواء، وتتطور عندهما بمقتضى بناء متشابه. ولعل إلقاء نظرة على سياق كتابات ابن عربي ودريدا تُعيننا على فهم ذلك بشكل أفضل.

أهل النظر ووثنية العلامة

في كتاب *الفتوحات المكية*، يشير ابن عربي إلى أن كلمة عقل (= reason) تعود إلى الجذر اللغوي نفسه الذي تعود إليه كلمة عقال (= fetter)^(١٣). إذ يتتبع الشيخ الأكبر تاريخ اللفظة وأصلها تتبعاً يناسب غرضه هنا؛ فاعتراضه الرئيس على انفلاسة واللاهوتيين مؤداه أنهم يحدّون "الاتساع الإلهي" Divine Vastness ويضيّقونه بنسبة الصفة إليه، وهو بلا صفة أو حدّ. يقول ابن عربي: "وقد اعتقدت كل فرقة في الله اعتقاداً يخالف غيرها"^(١٤)، ولا يصبر الشيخ على من يغلطون

القدرة على التحكم فيما تعطيه لنا الكتابة من معان؛ فـ"الكتابة" في استراتيجية التفكيك، حالها من حال "الحق" في تصور الشيخ الأكبر، تتمتع على التجديد أو التقييد، وإنما تروغ باستمرار، مما يفتحها على عدم التناهي، كما سيأتي بيانه تفصيلاً؛ فالإعتاق أو التحرير المقصود في الحاليين إطلاق فكري "امتناع الحق على المعرفة" و"امتناع الكتابة على التحكم أو الضبط" من الأغلال الميتافيزيقية التي تضع حدوداً وأسواراً عليهما بإعطاء تحديدات وتعريفات لهما- المترجم.

^(*) توجد نسخة عربية ممتازة لهذا الكتاب من ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبية تحت عنوان: *في علم الكتابة* (القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥). وقد أوضحت في مقدمة كتاب *استراتيجيات التفكيك* (الأردن، دار أزمنة، ٢٠٠٩) الأسباب التي دفعتني إلى ترجمة عنوان كتاب دريدا على هذا النحو، بدلاً من الترجمة الشائعة "علم الكتابة"- المترجم.

باعتقاداتهم الخاصة في حق معرفة المطلق، ويقع نفاذ صبره، هنا، على مدرستي اللاهوت الإيجابي والسلبى، أى على مَنْ يؤكدون أن الله يمكن حمل صفات عليه من خلال أفعاله (الأشاعرة)، وعلى مَنْ يقولون بأنه لا يمكن حمل صفات عليه مطلقاً، فيُعرف فقط بما لا يكونه (المعتزلة). وليس معنى ذلك أن المعتزلة والأشاعرة كانا قطبين متعارضين؛ فأستاذ أبى الحسن الأشعري ومعلمه كان على رأس معتزلة البصرة (الجبائي)^(١٥). لقد تميزت حجج كلتا الفرقتين برغبة عامة في استخدام العقل وسيلةً، حتى وإن كان العقل عند الأشاعرة أداة لتسويغ الوحي، وليس العكس. وسوف تصوغ هذه المناقشات المتعلقة بعدم القدرة على معرفة الله خلفيةً عامةً من خلفيات فكر ابن عربى، وهى مناقشات أثمرت عن تكاثر المدارس والعقائد والنزاعات بينها على نحو يدفع المرء إلى التعاطف مع كلمات الشيخ: "أسمع صوت الطحن ولم أر طحيناً"^(١٦). فالمؤمن بأبدية صفات الله من أمثال الأشعري (٨٧٣-٩٣٥) يقول:

نقر بأن الله استوى على عرشه... ونقر بأن الله يدبّر دون سؤال عن الكيف... ونقر بأن الله عينين دون سؤال عن الكيف... ونقر بأن الله وجهاً... ونثبت السمع والبصر، ولا ننكرهما، كما يفعل المعتزلة والجهمية والخوارج...^(١٧).

بينما توجد فرق أخرى أُنح إلى اللاهوت السلبى، من أمثال المعتزلة، لديها قدرة على توليد عبارات تذكر القارئ الغربى بأقوال ديونيسيوس الأريوباجى^(*) :Dionysius Areopagite

إن الله بلا جسد ولا جهة ولا صوت ولا شكل... فهو بلا أجزاء ولا أقسام ولا أطراف ولا أعضاء... وبالجملة، لا يوصف بأية صفة تجوز

(*) ديونيسيوس الأريوباجى المنتحل من القرن السادس، يُعدُّ إلى جانب العلامة إيكهارت من أهم فلاسفة ومتصوفة العصر الوسيط فى أوربا المسيحية- المترجم.

على أحد من خلقه... إنه وجود، ووجوده ليس كسائر الموجودات الأخرى...^(١٨).

وبمعنى ما، أتاح هذان الموقفان المتطرفان- التشبيه (خلع الصفات البشرية على الله) والتنزيه (نفي مشابهة البشر)- المجالَ لمناظرات ومناقشات عديدة ومتوسعة. كيف يتسنى لنا معرفة الله؟ وما علاقة الأسماء الإلهية (الرحيم، الكريم، العليم،... إلخ) بالذات الإلهية: أبكل بساطة يتناظران^(١٩)؟ أم أن الأسماء الإلهية تثبت أبدية الصفات على نحو لا يقبل الجدل؟ وإلى أي مدى تكون اعتقاداتنا في الله صحيحة حقاً؟ كيف نتحقق من ذلك؟ وإن كان الله، حقاً، كما يقول القرآن، "ليس كمثل شئ" (سورة الشورى، آية ١١)، فكيف يمكننا معرفة أي شئ عن الله؟

تداول علماء الكلام هذه التساؤلات، من بين تساؤلات أخرى، على مدى قرون. وكما أوضح عبدالحليم، من الصعب تعريف مصطلح "كلام" تعريفاً منضبطاً^(١٩)؛ فمعناه الحرفي هو "الكلام" وفعل الكلام، كما أنه يعنى مناقشة القضايا الدينية المتصلة بالقرآن عموماً. ولا تتعلق القضايا المثارة بمعرفة الله فقط؛ بل تعدتها إلى مشكلة حرية الإرادة والجبر الإلهي ومنزلة القرآن وتطبيق الشريعة. غير أن "علم الكلام" لم يكتف بمناقشة الموضوعات الدينية، بل كان يُعنى أيضاً بوجود موقف معارض ومناوئ تُثار في مقابله هذه المناقشات المتنوعة. ولا يصعب علينا تفهم الأسباب التي دفعت ابن عربي إلى النأى بنفسه عن مفكرى علم الكلام، بل وكان يصف مساعيم بأنها "تطفل" (فضول) و"التباس وتضليل". ويمكن إجمال منهج ابن عربي في الإبستيمولوجيا الإلهية بعبارة موجزة ومبهمة: "هو ليس هو"؛ إذ يصر الشيخ الأكبر على أن الله محايت (مُسَبَّه) ومتعال (مُنزَه) في أن معاً. وعلى هذا النحو، كانت هذه الآراء ذات الطابع الاستقطابي تدعم ذلك النهج من التفكير الثنائي في الله، وهو النهج الذي كان يسعى ابن عربي إلى تجنبه.

(١٩) المقصود بالتناظر هنا التشابه في الوظيفة مع اختلاف في البنية والأصل، وقد اخترتها ترجمة للكلمة الإنجليزية analogy في هذا الموضع وأشباهه- المترجم.

ولعل وجهًا آخر من وجوه علم الكلام التي أثارت ازدراء ابن عربي كان ادعاء أصحاب علم الكلام معرفة الله من خلال النظر والعقل، في حين أن المعرفة بالله عند المتصوفة تُكتسب بـ"الذوق" و"الكشف". وبخصوص هذا الوجه - أي النظر والعقل - وُضعت تعريفات علم الكلام في الماضي: فالفارابي يرى أن الكلام "صناعة يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المحمودة التي صرّح بها واضع الملّة"، أما الإيجي فيذهب أبعد من ذلك، قائلاً إن علم الكلام لا ينصر بل على الأصح "يثبت العقائد الدينية بتقديم الحجج ودحض الشكوك"، ويرى ابن خلدون أن الكلام "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المنحرفين في الاعتقادات"، بينما يقدم الإمام محمد عبده - وهو مفكر حديث - تعريفاً مؤداه أن الكلام "علم يُبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يُثبت له من صفات وما يجوز أن يُوصف به"^(٢٠). وفي كل هذه التعريفات توجد فكرة رئيسة ثابتة: اكتساب معرفة بالله تبرّر الممارسات الاجتماعية والشرعية، وتيسر سبيل التأويل، وتضفي على علم اللاهوت نظاماً، وتفصل بدقة بين النهج القويم والهرطقة (الإلحاد).

سياق ابن عربي: تحديد موقع الشيخ الأكبر

إن محاولة وضع كتابات ابن عربي في سياقها اللائق ليس أمراً ميسوراً كما يبدو للوهلة الأولى. ولعل تنوع السياقات المختلفة التي من الممكن وضع ابن عربي فيها - السياق العرفاني الصوفي، سياق الأفلاطونية المُحدثة، سياق علوم الحديث النبوي، سياق الفلسفة، سياق المذهب الباطني - تعكس تنوع آراء النقاد واختلافهم حول تصنيف كتابات ابن عربي. وإن كان بوركهات Burckhardt يرى أن ابن عربي مفكر "أفلاطوني مترمّت"، فإن كتاب تراجم الشيخ الأوائل من أمثال ابن العبار (المتوفى عام ١٢٦٠) يرونه محدثاً بمعنى أنه عالم بأقوال النبي^(٢١). ويذهب باحثون آخرون من أمثال نيتون Netton وكوربان Corbin إلى وضع ابن عربي في سياق واحد مع الصوفي الفارسي السهروردي، إلى درجة أن كوربان يذهب

إلى إمكان قراءة كتاب *الفتوحات المكيّة* في سياق التراث الشيعي على نحو أفضل من قراءته في سياق التراث السنّي^(٢٢)، بينما يقرن ماجد فخري ابن عربي بالغزالي في كتابه *تاريخ الفلسفة الإسلامية*، بوصفهما نموذجين على "التركيب والتأليف المنهجي"^(٢٣)، حتى الموسوعة البريطانية التي تتطوى على تسلسل نسبي مختلف ترى أن ابن مسرّة وأمبيدوقليس Empedocles - في التحليل الأخير - أحد مصادر فكر ابن عربي الأولى.

ولد ابن عربي عام ١١٦٥م في مرسية، التي تقع في جنوب شرق أسبانيا المسلمة. وفي هذا الزمان والمكان، وجد الشيخ نفسه في مركز محوري من مراكز تاريخ الفكر الإسلامي الأساسية، حيث الفلسفة وعلم الكلام (أو اللاهوت السكولاستي^(*)) والتصوف قد تطورت كلها وغدّى بعضها بعضاً. وعليه، فقد شاعت مصطلحات وموتيفات بعينها شيوعاً واسعاً (مثل: فيض، وحدة، صفة مميزة، إدراك عقلي)، وهي مصطلحات استطاع ابن عربي أن يدمجها في نسقه الفريد، بإعطائها معاني خاصة. وقد تميز الشيخ بسعة الاطلاع، فلم يقتصر على تكرار الإشارة إلى المعتزلة والأشاعرة والخوارج بل تعداها إلى شخصيات مستقلة بنفسها من أمثال الغزالي وابن مسرّة وابن القسي، مما يؤكد أنه كان على إلمام واضح بتراث أسلافه. وقد تعرّف ابن عربي إلى عدد منهم بنفسه، فحين كان شاباً يافعاً التقى بالفيلسوف العظيم ابن رشد^(**)، ويروى أن ابن رشد أخذ العجب من هذا الشاب اليافع الذي سمع عنه الكثير ولم تنبئ له لحيته. وحين ناهز ابن عربي ستة وثلاثين عاماً غادر أسبانيا ولم يعد إليها مرة أخرى، في رحلة بمحاذاة ساحل شمال أفريقيا، ماراً بمصر والأردن ثم شمالاً حتى وسط تركيا، قبل أن يرجع إلى دمشق ويستقر فيها حتى وفاته عام ١٢٤٠م.

(*) سكولاستي: إخضاع الفلسفة للاهوت استناداً إلى منطق أرسطو ومفهومه عن ما وراء الطبيعة - المترجم.

(**) فيلسوف وطبيب عربي أندلسي. يُعدّ في رأى كثير من الباحثين من أعظم الفلاسفة العرب بلا استثناء. عُرف بشروحه لفلسفة أرسطو وحاول التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية - المترجم.

ومع أن ابن عربي قد ألف ما يقدر بثلاثمائة وخمسين عملاً، فإن كتابيه الأكثر أهمية هما *فصوص الحكم* و*الفتوحات المكية* اللذان يختلفان في الحجم اختلافاً دالاً؛ فكتابه *فصوص الحكم* يتألف من مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير، أما *الفتوحات المكية* فهو كتاب ضخم يتألف من خمسمائة وستين فصلاً مُرتبةً في مجلدات كبيرة. وبينما يُعدُّ *فصوص الحكم* مجموعة موجزة من تعليقاته الصوفية الباطنية على عدد من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن (آدم، نوح، موسى،... إلخ) فإن *الفتوحات المكية* عمل موسوعي أكبر يحلل مجالاً واسعاً من الموضوعات تحليلاً عميقاً متميزاً، من قبيل: النبوة، المقامات، الأسماء الإلهية، الممارسات الصوفية، وصف أشكال الأنطولوجيا المتنوعة، نظرات حول التفسير والإبستمولوجيا. وإن كان *فصوص الحكم* عبارة عن مجموعة من المقالات الصوفية الموجزة فـ *الفتوحات المكية* أقرب - في شكله على الأقل - إلى بحث لاهوتي شامل *Summa Theologiae*. وقد ألف ابن عربي هذين الكتابين أثناء فترة إقامته في مكة بين عامي ١٢٢٠ و ١٢٣٠.

ولعل الشيء الأساسي الذي يمكننا قوله عن سياق كتابات ابن عربي انتماؤها إلى تراث الأفلاطونية المُحدثة الإسلامية التي قد استحكمت بناؤها في هذا الوقت. وفي حالة ابن عربي على وجه التحديد، يتجلى هذا الانتماء في النسق الواسع المكتمل الذي ينطوي على كيانات ومقامات وحقائق باطنية؛ مما دفع أن ماري شميل Annemarie Schimmel إلى وصف الشيخ بأنه "عبقري في إنشاء النسق"^(٢٤). إن النظر إلى الله بوصفه مصدر كل الأشياء الوحيد الخالص الذي يفوق الوصف ولا يمكن تعيينه، بحيث تصدر الأشياء عن فيوضاته المتنوعة إلى حيز الوجود، يُعدُّ خطة معيارية متبعة في معظم الكتابات الصوفية. وفي نصوص ابن عربي توجد مستويات متنوعة من الخلق تستند إلى سلم معقد من التراتيبات والتصنيفات الأفلاطونية يُعدُّ فيها نفسُ الرحمة - أي نبض الخلق - نفحةً مستمرة، إعدامَ خَلْق

وتجديدَ خَلْقٍ في كل لحظة. ولذا، فلا عجب أن يرتبط مصطلح "وحدة الوجود" باسم ابن عربي ارتباطًا دائمًا، حتى وإن كان مريدوه وأتباعه اللاحقون عليه (داود القيصرى، والقاشانى، والقونوى) أكثر استجابة من الشيخ نفسه لتأكيد الاهتمام بالوحدة والعمل عليها بشكل نسقى. لا تعنى "وحدة الوجود" unity of Being عند ابن عربي حلول الله فى الكون Pantheism (مع أنها فى الغالب تُحدّد على هذا النحو)^(٢٥)؛ بل تعنى - على الأصح - محاولة الشيخ الأكبر إعادة نسبة أصول الأشياء جميعها وربّتها الوجودية إلى الله مع الاحتفاظ باستقلالها الوجودى فى الوقت نفسه. إن الغرض من وجود الإنسان، ضمن حدود نسق الشيخ الأكبر الفكرى، أن "تتحقق" النفس الإنسانية من أصولها الإلهية بالرجوع التدرجى الصاعد إلى الله عبر سلسلة من الدرجات والمقامات الروحية. ولذا، لا بد من الحرص الشديد عند استخدام كلمة "نسق"؛ إذ ينبغى ألا تقود المرء إلى الاعتقاد بأن ابن عربي (كما ذهب إلى ذلك حميد دبشى Hamid Dabashi) كان "سارداً عظيماً ذا نظرة كلية كبرى"^(٢٥)، يفرض نسقاً محدوداً صارماً يتمركز تمركزاً واحدياً حول الله وفيوضاته. بل على العكس، كانت الغاية الكبرى من نسق ابن عربي الوصول إلى لحظة يتحرر عندها الإنسان من النسق، فالغاية من تراتبات الأسماء والموجودات عند الشيخ إعانة الروح على الوصول إلى موضع تتلاشى عنده هذه الأسماء والموجودات. وفيما يرى ابن عربي، تعنى فكرة الرجوع إلى الله ترقى الروح عبر سلسلة معقدة من الوقفات الروحية، أو ما يسميه المقام، ترقياً يبلغ ذروته بقاء أوصاف الصفات جميعها التى كان قد عاش المؤمن خبرتها الكلية من قبل^(٢٦). وعلى هذا، لا بد من فهم النسق التراتبى الذى يشيده ابن عربي بوصفه سلماً فتجنشتينياً Wittgensteinian ladder يمكن المرء إلقاءه جانباً بعد أن يصعد عليه.

(٢٥) تعنى وحدة الوجود عند الشيخ الأكبر أن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها متكررة فى صفاتها وأسمائها، لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات، وهى قديمة أزلية لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التى تظهر فيها. وذلك غير القول بالحلول فى الكون - المترجم.

الحق الذى لا مثيل له

فى البداية، يؤكد ابن عربى- فى ردّه على الفلاسفة واللاهوتيين- أن الله لا يمكن تصوّره ولا يمكن معرفته أبداً، فلا تنطبق عليه أسماء ولا صفات، كما يؤكد أن كل أفكارنا ومفاهيمنا التى نُشيدُها قياساً على أنفسنا لا تُدانيه. ولن نعدم لهذا التأكيد سوابق عليه؛ فـ"السبب الأول" عند الفارابى- وهو ما نستدعيه فيما بعد- يوصف بأنه غير مادى، وأنه بلا شبيه أو نظير، ولا يقبل الحدّ^(٢٧). هذا الوجود غير المعروف الذى تصدر عنه كل الآثار والأفعال ولا يوصف بأنه أحدها، يسميه ابن عربى ذات الله the Divine Essence وأحياناً يسميه الحق the Real - وهى كلمة تحمل أصداءً لاكانية^(٢٨) Iacanian بالنسبة إلى القارئ الغربى^(٢٨). وفى رأينا لا جدال فى أن الذات غير معروفة^(٢٩)؛ فالذات الإلهية عند ابن عربى شبيهة- على الأصح- بعبارة "الله أبعد من الله" والواحد الأول الذى لا يوصف عند أفلوطين Plotinus^(٣٠)، وأية فرضية نقدمها عن هذا الواحد الأول لا يمكنها حدّ هذا الواحد الأول. ومن هنا، يأتى خطأ المفكرين العقلانيين الذين غلطوا فى تصوّراتهم عن الحق نفسه:

حين يفكر الإنسان بعقله فى الله، يخلق بتفكيره ما يعتقده فى نفسه.
ومن هنا يفكر فى الرب الذى خلقه بفكره^(٣٠).

ويشير ابن عربى إلى أمثال هذه التصورات قرب نهاية كتابه **فصوص الحکم**، فيرى أن ما ينشأ عنها هو "إله المعتقدات" الذى يتلوّن تبعاً لاستعداد المعتقد^(٣١).

(٢٧) الأصداء اللاكانية (نسبة إلى المحلل النفسانى الشهير جاك لا كان) التى يقصدها ألموند تتعلق بالكلمة الإنجليزية the Real التى استخدمها ألموند ترجمةً للكلمة العربية "الحق" عند ابن عربى- المترجم.

(٢٨) أفلوطين (٢٠٥- ٢٧٠م): فيلسوف رومانى مصرى النشأة، يُعدُّ أبرز ممثلى الأفلاطونية المحدثة. يرى أفلوطين أن الله مفارق على نحو مطلق، فهو الواحد الذى لا يوصف ولا يُدركُ بفهم أو تصور، وتفيض عنه الكائنات. وقد ترك مجموعة من الكتابات بلا ترتيب واضح، فأخذ تلميذه المخلص فرغوريوس على عاتقه ترتيبها وتقسيمها إلى ستة كتب، يحتوى كل كتاب منها على تسعة فصول فسميت "التساعيات"- المترجم.

وكما سوف نرى، يتعاطف ابن عربي مع هذه التصورات بوجه عام، ما دام المعتقدُ واعياً بـ"الموقف الحقيقي"؛ أى واعياً بأنه يصنع إلهه. أما مشكلة مفكرين من أمثال الأشاعرة فتنشأ عن أنهم يُشيدون علومهم اللاهوتية بأكملها ويسهبون فى الشرح استناداً إلى بناء فارغ: بناء يتيقنون من أنه هو "الله". وتلك نقطة من الأهمية بمكان يلتقى عندها التصوف مع التفكيك؛ فكما يرى دريدا أن مفكرى الميتافيزيقا جميعهم يؤسسون أنساقهم الفكرية على لحظات زائفة من "الحضور الذاتى" - أى على "مركز" يظهر دائماً أنه ليس المركز الحقيقى^(٣٢)، فالدال لا يفضى سوى إلى دوال أخرى - يرى ابن عربي أن أهل النظر جميعهم يشيدون أفكارهم عن الله على شىء ليس هو الله على الحقيقة. وفى الحالين، يقع الفيلسوف ضحية وهم أو خداع ما؛ يقع ضحية يقين راسخ بأن الأساس الدلالى الذى يقوم عليه نسقه الفكرى ("الله"، "التجربة"، "الواقع"، "البراءة") كافٍ بحد ذاته، ولا يحتاج إلى أى تبرير.

الحق الذى لا يتناهى

فضلاً عن أن الحق الذى لا مثيل له يجعل كل فرض تصورى عن الحق فرضاً وثيقاً على نحو ضمنى، توجد ثلاثة أسباب أخرى تجعل ابن عربي يرى أن ملكاتنا العقلية لا تقدر على قول شىء عن الحق، ولا بد أن هذه الأسباب على علاقة بفكرة امتناع الحق على التصور أو التحكم. ولعل أولها - وأهمها فيما يتعلق بأن الفكر النظرى غير ملائم لإعطائنا أية معرفة عن الله - هو ببساطة تامة تنهى هذا الفكر النظرى:

فمن قيده أنكره فى غير ما قيده به، وأقرَّ به فيما قيده به إذا تجلى.
ومن أطلقه عن التقييد لم ينكره وأقرَّ به فى كل صورة يتحول فيها
ويعطيه من نفسه قدر صورة ما تجلى له إلى ما لا يتناهى، فإن صور
التجلى ما لها نهاية تقف عندها^(٣٣).

... فإن العقل قيد فيحصر الأمر في نعت واحد والحقيقة تأبى الحصر في نفس الأمر. فما هو ذكرى لمن كان له عقل وهم أصحاب الاعتقادات الذين يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً... وما لهم من ناصرين (سورة آل عمران، آية ٩١) (٣٤).

ومع أن تجليات الحق هي التي توصف بعدم التناهي في هذه الفقرة، وليس الحق الذي لا سبيل إلى معرفته، تظل مشكلة عدم التناهي التي تفرض نفسها على معايير العقل الضيقة قائمة كما هي. إن الله بحر من الصور لا يتناهي، فهو "يحوى علاقات ووجودها وحقائق لا حد لها" (٣٥). ومن بين هذه الصور والأشكال المتكررة، التي تتحول دوماً وأبداً ولا تنتهي، يحدد الفلاسفة والمفكرون صورة أو صورتين، ويحاولون تأسيس أنساقهم المعرفية عليها فيضلون عن الحق نفسه. وعلى هذا، يرى ابن عربي أن العلوم اللاهوتية جميعها علوم وثنية (شرك)، ما دامت لا تضع في حسابها عدم تناهي الإمكانات الإلهية. ومع أن ابن عربي يثبت كثيراً من مزايا العقل، فإن إلحاحه على جهل علماء اللاهوت ببراء الله الدلالي اللامتناهي ينخلل كتابيه فصوص الحكم والفتوحات المكية.

وإذا كان ابن عربي قد نفذ صبره ممن يقيدون الحق بمعانيهم الخاصة فيرون تجليات الحق الأخرى هرطقة، فإن دريدا يبذل جهداً مماثلاً في استكشاف عدم تناهي إمكانات النص الدلالية وإيضاح الكيفية التي سعى من خلالها المفكرون على اختلافهم إلى تقييد هذه الإمكانات بتفسيراتهم الخاصة. وفيما يرى دريدا، تتجسد في "المقدمة" preface رغبتنا في تقييد النص وجعله يقول ما نريده منه؛ فالمقدمة هي النص القصير الذي يقدم به المؤلف عمله والذي يقصد به "إجمال" الغرض العام والمقاصد التي ينطوى عليها متن العمل اللاحق لها، حتى يتجنب إساءات الفهم المحتملة. ويهتم دريدا في كتابه *التشبيث Dissemination* بالمقدمة الهيجلية على الأخص: كيف يرى هيجل المقدمة ويتشكك في جدواها بوصفها

سبيلاً إلى ضمان عدم تعرض عمله لتفسيرات غير مقبولة. وعلى طريقة ابن عربي، يمكن القول إن المقدمة تمثل محاولة تحديد إمكانات النص اللامتناهية (الباطن) بتفسير واحد فقط (الظاهر)، بينما تُعدُّ التفسيرات الأخرى هرطقة؛ مما يقيد اللاتناهي الدلالي في النص بتجلٍ واحد- ووحيد- يرغب فيه المؤلف. وعلى هذا، تُعدُّ المقدمة محاولة قول ما هو كائن وما قد كان وما يمكن أن يكون:

تعلن المقدمة preface بصيغة مستقبلية ("هذا هو ما سوف تقرأونه") عن محتوى أو مغزى تصوري... ينطوي عليه ما كان قد كتب... ومن وجهة نظر التقديم، الذي يحدد القصد من القول بعد وقوعه، يُوجَدُ النصُّ مكتوباً... فالمقدمة يُحْيِيهَا المؤلف القادر على كل شيء (بسيادته الكاملة على منتجه) أمام القارئ بوصفها مستقبلياً... فالمقطع Pre من كلمة Preface (= مقدمة) يختزل المستقبل [إمكانات النص] إلى صيغة من الحضور الجلي^(٣٦).

ذلكم هو "الاختزال" الذي يرفضه ابن عربي ودريدا، كلٌّ في سياقه، وإن اختلفت أسبابهما. فإذا كان دريدا يدرك أن الغاية الأصلية والاختزالية من المقدمة "عملية أساسية تدعو إلى الضحك لغرابتها" (المرجع السابق)، فليس لأن النص (كما هو حال الله عند ابن عربي) ينطوي بداخله على معانٍ لا نهائية قد لا يُنْتَبَه إليها، بل على الأصح بسبب اللعبة الدلالية التي لا يمكن التحكم فيها داخل نص يفتح، بالضرورة، على قراءات غير متوقعة؛ قراءات جديدة لم تتوقعها المقدمة برغم حرصها وشمولها. وهنا، يبدو الاختلاف بين ابن عربي ودريدا واضحاً: يعارض ابن عربي أنماط اختزال الحق المتمركزة لوغوسياً بحجة أن ألوهية الله لا تتضب، أما اعتراضات دريدا على إضفاء صفة الكلية على تفسير ما totalizing exegesis فترجع - بدرجة أكبر - إلى إيمانه بأن لعبة القوى في النص لا يمكن إيقافها، ولا ترجع إلى تبنيه مفهوماً لاهوتياً عن عدم تناهي أغوار النص التي لا يمكن سبرها.

الحق الذى لا يقبل التكرار

يتأبى الحق على أية عملية من عمليات المواءمة التى تجعله محدودًا. ولعل السبب الثانى فى ذلك، عند ابن عربى، أقرب نوعًا ما إلى طريقة المعالجة التى يتبناها دريدا، ومؤداه أن الحق فى كل تجلياته لا يكرر نفسه. ويستند ابن عربى فى ذلك إلى الآية القرآنية "كل يوم هو فى شأن" (سورة الرحمن، الآية ٢٩)، وهى ميزة الحق المخصوصة التى يشير إليها الشيخ الأكبر بإيجاز فى *فصوص الحكم* (٣٧)، ويتوسع فيها كثيرًا فى *الفتوحات المكية* :

- التجلى الذى يمضى لا يعود إذ لو عاد لتكرر فى الوجود، ولا تكرر للاتساع الإلهى.

- كشف الذات متغيرة متنوعة، ومحل تجليها كثير بلا تكرار.

- أما العارفون... فيعرفون أن "الله لا يتجلى فى صورة واحدة مرتين أو لشخصين" (٣٨).

فإنه- بالمعنى الأول على الأقل- مستودع صور لا تنتهى، ويتعلق الحق الذى لا يتكرر تعلقًا مباشرًا بعدم تنهاى الاتساع الإلهى. وبالمعنى الأول وحده، معنى الحد اللاهوتى، يُدَوِّن ابن عربى- من جديد- أفعال الدلالة جميعها بوصفها لمحّة خاطفة من لمحّات القدرة الإلهية غير المحدودة. ويكاد الشيخ الأكبر يكون أول من جزم بعدم تنهاى الله على هذا النحو، وتكمن أصالته- كما سوف نرى- فى الكيفية التى يُثرى بها كل النتائج الإبيستيمولوجية والتأويلية المترتبة على عدم التنهاى هذا. وإن كانت الصور كلها، الوثنية والمقدسة، تتولد عن الله، فستغدو الوثنية أمرًا مستحيلًا، وبخاصة حين يعى المرء "حقيقة الموقف"؛ ألا وهو أن الصور كلها تدل على الله. كما أن الله الذى لا يتناهى، ويحيط بكل الصور، يحيط أيضًا بالتفسيرات جميعها. وعليه، فما من تفسير للقرآن لم يكن قد علمه الله من قبل.

المُشَاهَدُ من جهة الحق أن تجلياته المتباينة التي تتدفق بلا نهاية أثرُ الحق نفسه، فهو يدمغ صورته على جسد العالم بدمغة مختلفة كل مرة، على نحو لا يتناهى، فى كل مكان وفى كل زمان. ومن جهة المؤمن، فـ الحق سريع التلون فى حركاته، يتبدل باستمرار من صورة إلى صورة، وتتجلى ذاته بكيفيات مختلفة عند فِرَقٍ مختلفة فلا تقدر إحداها على الإمساك بكنه ذاته. وإذا وضعنا فى حسابنا أن الحق منبع التجليات المتحولة باستمرار، لاتضح لنا وضوحاً أكبر سبب رفض ابن عربى العقل والفكر العقلانى من حيث هما "قيد"؛ فشان المقدمة عند دريدا، يقيد العقل تغير الحق الدائم، وبمنعه من أن يكرر نفسه بطرق مختلفة:

فإن الحق يتعالى عند المحققين أن يتجلى فى صورة واحدة مرتين أو لشخصين، فلا تكرر فى أمر عند الحق للإطلاق الذى هو عليه والاتساع الإلهى، والتكرار مؤد إلى الضيق والتقييد⁽³⁹⁾.

إن وصف الحق معناه تقييد له، وحمل صفة على ذاته معناه تضيق عليها. وفى واقع الحال، ما من أحد يشغل بعلم اللاهوت إلا ويلزم الحق بتكرار نفسه، مرة بعد مرة، فيصفه بأوصاف عقيمة رتيبة يرى ابن عربى أنها تضع الحق فى غير موضعه. والفكر العقلانى (العقل)، وهو الأداة العزيزة على قلب فلاسفة الكلام (المتكلمين)، والذى هو سبيل إلى المعرفة الإلهية، يُجمد حركة الله الدائبة ويُحجّرُها. فالحق، الذى لا دال يدل عليه مباشرة ولا علامة تحصره، يتمنع على أى اسم أو وصف يخلعه عليه الفلاسفة تمنعاً جوهرياً. ولا يعارض الشيخ من يريد وصف الله بصفة من الصفات، وإنما يدعوننا إلى أن نتذكر باستمرار أن الحق لا يمكن تصويره مطلقاً، فلا يُدرك بوصف أو فهم. ووفقاً لابن عربى، لا يتمكن المرء من التمييز بين نماذج "أصيلة" و"غير أصيلة" فى الحديث عن الله. فالمفكرون الأصلاء هم المحققون الذين يخلعون أسماء وصفات على الله مع تيقنهم، فى الوقت نفسه، من أن الله يتحمل ما لا نهاية له من الأسماء والصفات الأخرى. أما الفكر "غير الأصيل" فهو فكر من يُنبئون تصوراتهم العقلية اللاهوتية على الله، من أمثال الأشاعرة والمعتزلة، فيستبعدون بتنبئاتهم المنظورات الأخرى كلها.

وعلى هذا، يتهم ابن عربي المفكرين العقلانيين بتهمة الوثنية (الشرك) لغلطهم في نسبة تصوراتهم إلى الحق. فعلماء الكلام بأجمعهم يُبَيِّنون علامةً على الحق، فيقيدونه بمنظورهم المحدود بطريقة أو بأخرى، ولا يخطر لهم على بال إمكان أن الحق بلا علامة، وأن العلامة لا تتحرك إلا "من حجاب إلى حجاب"^(٤٠). أمثال هؤلاء لا يُحَيِّرهم عدم تنامي الله المدوِّخ ومخزون صورته ووجوهه التي لا يسبر غورها، والتي إنْ حققوه عليها تحولت معتقداتهم الجامدة من كونها حقائق أصلية، مسلَّم بها، إلى كونها ومضة خاطفة من ومضات الألوهية التي تتجلى إلى ما لا نهاية. وحين يصف ابن عربي علم الكلام بأنه "تقييد" اختلاف الله اللامتناهي، يبدو محتفياً بنوع من التخوف الذي نبّه إليه كل من موسى بن ميمون^(٤١) والعلامة إيكهارت: التخوف من أن الناس يرغبون في معرفة الله لأغراضهم الدنيوية الشخصية في النهاية. وهي نيمة مألوفة في كتاب *دلالة الحائرين*، حيث يحمل ابن ميمون على المتصوفة الذين "يأخذون [من الكتب المقدسة] استدلالات ونتائج فرعية، كي يستغلوا عوام الناس ممن يستمعون إلى أقوالهم"^(٤٢). ويتحدث إيكهارت، أيضاً، عن مَنْ "ينظرون إلى الله بالعين نفسها التي ينظرون بها إلى بقرة... [فهم] يحبونها للبهنا وجبنها ولمنفعتهم الشخصية"^(٤٣). وإنه لتفكير نظري مغبون تأسست بمقتضاه علومنا اللاهوتية جميعها على رغبة وضيعة في تحقيق فهم أفضل لإرادة الله وحدود معرفتنا بها، بل وعلى إرادة القوة، بما هي رغبة لائقة في إضفاء شيء

(٤٠) موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤): فيلسوف وطبيب يهودي، أندلسي المولد، يُعدُّ أكبر مفكر يهودي في القرون الوسطى، كتب مؤلفاته بالعربية والعبرية، وهو يُعرف في العالم اللاتيني باسم الحبر موسى أو موسى المصري. وُلِدَ في قرطبة ورحل مع عائلته فراراً من غزو الموحديين إلى غرناطة، وما لبث أن تعرضت العائلة للاضطهاد فرحلت إلى الأراضي المقدسة، ولم يطب لها المقام فيها، فسلكت الطريق إلى القاهرة حيث عمل موسى طبيباً في بلاط صلاح الدين. وفي القاهرة أتم تأليف كتابه "تثنية التوراة"، ثم كتب "هداية الحائرين" الذي يُعدُّ قمة من قمم التراث الفلسفي في العصر الوسيط، إذ تشبع فيه بالثقافة الفلسفية العربية الإسلامية وبتراث اليهودية الدينية والفكري، فقدَّم الكتاب توليفة لاهوتية تجاوزت الفلسفة وعلم الكلام اليهودي والإسلامي - المترجم.

من الألفة والتحكم من أجل تعظيم أنفسنا... كل هذه المخاوف دفعت ابن عربي إلى الجزم بأن ذات الله لا يمكن تصورها:

إن كان للذات محل يظهر منه التجلي (مظهر) عُرفَتْ. وإن عُرفت
أحيطَ بها (إحاطة)، وإن أحيطَ بها حُدَّتْ (حد). وإن حُدَّتْ انحصرت
(حصر)، وإن انحصرت امتلكتْ (ملك)^(٤٣).

التجلى - عُرفَتْ - أحيطَ بها - حُدَّتْ - انحصرت - امتلكتْ. يرى ابن عربي
خطراً واضحاً في الاندفاع إلى تشييد أنساق علامة على الحق، من قبيل أنساق
العلامة التي شيدها الأشاعرة والتي لا تكفى برصد عدد من تجليات الحق
المعروفة (الله، الرب، الواحد، إلخ)، بل تتجاوز هذه التجليات؛ فتقدم مزاعم عن
الحق نفسه^(٤٤). وبهذا المعنى، تصبح تورية العقل (reason) — العقل
(chains)^(*) تورية مناسبة تماماً؛ إذ حين نحاول عقلنة الله والتفكير فيه، نعامله
بالطريقة نفسها التي نعامل بها حيواناً نريد تقييده واستئناسه لمنفعتنا الشخصية.
وهي تورية تذكرنا بتشبيهات الكتابة وعلم الحيوان التي يلعب عليها دريدا قرب
نهاية كتابه *في علم أنساق الكتابة*: "حال الكتابة من حال رسوم الحيوان، حالها من
حال رسم الأحياء تُقرأ الحيوانية"^(٤٥). وما يرغب فيه فلاسفة الكلام، على وجه
الضبط، هو الآتي: "الحدُّ" من سرعة تقلب الحق الذي لا يتكرر، ومُعَايَرة تجلياته
المتنوعة، وتنميط تجليات الذات الإلهية غير المتوقعة والتحكم فيها.

إن الحدود التي يمكن دفع المقارنات إليها بين دريدا وابن عربي من حيث
عدم قابلية العلامة/الحق للتكرار تظل قضية صعبة. وقد رأينا أن الحق لا يكرر
علامة عليه؛ بسبب مخزون صورهِ اللامتناهي. أما بالنسبة إلى دريدا فعدم قابلية
التكرار لها سببان دنويان؛ يرجع أولهما إلى لعبة الحضور والغياب داخل النص،

(*) جاء ألموند بالكلمتين العربيتين "عقل" و"عقال" بالخط الإنجليزي وأثبت بين القوسين المقابلين
الإنجليزيين فأثبتتهما في الترجمة العربية، وأحياناً يرادف بين chains و fetters بوصفهما
مقابلين إنجليزيين للكلمة العربية "عقال"، ويثبتهما في متنه بصيغة الجمع - المترجم.

وهى اللعبة التى نجعله غير مستقر دلاليًا، ويرجع ثانيهما إلى السياقات التى لا يتناهى اختلافها خارج النص والتى تغيّر دومًا من كيفية قراءته. ويؤكد دريدا- فى مواضع مختلفة من أعماله- عاملًا منهما، أو الآخر، بوصفه علة عدم قابلية العلامة/النص للتكرار. وأحيانًا، يؤكد دريدا لعبة التعارضات غير المحسومة فى النص؛ فيؤكد ما يسميه "التذبذب الراسخ بين الإمكانيات"، هذا التذبذب oscillation خاصية يحرص دريدا على تمييزها عن "تعدد المعانى" polysemeia: "إن كان تعدد المعانى لا يتناهى، وإن كان لا يمكن السيطرة عليه بحد ذاته، فليس لأن قراءة محدودة أو كتابة محدودة لا يمكنها استفاد فيض المعنى"^(٤٦). وبكلمات أخرى: إذا كان النص عند دريدا، شأن الحق عند ابن عربى، "لا يتناهى"، فالسبب فى عدم السيطرة هذا، لا يرجع إلى الثراء الخيالى اللامتناهى الذى تتطوى عليه "معانيه الأعمق"؛ بل يرجع على الأصح إلى "طية ما"^(٤٧) داخل النص تعمل على تشقيق النص ومضاعفته دون تكراره. وفى ذلك يدين دريدا لـ "اكتشاف" سوسير كنة اللغة الاختلافى الراسخ فيها، ومؤداه أن أنساق العلامة "تعمل" عبر الاختلافات وحدها، وليس عبر أية عناصر إيجابية. وعلى هذا، نعرف ما يكونه الشيء من خلال ما لا يكونه. وقد مكّن هذا الاكتشاف دريدا من النظر إلى النصوص بوصفها مجموعة من القوى المتصارعة تتذبذب دومًا- دون تحديد- بين مؤشرات معنى متنوعة.

غير أن دريدا- فى مواضع أخرى من أعماله- يربط النص الذى لا يتكرر تأويليًا بمستقبل مسيرته المبهمة؛ فلا أحد يمكنه التنبؤ بمن سيملك النص أو ما الاستخدام الذى يمكن أن يندرج فيه. ولذا، "لا توجد سوى سياقات بلا مركز رؤسٍ مطلق"^(٤٨)؛ مما يفسر العدد الضخم من العناصر الحائمة أو الجوّالة^(*) فى أعمال

(*) wandering motifs: الترجمة الحرفية الدقيقة هى "العناصر التائهة"، ويتصادى التعبير مع أسطورة "اليهودى التائه" wandering jew الذى تقول عنه أساطير القرون الوسطى إن يسوع دعا عليه بالبقاء على قيد الحياة والطواف حول الأرض، تائهاً شريذاً، حتى مجيء المسيح ثانيةً إلى هذا العالم، جزاءً له على تقريعه إياه وحثه له على الإسراع فى السير وهو فى طريقه إلى الموت مصلوبًا. وقد كانت هذه الأسطورة موضوع مسرحيات وروايات وقصائد=

دريدا. النص يتجول، أو يهيم على غير هدى، منتقلاً من قارئ إلى قارئ، وتكرر علاماته نفسها دوماً لجمهور القراء بنتائج مختلفة، فنكتسب علاماته معنى مختلفاً في كل مرة يتغير فيها السياق. ولذا، تنشأ استحالة التكرار عند دريدا نشوءً مباشراً عن سياقات لا يتناهى اختلافها، من المحتمل أن يُقرأ النص من خلالها، وتتعد قراءته.

ويبدو أن بونا شاسعاً يفصل كل ذلك عن الظاهر الذي لا يتناهى اختلافه عند ابن عربي. فإن كان النص عند دريدا- لو استخدمنا كلمات أبي طالب المكي- "لا يكشف عن نفسه بصورة واحدة لشخصين ولا بصورة واحدة مرتين"، فلا ريب أن هذه المرونة التأويلية ليست ثمرة اتساع ما، أي ليست ثمرة بحر من الصور الأفلاطونية المُحدثة. إن دريدا يتعامل بحذر مع الصفة "لا متناه" infinite، ربما لما تنطوى عليه من أصداء دينية، ويفضل في الغالب استخدام مرادفها: "غير متناه" nonfinite. وفي كتابه *في علم أنساق الكتابة*، ينبهنا إلى "وحدة عميقة بين علم اللاهوت اللامتناهى ومركزية اللوغوس ونزعة تقنية بعينها"^(٤٩)، تجعل من عدم تناهي الله إيماءً ميتافيزيقية لا تضع فكرة الحضور أو المعنى موضع السؤال. غير أن تصور "اللاتناهي الإيجابي"- وهي عبارة دريدا التي يستخدمها في مقاله عن ليفيناس بوصفها مرادف الله^(٥٠)- لا يقرُّ بحقيقة أن الله يمتنع على التصور امتناعاً أصيلاً، بل يؤجلها فحسب تأجيلاً لا يتناهى؛ مما يعنى عدم القيام بنقد الحضور نقداً حقيقياً، وإنما الحاصل تأجيل المعنى إلى ما لا نهاية فحسب. وعلى هذا، يرفض دريدا الربط بين عدم القدرة المطلقة على توقع ما ينطوى عليه نصه وبين "فيض المعنى"؛ فبدلاً من فكرة الوفرة هذه، توجد شاغرية أو خواء ما يقوم عليه النصُّ يسمح له بأن يتضاعف ويختلف عن نفسه دون أن يكرر نفسه.

=كثيرة لعل من أشهرها الرواية التي كتبها الروائي الفرنسي أوجين سُو Sue تحت اسم "اليهودى التائه". وقد أثرت إيراد تعبير جابر عصفور في متن ترجمتي- "العنصر الحائم أو الجوال"، وقد ورد في أحد كتبه عن النظرية المعاصرة- بغرض تحييد الأصداء اليهودية. وأنا أذكرها هنا في الهامش حتى تكون هذه الأصداء في خلفية القارئ لأنها نافعة في فهم بعض الاقتباسات التي يأخذها الموند عن دريدا مباشرة، كما سيأتى- المترجم.

ومع ذلك، يصعب القول - على سبيل اليقين - إن كان الله عند ابن عربي - أى تصويره عن الحق أو الذات الإلهية - يمكن طرحه جانباً بالسهولة نفسها التى يُطرح بها تصور "علوم اللاهوت اللامتناهية" التى يرى دريدا أنها صلب نزعة مركزية اللوغوس. ولا ريب أنه توجد لحظات فى *فصوص الحكمة* يتشابه فيها وصف ابن عربي الله مع وصف دريدا النص من حيث هو لعبة قوى مستمرة، تُنتج قوة إزاحة تنشر نفسها... فتُشقق [النص] فى كل اتجاه، وتعين حدوده بدقة^(٥١). وعلى سبيل المثال، فى الفصل الموسوم بـ "أبن عربي وصفًا مشابهًا لله الذى يضى حياة على القوضى:

فالهدى هو أن يهتدى الإنسان إلى الحيرة، فيعلم أن الأمر حيرة والحيرة قلق وحركة، والحركة حياة. فلا سكون، فلا موت؛ ووجود، فلا عدم^(٥٢).

تختلف صورة الله، هنا، اختلافًا تامًا عن اللاتناهي المتعالى، الساكن فلا يتغير، الذى يُصوّرُ به الله اللاهوت التقليدي. وما دام الله منبع الأقطاب جميعها - الخير والشر، الحلول والعلو، الرحمة والغضب - فإن الوصول إليه يفضى إلى حال من الحيرة perplexity عند المؤمن. غير أنها حيرة مثمرة، وبلبله confusion دائمة تسمح للنظام بالظهور إلى حيز الوجود. ولتأكيد ذلك، يُشَبَّه الله بالماء الذى لا يتوقف جريانه، فيهب بتدفقه الدائم وفيضانه كل شىء حياةً وازدهارًا:

وكذلك فى الماء الذى به حياة الأرض وحركتها قوله تعالى "فاهتزت"، وحمَلُها قوله "وربت"، وولادتها قوله "وأنبئت من كل زوج بهيج"^(٥٣).

إن تصور الخلق بما هو نتاج الفيض تصور نمطى فى الأفلاطونية المحدثة، نراه عند مؤلفين مختلفين اختلاف أفلوطين ("الواحد تام، وباستعارتنا قد فاض، وفيضه الحيوى يثمر الجديد...")^(٥٤)، وإيكهارت ("يفيض عن الله الخلق بأجمعه، ولا يدانيه أحد من خلقه")^(٥٥)، ناهيك عن حكماء المسلمين من أمثال إخوان الصفا

("النفس الكلية فاضت عن العقل الكلى...")^(٥٦)، وأفضل الدين قاشانى ("... العالم العقلى... وخيره الذى يفيض ويزيد")^(٥٧). وفيما بعد، سوف يُمنهج أتباع ابن عربى (وبخاصة القونوى والفرغنى) فعلَ الخلق الناتج عن الفيض فيتخذ ثلاث مراحل ثم خمساً وأخيراً ستاً^(٥٨). وشأن القاشانى وإخوان الصفا، فالكلمة التى يستخدمها ابن عربى هى فيض، ويقابلها فى الإنجليزية effusion أو radiation. وتتطوى هذه الكلمة على تصور يهمنى هنا؛ لأن دريدا، أيضاً، يستخدم الاستعارة نفسها (déborder = يفيض)؛ ليصف الكيفية التى "تفيض" بها المعانى المتذبذبة والمتبدلة فى النص عن حدوده، مما يهب النصَّ حياةً: "حين تفيض نعبة المعنى بالدلالة... فذلك الفيض هو لحظة محاولة الكتابة"^(٥٩). وباستخدام الفعل يفيض déborder الذى يشير فى معناه الحرفى إلى تجاوز مستوى أو حدٍّ ما، يحاول دريدا تحليل اللحظة المراوغة فى فعل الكتابة، تلك اللحظة التى يفيض عندها- بمجرد أن تظهر علامة على الصفحة- تعدد المعانى على النص فيحوّله؛ مما يمنح تفسيراته الجديدة المتنوعة حياةً. وإن جاز القول، تبعث الفوضى وعدم التحديد على أنواع مختلفة من النظام، وسوف أتناول بمزيد من الدرس المدى الذى تتجاوب عنده هذه الفكرة مع تصور الله وحركة وهب الحياة والفيض عند ابن عربى.

استحالة الحق: تزامن الحلول والعلو

وتفضى بنا قضية الحيرة إلى السبب الثالث الذى جعل الفلاسفة وعلماء اللاهوت- فيما يرى ابن عربى- لا يقدرّون على الإخبار عن الحق. حتى الآن، يتحرك ابن عربى بأسلوب عالم لاهوت سلبى؛ فالأسباب الثلاثة التى تفسر عدم ملاءمة "الفكر النظرى" مطلقاً لتمثيل الحق تقتضى كلها فهم الله فهماً سلبياً نافيّاً apophatic بشكل جذرى: الله الذى لا مثيل له ولا يتساهى ولا يتكرر. وإن سلّمنا باهتمام دريدا باللاهوت السلبى، فذلك مظهر الكتابة عند ابن عربى الذى تزداد أهميته كلما تقدّمنا.

إن قراءة ابن عربي بوصفه عالم لاهوت سلبى، على شاكلة إكهارت وديونيسيوس المنتحل، ممن يجزمون على الدوام بعلو الله المطلق وعدم القدرة على الحديث عنه، تعنينا بطريقة ما؛ فهي تمكننا من فهم أسباب انتقاد الشيخ الأكبر المواقف الإيجابية من قبيل مواقف الأشاعرة أو المجسمة أو المشبهة. غير أن الجزم بعدم القدرة على معرفة الله لا يفسر اعتراض ابن عربي على فرق من أمثال المعتزلة والمعتلة ممن يحرصون على الجزم بأن الله لا يوصف مطلقاً. وبمنأى عن إبداء أى تعاطف تجاه هذه المواقف، يبدو أن ابن عربي يجمع فى استبعاده أهل النظر بين اللاهوت الإيجابى والسلبى (الأشاعرة والمعتزلة معاً):

فأغلط أهل النظر فى الإلهيات أكثر من أن توافقها إشارة، سواء كانوا فلاسفة أو معتزلة أو أشاعرة أو أية فرقة أخرى من فرق أهل النظر... [الفلاسفة] ملومون لأنهم أخطأوا فى معرفة الله بمخالفتهم ما جاءت به الرسل^(٦٠).

وبكلمات أخرى، فاعتراض ابن عربي على أهل النظر ليس اعتراضاً لاهوتياً بالضرورة، أى لا يعنى عدم اتفاقه مع مدرسة فكرية ما بخصوص مسألة ما، أو تفسير آية ما؛ الأمر الذى يقتضى اتخاذ موقف أو التوسع فى شرح مذهب. وعنى سبيل المثال، يتهم ابن عربي فلاسفة الكلام- بصرف النظر عن أى من مواقفهم بخصوص سرمدية القرآن أو صفات الله أو عدمها- بأنهم يقعون فى خطأ أساسى لا مزيد عليه؛ ألا وهو حدُّ الله بجانب واحد من جانبى الثنائية. وحين ينتقد ابن عربي المعتزلة والأشاعرة معاً، ينتقد قطبين متعارضين من أقطاب سجال معروف: السجال حول إمكان معرفة الله. فأول القطبين يؤكد علو الله المطلق (التنزيه)، ويؤكد ثانيهما حلوله، فلم يفهم أى منهما حقيقة الموقف؛ ألا وهو أن الحق يتصف بالعلو والحلول فى آن معاً:

فإن قلت بالتنزيه كنت مقيداً وإن قلت بالتشبيه كنت محسباً
وإن قلت بالأمرين كنت مسدداً وكنت إماماً في المعارف سيّداً
فمن قال بالشفع كان مشركاً ومن قال بالإفراد كان موحداً
فإياك والتشبيه إن كنت ثانياً وإياك والتنزيه إن كنت مفرداً
فما أنت هو بل أنت هو وتراه في عين الأمور مسرحاً ومقيداً^(٦١).

إن القول بأن الله يتّصف بوصفين مختلفين في وقت واحد مستحيل، وذلكم هو- على وجه التحديد- إمكان المستحيل، أي تصور الله بوصفه تجربة مع المستحيل، وهي التجربة التي لم يضعها علماء الكلام في حساباتهم. ويقتبس الغزالي في كتابه *تهافت الفلاسفة* هذا التصور عينه الذي مفاده تزامن الإثبات والنفي ("أ هي أسود وأبيض معاً") بوصفه الاستحالة التي تقع داخل *قانون التناقض*^(٦٢). ومن زاوية تفكيكية، يُعدُّ إلحاح ابن عربي على تزامنية وجود كل شيء- هو/ليس هو- خطوة مهمة؛ خطوة تعرف ما تنطوي عليه الثنائية من وهم: غلط أساس في الاعتقاد بأن الله إما "هذا" أو "ذاك"، إما أنه منزّه أو مشبّه، "خارج هناك" أو "داخل هنا". وما دام الفكر العقلي يدرك الله بلغة التعارضات الثنائية، "مخالفاً ما جاءت به الرسل"، كي يؤسس معرفة "حقيقية" بالله، فعندئذٍ "يهيم النظر في ميدانه المحدد فقط الذي هو ميدان من ميادين عديدة"^(٦٣). وبسبب التزام الفكر النظري بقانون الهوية في صيغته البسيطة المتمركزة لوغوسياً ("هل الله هو كذا أم كذا؟")، يجد نفسه غير قادر مسبقاً على استيعاب ما ينطوي عليه الله من تعقد حقيقي. وعلاوة على ذلك، حين يلحظ ابن عربي أن "مَنْ يُفردّه يحاول التحكم فيه" فإنه يستيق حجج دريدا في اعتراضاته على التفكير بمنطق الثنائية. أعنى على وجه التحديد أنه في كل مرة يتعارض فيها مصطلحان أحدهما مع الآخر (الروح/الجسد، الطبيعة/الثقافة، الكلام/

الكتابة) ينشأ على الدوام نوع من التراتب، يتمتع بمقتضاه الطرف الأول منهما بامتياز اصطناعي على حساب الطرف الثاني، لأغراض إيديولوجية فى نهاية الأمر. وقد سبق وأشار ابن عربى إلى حدوث ذلك؛ فالأشاعر يعطون "التشبية" امتيازاً على "التنزيه" حتى يبرروا تأويلاتهم الخاصة عن الله.

يكتب دريدا: "منذ اللحظة التى يوجد فيها المعنى، لا يوجد سوى علامات"^(٦٤). ويأتى الخطر من افتراض تطابق الإشارات المتناظرة أو المتشابهة. إن ابن عربى ودريدا يرفضان طريقة التفكير بمنطق الثنائية؛ بحجة أنها طريقة تفكير وهمية خادعة، وفى أسوأ الظروف بحجة أنها تتطوى ضمناً على نزوع استبدادى. ومن الممكن توضيح المصدر المشترك الذى تتولد عنه اعتراضاتهما. يرى دريدا أن التعارضات الثنائية أو هام خادعة بسبب وجود شاغرية دلالية أو خواء دلالي ما؛ فالعلامات تحتاج دوماً إلى نقائضها حتى تُعرَّف نفسها تعريفاً سلبياً. ووفقاً لدريدا، يُعدُّ الاطمئنان إلى كلمة مثل "التنزيه" اطمئناناً إلى غياب ما. فـ"التنزيه" و"التشبية" يعبران عن فراغات دلالية ولا يكتسبان معنى إلا عبر تباينهما عن نقائضهما. وبكلمات أخرى، لا يفهم المُشَبَّه إلا بوصفه غير المُنزَّه، والمنزَّه غير المُشَبَّه. لكن ابن عربى لا يقوم بانتقاد المعنى على هذا النحو، فالمقطع الشعري أعلاه، المقتبس من **قصص الحكم**، لا يتساءل عن ما إذا كانت دوال مثل "المنزَّه" و"المشَبَّه" تؤدى إلى أى شىء آخر سوى الدوال؛ لأن ابن عربى لا يزال على الإيمان بالدلالة الإيجابية المستقلة التى تتطوى عليها هذه الكلمات، كما لا يزال على الإيمان بأن هذه المعانى يعارض أحدها الآخر؛ غير أنه تعارض **ينحلُّ فى الحق**. يؤمن ابن عربى بأن الله مفارق ومحيط إحاطة كلية ومستحيل بالقدر الذى يجعله منزَّهاً ومشَبَّهاً فى آن معاً. وإن كان دريدا يرفض التعارضات الثنائية لأنها تحجب الغياب، فابن عربى يستاء من مذهب الثنائية لأنه يحجب الحضور؛ أى يحجب حضور وحدانية الله المفارقة، المطلقة، التى لا تقبل التصور.

وسوف نرى، في فصل لاحق، إن كان لا يزال من الممكن إعادة وصف هذا الموقف بتعابير مختلفة؛ أي: إن كانت وحدانية الله المركزية في فكر ابن عربي مجرد لحظة أخرى من لحظات حضور الذات اللامتناهية المتمركزة لوغوسياً، أو إن كان "سلبُ السلب" هذا أقرب- في حقيقة أمره- إلى الكتاب *oeuvre* بمعناه عند دريدا منه إلى أيِّ مفكرٍ آخر. أما الآن، فيكفي تأكيد أن ابن عربي يرى من وراء ما يسميه "الله" شيئاً لا متناهياً مراوفاً مفارقاً يتأبى على أية محاولة لوضعه في سياق؛ مما يقوض في النهاية أيَّ تغنٍ أو قولٍ أو كتابةٍ نحاولها عنه.

المشروع التحرري عند دريدا: تحرير الحرف من أغلال الروح

إن كان ابن عربي يلجُّ على أن الله يمتنع على التصور، ولا يقبل التصور، معترضاً على فلاسفة الكلام، فإن دريدا يلجُّ على أن النص لا يخضع للتحكم أو الضبط، معترضاً على البنيويين. ويدرس دريدا هذا الإلحاح بشكل أفضل في إحدى مقالاته الباكورة؛ ألا وهي "القوة والدلالة" (*) *Force and Signification*، التي نُشرت للمرة الأولى في مجلة نقد *Critique* عام ١٩٦٣. يلعب عنوان المقال على دراسة جان روسيه Jean Rousset، وموضوعها كورنيه Corneille، وقد صدرت عام ١٩٦٢م تحت عنوان *الشكل والدلالة* *Forme et Signification*، ويُجمل دريدا في هذا المقال إجمالاً فعلاً عدداً من اعتراضاته الأساسية على النزعة البنيوية التي يصفها بأنها "تُخفف- إن لم تكن تُسقط من حسابها- الانتباه الذي تستحقه القوة" (٦٥). وعلى طول المقال، يصف دريدا جذوة البنيوية عند روسيه والثقة التي يُنتج بها تحليله البنيوي لـ *Le Cid* وبوليوكت *Polyeucte* (وهي براعة يتساءل المرء معها إن كانت راجعة إلى كورنيه أم إلى روسيه) (٦٦)، يصفها بأنها تعبير عن نسيان طاقة ما داخل النص نسياناً راسخاً. وإنه لنسيانٌ لعبة فاعلة دوماً عند كورنيه نسياناً يبعث على الأسى.

(*) توجد نسخة عربية لهذا المقال من ترجمة كاظم جهاد، ضمن كتاب: *الكتابة والاختلاف*، جاك دريدا (المغرب، دار توبقال، الطبعة الأولى ١٩٨٨) - المترجم.

ولذا، يمكن إجمال اعتراضات دريدا على روسيه في ثلاثة اعتراضات تترايط فيما بينها (ولا يستغرق كتابه *الشكل والدلالة* وقتاً طويلاً حتى يدرك المرء أنه يخدم دريدا- في النهاية- بوصفه نقطة انطلاق نحو تفكيك المبادئ الرئيسة في البنيوية بوجه عام). يتمثل الاعتراض الأول في أن مفهوم البنية المتحقق من حيث المبدأ بوصفه أداة مساعدة في التحليل، "يصبح في واقع الحال، وعلى الرغم من قصد الناقد النظري، الهمّ الوحيد عنده"^(٦٧). فالنص المضحى به من أجل البنية يصبح ببساطة مبرراً للحديث عن البنية؛ مما يقود دريدا إلى وصف مساعي روسيه بأنها "بنيوية متطرفة" *ultrastructuralism*^(٦٨). ودريدا حريص على تأكيد ذلك، ويكاد المرء يتوقع أن يصفه بـ "الفيثسية"، مما ينقل دريدا إلى اعتراضه الثاني، وموداه أن الفتنة ما هي إلا انتباه مُعطى للبنية، فالمرء "يغامر بالاهتمام بالصورة نفسها على حساب لعبة نافذة فيها استعارياً"^(٦٩). وبكلمات أخرى، يهتم روسيه بـ *الشكل* وينسى *القوة*. وبهذا المعنى، نكاد نفهم البنيوية بوصفها رغبة في اليقين تقريباً، رغبة في بنية تسعى إلى التخلص من- أو على الأقل احتواء- اللعبة الفوضوية داخل النص. "تلحُّ البنيوية أولاً وأخيراً على استبقاء الترابط والكمال في أية كلية على مستواها الخاص"^(٧٠). ووفقاً لدريدا (وهذا هو الاعتراض الثالث)، فذلك هو ما لا يمكن عمله. إنَّ الرغبة في الحفاظ على الكلية، والرغبة في الحديث عن "استقلال" العمل على نحو له معنى يخلو من التناقض أولاً وأخيراً، هذه الرغبة تعني "محاولة نسيان الاختلاف"^(٧١)، محاولة نسيان عدم اليقين، محاولة نسيان الطبيعة النصية المتحركة حركة دائبة، وادّعاء أن الأشياء تنتصب جامدة داخل النص.

ومع أن مقالة دريدا تمثل ردّاً محدداً على نص محدد، فليست "القوة والدلالة"- على الإطلاق- نقدًا بسيطاً لعمل معاصر عن كورنيه؛ إذ من الواضح أن دريدا لديه دوافع أخرى، فمعالجة روسيه للبنيوية الأدبية كانت تمثل نزعة مركزية اللوغوس تمثيلاً واضحاً. ففي هاجس روسيه الوسواسي بالشكل يكمن السبب في أن "النقد الأدبي نقد بنيوي في كل عصر، من حيث جوهره ومصيره"^(٧٢). وهي

وسوسة، وفقاً لتعبير دريدا، تنتكر أو تنسى أن لعبة المعنى تفيض دوماً عن حدود الدلالة، ولا يقتصر هذا الوسواس على روسيه.

ولعل أهم ما نتعلمه من مقال دريدا عن روسيه هو أن النص ليس حاضراً. ولا أهمية للكيفية التي نبتكر بها بنية متماسكة ودقيقة نشرح بها النص، فما يجعل تفسير النص ناقصاً "استحالة حضوره، واستحالة إجماله بمقولات تزامنية وفورية مطلقة"^(٧٣). وكما أنه لا توجد علامة يمكنها الاستيلاء على الحق، ولا موقف لاهوتى يمكنه انتظام تنوع تجليات الحق اللامتناهية غير المتوقعة أبداً، يحرص دريدا- بالمثل- على إيضاح أن حيوية النص التي لا يمكن الإمساك بها تُشققُ أيّ تفسير له وتهدهه.

ولعل كتاب *في علم أنساق الكتابة*، من بين أعمال دريدا كلها، يضطلع بتحليل هذا الإخضاع الذى تتعرض له الكتابة تحليلاً وافياً وأكثر تركيزاً. فيستكشف دريدا- بضرب من التحليل النفسى موج وواع بنفسه^(٧٤)- نفور الفكر الغربى واستيائه من المكتوب لصالح المنطوق، وهذا النفور رغبةً راسخةً عند مفكرين من أمثال روسو Rousseau وسوسير Saussure وليفى شتروس Levi-Strauss فى حصر الكتابة فى وظيفة ثانوية وأدائية^(٧٥)؛ فالكتابة لديهم أداة نقل المعنى، تحمل بتضاغر رسالةً مَلَكِيَّةً، إنها مجرد وسيط دلالى. وبإيجاز، فالكتابة (لو استشهدنا بروسو) ليست سوى تمثيل الكلام^(٧٦). ومن هنا، تأتى إشارات دريدا المتكررة إلى مشروعه بوصفه مشروعاً تحريرياً:

- إن الغاية الصريحة [من علم اللغة] تؤكد... تبعية علم أنساق الكتابة له... [تؤكد] اختزال الكتابة إلى مستوى الأداة... غير أن إيماءة أخرى... تُحررُ مستقبل علم أنساق الكتابة الشامل...
- مركزية اللوغوس هذه... قد عُلِّقَتْ دائماً، وقَمَعَتْ لأسباب جوهرية أىّ تفكير نظرى متحرر فى أصل الكتابة ومنزلتها...

- يلخص اللوغوس تبعية الأثر للحضور التام، كما يلخص وضع الكتابة في منزلة أدنى من منزلة الكلام الذي يحلم بالكمال...^(٧٧).

لقد تمّ - على الدوام - استبعاد العلامة المكتوبة، وقمعها، ووضعها في منزلة أدنى، وإخضاعها لمعنى العلامة المنطوقة، وكان مما أعان على ذلك خوفنا من عدم قدرتنا على التحكم في كلماتنا فتعنى شيئاً يختلف عن ما نريد "قوله". هذا الخوف المرصّي من الكتابة والإيمان الراسخ بأن الكتابة ليست سوى شكل ينقل المحتوى، يقع في قلب أيّ فكر عقلائي ميتافيزيقي. وكما استخفّ مفكرو علم الكلام استخفافاً متواصلًا بأن الحق لا يمكن دركّه، أوضح دريدا أن العديد من المفكرين، في الفكر الغربي، قد استخفوا أيضًا على الدوام بحيوية الكتابة، فسقطوا في فخ معالجة الكتابة بوصفها "تمثيل الكلام". وكما ظن الأشاعرة أنهم قادرون على خلع صفات إيجابية على الحق دون الإحساس بأية مشكلة، ظن البنويون والظاهرانيون أنهم قادرون على الإحالة الدائمة إلى كلمات من قبيل "نقاء"، "تجربة"، "براءة"، "نص"، دون أية صعوبات تذكر.

وبهذا المعنى، يمكن القول بتناظر^(*) الاعتراضات الصوفية والتفكيكية على الفكر العقلائي الميتافيزيقي، فابن عربي ودريدا يحاولان "إنعاش الطابع الإشكالي الأصلي" الذي تعانى منه الموضوعات التي يعالجها^(٧٨). يرى كلاهما أن ثمة تصدعًا حتميًا ينتاب الإيمان المغرور بالنسق: الإيمان المغرور بالقدرة على تحليل الله والكتابة، يلزمه إحجامٌ غير واعٍ عن إظهار أن إشكالية هذين الموضوعين - الله والكتابة - تقوّضُ المشروعات القائمة عليهما بل وتخرجها عن مسارها المراد لها.

ولعلنا ندرك أن النغمة التحريرية التي يتبناها دريدا في كتابه *في علم أنساق الكتابة* نغمة تهكمية كلما تقدمنا في قراءة الكتاب؛ فكلٌّ من سوسير وروسو وليفي

^(*) مرة أخرى ألفت الانتباه إلى أن كلمة "التناظر" بين وضعين تعنى في هذا السياق التشابه في الوظيفة مع اختلاف في البنية والأصل. وتكرر الإشارة نظرًا لأهمية هذا التنبيه في سياق المقارنة بين الشيخ الأكبر والفيلسوف الفرنسي - المترجم.

شتروس يناضلون من أجل التحرر أيضاً، غير أنه ضرب آخر من التحرر: الدفاع عن غير الأوربيين الذين لا يقرأون ولا يكتبون في مواجهة الأغلل الاستعمارية التي تتطوى عليها الكتابة. إذ يتحدث سوسير عن "استبداد الكتابة" التي "تترك بصمتها على الناس"^(٧٩)، حين تُغَيِّرُ الهجاءَ وتُعَدِّلُ من طرق الناس في كلامهم، أما روسو وليفى شتروس فيمضيان أبعد من ذلك حين يعادلان مهارات الكتابة على الطريقة الغربية بمفهوم عن الخطيئة الأصلية، فيجعلانها تتوجَّأ لهدم البراءة الفطرية الإمبريالي في نهاية المطاف: "الكتابة بما هي وسيلة تواصل، وظيفتها الأولى تيسيرُ استعباد الإنسان"^(٨٠). وإن كان دريدا يعترض على هذا القَدْح في الكتابة، فليس لأنه يرى الكتابة بريئة من هذه التهم، الأمر الذي يضعه بوضوح على الطرف النقيض من الثنائية نفسها. فما يلحُّ عليه دريدا إلحاحاً متواصلًا في كتابه *في علم أنساق الكتابة* هو الآتي: "... لا تطرأ الكتابة على لغة تتسم بالبراءة، فالكتابة تنطوى على عنف أصلى لأن اللغة هي في المقام الأول- كما سأوضح تدريجيًا- كتابة"^(٨١). وعلى هذا، ليس مدار الخلاف أن الكتابة خطاب استبدادي، فهي ليست استبدادًا يقع على موضوع بريء. الكتابة لا "تُفسد" أو "تقمع" أو "تُشوِّه" المعنى الحقيقي؛ لأنه ما من معنى حقيقي يقع عليه الإفساد، فما يوجد هو سياق من العلامات سابق. وكما يقول دريدا، اللغة بحد ذاتها ضرب من الكتابة.

وسوف نرى- كلما تقدمنا- إلى أيِّ حد يمكن أن نعدَّ نقد ابن عربي لعلماء الكلام والفلسفة نقدًا "تفكيكيًا"؛ أي إن كانت لا توجد لحظة من لحظات الحضور الذاتي في أعمال ابن عربي، لحظة يتأجَّل فيها امتناع الله على التصور، لحظة توجَّل رفع الستار عن أثر أو شاهد باقٍ، عن علامة سرِّية مخبوءة في صندوق بعيدًا عن أعيننا. أو على العكس، إن كان ابن عربي في اعتراضه على المفكرين واللاهوتيين يضع نشاط الميتافيزيقا بأجمعها موضع السؤال بافتراض أن الحق يختلف اختلافاً جذرياً عن ما تمليه علينا طرفنا التقليدية في الفهم والإدراك، مما يعنى أن الحق ليس معنى سرِّياً خفياً على سائر الناس، وإنما هو "تغير مستمر" أو

"خواء" لا يقبل التفكير. ويتوقف كل ذلك على ما إذا كان ابن عربي يُبطل الميتافيزيقا إبطالاً أصيلاً، أم أنه يُعيدها إلى مستوى أعلى بتصوره عن "وحدانية الله" المتمركزة لوغوسياً.

"الاختلاف المرجئ" La Différance

ثمة مفارقة واضحة في أن مصطلح دريدا "الاختلاف المرجئ" الذي كان يعنى به أنه "ليس كلمةً word ولا مفهوماً concept بالمعنى الحرفي"^(٨٢)، صار - في نهاية المطاف - كلمةً ومفهوماً معاً بعد ثلاثة عقود من النقد التفكيكي. وتزداد المفارقة عند العديد من النقاد الذين يصرون على ربط الاختلاف المرجئ بـ الله أو بضرب من اللاهوت السلبي apophatic theology، على الرغم من تحفظات دريدا الصارمة. وفي المناقشة التي دارت عقب محاضرة دريدا عام ١٩٧١م، كان بريس بارن Brice Parain أول من أعلن أن الاختلاف المرجئ هو "الله في اللاهوت السلبي"^(٨٣)، وقد عارضه دريدا في ذلك معارضة شديدة. وفي الصفحات الأولى من مقال "الاختلاف المرجئ"^(*) نقرأ الآتي:

وإذن، فالانعطافات والتعابير والجمال التي سألجأ إليها في الكلام عنه ستتحو - في الغالب - منحنى مثيلاتها في علم اللاهوت السلبي، بل ولن تتميز عنها indistinguishable في بعض الأحيان. وقد أشرت بوضوح - منذ قليل - إلى أن الاختلاف المرجئ لا يكون ولا يوجد، وليس وجوداً حاضراً على أي نحو كان، مما يقودنا أيضاً إلى ضرورة وصف كل شيء لا يكونه الاختلاف المرجئ، كل شيء. وعليه، لا ينطوى الاختلاف المرجئ على وجود متعين ولا جوهر. فهو لا ينشأ

(*) توجد نسخة عربية لهذا المقال من ترجمتي عن نسخة آلان باس الإنجليزية ضمن كتاب: استراتيجيات التفكير، ترجمة وتأليف حسام نايل (الأردن، دار أزمنة، ٢٠٠٩) - المترجم.

عن أىّ تصنيف للوجود، سواء كان هذا الوجود حاضراً أو غائباً. ومع ذلك فإن هيات الاختلاف المرجئ التي نصفها على هذا النحو ليست لاهوتية، ولا حتى في أشد نظم اللاهوت السلبي سلبية؛ أقصد ذلك النظام الذى ينشغل دائماً بعزل جوهرانية عالية تتجاوز مقولات الجوهر والوجود المتناهية، أى مقولات الحضور؛ إذ سرعان ما ينبهنا ذلك النظام إلى أننا نرفض إسناد أى وجود متعين إلى الله حتى نسلم له بوجود سام لا يمكن وصفه ولا يطوله التصور^(٨٤).

ويفضل آلان باس Alan Bass استخدام كلمة indistinguishable مقابلاً لـ parfois á s' y méprendre - ومعناها الحرفى: "أحياناً يلتبس الأمر" - مما يوحي بأصداء لاهوتية ينطوى عليها الاختلاف المرجئ، بينما يسعى دريدا إلى إنكار ذلك. ومع ذلك، يؤكد دريدا فى هذه الفقرة أن الطريقة التي سيتحدث بها عن الاختلاف المرجئ - كونه بلا موضع ولا اسم، كونه غير متعين وغير زمنى، كونه الآخر مع أنه مصدر أى معنى - تتشابه على نحو غريب مع الطريقة التي يتحدث بها اللاهوت السلبي عن الله (ولا ريب أنها تتشابه مع طريقة ابن عربى فى الحديث عن الحق). غير أن دريدا يقول إن هذا التشابه لن يضللنا. فـ "الأصل الذى يُشيدُ الاختلافات ويرجنها"^(٨٥)، والذى يسميه دريدا "الاختلاف المرجئ"، لا علاقة له بـ الله أو بأى ضرب آخر من "الجوهرانية المتعالية"، وإن كانت مرآة المصطلح تؤدى بنا إلى التفكير فى ذلك. وفيما بعد، سأعالج هذه الممانعة التي يبديها دريدا نحو إضفاء أى طابع لاهوتى على أعماله. أما الآن، وبصرف النظر عن ما إذا كنا نتفق مع بريس بارن أو جون كابوتو John Caputo ("الله ليس هو الاختلاف المرجئ... والاختلاف المرجئ ليس إلهاً خفياً على الأخص، أى ليس أعماق الذات الإلهية المحجوبة فى اللاهوت السلبي")^(٨٦)، فلا بد من إلقاء نظرة على الصفات (اللاصفات) (non) attributes التي يضيفها دريدا على الاختلاف المرجئ.

يتمتع الاختلاف المرجئ بمكانة مهمة في فكر دريدا؛ نظراً لأنه يجعل الكتابة غير قابلة للتحكم فيها، يجعلها مراوغة، يجعلها قوة ليست حاضرة تماماً تفضى بالنص إلى حالة دائمة من عدم الاستقرار، فـ"يختلف عن نفسه، ويؤجّل نفسه، ويكتب نفسه بما هو اختلاف مرجئ"^(٨٧). ولعل التشابه الأول اللافت للانتباه بين الاختلاف المرجئ والحق راجع إلى أن الاختلاف المرجئ- حاله من حال الحق- "بلا اسم في لغتنا"^(٨٨). وعلى الرغم من وضوح هذا النزوع الصوفي أو الباطني، يحرص دريدا على الإشارة إلى أنه إن كان من غير الممكن تسمية الاختلاف المرجئ "فليس لأن لغتنا لم تجد أو لم ترث بعد هذا الاسم... من خارج نسقنا المتناهي"^(٨٩). ومع أن المرء قد تتابه، هنا، غواية التفكير في اسم عبراني لا مُسمّى له- على نحو ما قال لوسكي Lossky- نجد دريدا يُلح إلى هيدجر. الاختلاف المرجئ غير قابل للتسمية؛ لأنه "لا يوجد له اسم بالمرّة، ولا حتى اسم الاختلاف المرجئ". غير أن دريدا بنأى بنفسه عن الوقوع أسير حنين هيدجر إلى الوجود، حين يشير إلى أن الاختلاف المرجئ "أقدم من الوجود نفسه"، وفي النص نفسه يستمر دريدا في تفكيكه على مدى فقرة يشير فيها إلى اللاهوت السلبي. فما لا يمكن تسميته "ليس وجوداً سامياً لا يدانيه اسم؛ بل هو بالأحرى "عَبَة تُمكننا من إنتاج الأسماء". ويصعب القول بأن هذه الأوصاف السالبة تُعبّر تعبيراً دقيقاً عن الحق عند ابن عربي. فمن جهة، الحق "لا صفات له" أو أسماء^(٩٠) في نهاية الأمر، ويضع هذا الجزم ابن عربي- مباشرة- في مواجهة الأشاعرة وأمثالهم، ممن يثبتون لله صفات لا تضاهيها مطلقاً أية صفات إنسانية يمكننا تخيلها^(٩١). ومن وراء غياب الصفات هذا، يعطى ابن عربي انطباعاً أكيداً - في مواضع أخرى- بأن "الوجود الذي لا يوصف" لا يزال محل نقاش: "قالمرء يعرف أن ثمة واحداً لا يمكن أن يُعرف"^(٩٢). والاختلاف المرجئ عند دريدا ليس في حاجة إلى مثل هذا "الواحد".

ثمة شبهة آخر بين الحق والاختلاف المرجئ، ألا وهو أن كلاهما لا يمكن تصوّره حرفياً؛ فهما تعبيران لا يمكن أن يكتسبا صفة الحضور فيما يرى ابن

عربي ودريدا. "لا يقدر العقل على حدّ الله بصورة من الصور؛ لأن الله يحو الحدّ حين يكشف عن نفسه بطريقة أخرى، وهكذا" (٩٣). إنّ تَأبَى الحق على التعيّن، وتَأبِيه على اتخاذ صورة واحدة دائمة هو- على وجه التحديد- ما يجعله ممتنعاً على التصور، ويضمن هذا التغير الهيراقليطي المستمر بمقتضى دوام اختلاف تجليات الحق أن "يظل الحق نفسه غَيِّبًا أبداً" (٩٤). وبطريقة مماثلة، "لا ينكشف" حرف الـ "a" فى كلمة "Différance"؛ لأن "الاختلاف المرجئ هو... ما يتيح إمكان تقديم الوجود الحاضر" (٩٥). فالاختلاف المرجئ ضرب من اللعب، وليس موجوداً خفياً مستوراً يأتي باللاموجود إلى حيز الوجود: ما من حضور يحاوله ويعتبره، ولذا فعدم إمكان تصور الاختلاف المرجئ- وإن كان يتطابق ظاهرياً مع عدم إمكان تصور الحق- يمثل ضرباً من عدم إمكان التصور يختلف اختلافاً جذرياً عن ما يمثله عدم إمكان تصور الحق: "قالمرء لا يمكنه التفكير فى الاختلاف المرجئ... على أساس من الحاضر أو على أساس من حضور الحاضر" (٩٦).

ومع أن الاختلاف المرجئ والحق يتشكلان بطرق مختلفة فإنهما يشتركان معاً فى عدم قابلية التسمية أو التعيين وفى عدم قابلية التصور؛ مما يفضى بنا إلى مجموعة من أوجه الشبه بينهما، معظمها يكرر النقطة الأساسية نفسها مرة أخرى، وهى جذيرة بالذكر ثنائية، نظراً لأنهما يفسران هذه النقطة من منظورات مختلفة ومهمة لنا حالياً. أولاً، الحق والاختلاف المرجئ- كلاهما- لا يقبلان الإدراك حساً ولا عقلاً؛ فالمرء لا يقدر على لمسهما ولا استيعابهما. وإلحاح دريدا المعروف على أن الاختلاف المرجئ "ليس كلمةً ولا مفهوماً بالمعنى الحرفى" (٩٧) يتصادى مع الآية القرآنية التى يولع ابن عربى بتكرارها: "ليس كمثله شىء" (سورة الشورى، آية ١١)؛ فلا علامة ولا رمز يمكنهما أن يدلّا على الحق أو حتى يشبهانه من بعيد، فالحق يمتنع على القياس أو المُعَايِرَة. وحتى كلمة "تذريه" لا يمكن

استخدامها- فيما يرى ابن عربي- لأن الحق "لا يُضاهى على الإطلاق، وتنزيهه حدُّ عليه"^(٩٨). ومن الممكن القول بإيجاز إن الحق هو الغيبُ المطلق^(٩٩). وكذلك الحال مع الاختلاف المرجئ؛ فهو لا يُدرك حسًّا ولا عقلاً لأنه "لا يوجد، وليس وجودًا حاضرًا على أيِّ نحو كان"^(١٠٠). ولا يمكن الإدلال على الاختلاف المرجئ؛ لأنه يتجاوز على الدوام فعل الدلالة، فهو يتأبى على الدلالة في اللحظة التي يجعل فيها الدلالة ممكنة. وشأن مفصلة في باب وطية في ورقة، يعمل الاختلاف المرجئ على حافة اللغة، فينتج اللغة ويتراجع عنها، فهو يُغيَّب نفسه دائمًا في الفعل الذي يجعل الأشياء حاضرة، ومن هنا تأتي مقارناته التي لا تنتهي باللاهوت السليبي. إن الحق "يظل غيبًا أبدًا"، وكذا حركة الاختلاف المرجئ "تستعصي على كل من الرؤية والسمع"، فتشتغل في النهاية ضمن "نظام لم يعد ينتمي إلى الإدراك الحسي... ولا... إلى الإدراك العقلي"^(١٠١).

يترتب على ذلك عدمُ إمكان عرض الاختلاف المرجئ والحق، أو شرحهما بطريقة مباشرة من خلال ما يكونانه، بل يُعرضان ويُشرحان بطريقة غير مباشرة من خلال ما لا يكونانه. وفي هذا، تُقدم هارفي Harvey في فصل ممتاز من كتابها *دريدا واقتصاد الاختلاف المرجئ Derrida and the Economy of Différance* قائمةً تنص فيها على ست وعشرين صفة لا يتصف بها التفكيك بدءًا من "الميتافيزيقا" مرورًا بـ"رمية النرد عند مالارمه"، انتهاءً بـ"الاحتفاء باليقظة عند جويس"^(١٠٢). يقول دريدا: "لن أتحدث عن هذا الاختلاف الخطي إلا عبر خطاب شديد المباشرة عن الكتابة"^(١٠٣). وعلى هذا، يحاول دريدا في محاضراته عن "الاختلاف المرجئ" قول ما لا يمكن قوله. وسرعان ما يوضح دريدا بنفسه وعيه الحادّ بهذه المشكلة. وحتى أقواله عن الاختلاف المرجئ تقع ضحية الاختلاف المرجئ؛ مما يفسر أسباب رفضه المتكرر إعطاء أيِّ تعريف واضح موجز لما

"يعنيه" بالاختلاف المرجئ، فلا يدخل مباشرةً إلى تسميته أو تعريفه، ويفضل اتباع طريقة ملتوية: طريقة الاستدلال والتلميح والسلب أو النفي^(٤).

تشيع فكرة النفي (أو السلب) عند ابن عربي بوصفها إمكان الوصف الوحيد؛ إذ يضطره إلحاحه على أن الحق (الذات الإلهية) لا يُوصف، ولا يُدرك حساً أو عقلاً، إلى اختيار التعريف بالسلب على أساس أنه الطريق الوحيد المتاح لمن يريد الحديث عن الله حديثاً له معنى:

لا جرم في أن الذات الإلهية غير معروفة. والصفات المنسوبة لها ليست كصفات الحدث. فهي قديمة أزلية. وهذه الصفات وما أشبهها سلوب، مثل نفي البداية وكل ما يخص النشأة الزمنية^(٥).

وعلى هذا، لا نقدر على قول إن الحق يتصف بأنه "حر"، فلا نقول إلا إنه ليس عبداً، ما دام الله "لا يُعرّف إلا بنفى الصفات عن ذاته وليس بإثبات الصفات"^(٥). وفي حقيقة الأمر، يواجه الشيخ الأكبر المشكلة نفسها التي واجهها القديس أوغسطين، والتي مؤداها أن وصف الله بأنه "لا يُوصف" يقلل من وقار تمنعه على الوصف. وفيما يرى دريدا، تبدو المعضلة هاهنا على النحو الآتي: إن كانت اللغة غير مستقرة، فكيف يمكننا الحديث من داخل اللغة عن عدم استقرار اللغة؟ وإن كانت لا توجد علامة يمكنها تمثيل الاختلاف المرجئ فكيف يمكننا الكتابة عنه؟ وسوف نرى كيف يجيب ابن عربي ودريدا عن هذه المشكلات التي تجعل موضوعيهما متمنعين على التصور؛ أي سنرى ما إذا كانت استراتيجية السلب واستراتيجية الخطاب غير المباشر تظل الاستراتيجية المتاحة باستمرار.

(٤) يظهر أن كلام الموند، هنا، عن أن دريدا لا يقدم تعريفاً إيجابياً للاختلاف المرجئ صحيح في سياق محاضرة عام ١٩٦٨ التي ألقاها دريدا في الجمعية الفرنسية للفلسفة، ولكنه غير صحيح في سياق أعمال دريدا ككل؛ لأن دريدا قد طلع على معجبيه وقادحيه في يوم من أيام عام ١٩٨٨ بتعريف للتفكيك، ضمن كتابه *مذكرات لأجل بول دي مان* ومؤداه على النحو الآتي: "التفكيك هو أكثر من لغة". فأوجب دريدا بعد أن كان يسلب، وأثبت بعد أن كان ينفي - المترجم.

ولعله من المهم، أيضاً، ملاحظة حرص ابن عربي- في الشاهد السابق- على إبقاء الحق خارج الزمنية، حين يؤكد أنه بلا نهاية (أزلي) ولا بداية (قديم). وفي مقال "الاختلاف المرجئ" يقوم دريدا بالصنيع نفسه، حين يحرص على النأى بالاختلاف المرجئ عن أن يكون "أصلاً" أو "نتيجة" حتى لا تتعاد كتابته ضمن حدود مخطط السبب والنتيجة. أما القول بأن الاختلاف المرجئ *différance* "أصل" يُرجئ الاختلافات *differences* فلا يعنى أن "الاختلاف المرجئ الذى يُنتج الاختلافات سابقٌ عليها بطريقة أو بأخرى، فى صورة حاضر... بسيط لا يطرأ عليه تحول أو اختلاف"^(١٠٦). إنه فى حالة حركة دائية تحول- فى معناها الأولى على الأقل- دون وصف الاختلاف المرجئ بأنه سبب أول- على نحو ما نجد فى الأفلاطونية المحدثة- يفضى إلى شلال من الآثار التى تفيض عنه وتتساب إلى العالم أدناه؛ بل على العكس "لم يعد اسم 'الأصل' يناسبه"^(١٠٧).

لماذا يحرص دريدا على إبعاد الاختلاف المرجئ عن كل ما هو زمنى، وهو حرص يبدو أنه يؤكد أصداءه اللاهوتية ولا يقلل منها؟ وإذا كانت لا زمنية الاختلاف المرجئ هى المؤكدة هنا، فهى لا توحى بوجود إله كلى الزمان ينعزل انعزلاً سامياً متعالياً، يرقب بهدوء مسيرة خلقه المتجلى أمام عينيه. وفى حقيقة الأمر، ينأى دريدا بالاختلاف المرجئ عن أية تصورات زمنية؛ لأنه لا يريد الوقوع فى الفخ الميتافيزيقى نفسه الذى وقع فيه هوسرل: فخ تأسيس نسقه الفكرى بكامله على تصور عن "الحاضر" متمركز لوغوسياً. فى مقال "التكوين والبنية" *Genesis and Structure* يوضح دريدا كيف أن هوسرل "يركن إلى... تصورات"- من قبيل "التجربة" و"الحاضر"- ينكشف فى نهاية الأمر "عدم اكتمالها" فى فلسفته الظاهرية^(١٠٨). وكلما حاول هوسرل تحليل الكيفية التى يصير بها العالم ذا معنى أمام الوعى، مستخدماً مصطلحات مثل الجوهر *noema* والـ *hylé* (الذى يعنى تجربة العالم بشكل حسى غير قصدى قبل أن يتشكل عبر المعنى، أى كونه "مادة زمنية أولية"^(١٠٩))، اضطر إلى الاستناد إلى "موضوعات الآخر والزمن"^(١١٠)،

وهي موضوعات إشكالية. إذ تقتضى تجربة الآخر عند هوسرل لحظة "حاضر حي"، هي- فيما يرى دريدا- مثال على الحضور الذاتى المتوهم، إنها رمال ميتافيزيقة يشيد عليها هوسرل ببناء قلعته بكاملها. ومن هنا، يأتى إلهام دريدا على أنه حتى عبر "الفاصل الزمنى الذى يفصل الحاضر عن ما لا يكونه حتى يكون الحاضر هو نفسه"، هذا الفاصل- هذا الاختلاف- يرتبط بما "تسميه المستقبل وما تسميه الماضى على السواء"^(١١١). وهي الكلمات التى عليها أن تمثل محاولة دريدا الأكثر تحديداً للخروج على الفرضيات المتمركزة لوغوسياً (والمتمركزة لاهوتياً أيضاً) الكامنة خلف مصطلحات "الماضى"، و"الحاضر"، و"المستقبل".

مرآة الاختلاف المرجئ: الغائب ينتج الحاضر

ومن آخر خواص الاختلاف المرجئ، ولعلها الخاصة الأهم من حيث إنها تستدعى مقارنته بـ"الله فى اللاهوت السلبي"، قيامه بوظيفة واضحة ألا وهى الإنتاج؛ فالاختلاف المرجئ يُنتج. إنه يخلق، أو على الأصح يُمكنُ الخلقَ من أن يحدث. إنه "يُغيرُ نفسه إلى عدد ما من البدائل غير المترادفة"^(١١٢)، دون أن يشكل أى طرف منها علامات تُفضى إليه. ويبدو أن المرأة هى المثال الأنسب على هذه العملية عند دريدا. نحن نعرف أن الاختلاف المرجئ ليس كائناً (= ov) و"لا يوجد"^(١١٣). وفى فقرة يستشهد بها جاشيه Gasché من كتاب دريدا *التشبيته*، فى مفتتح عمله الذى يدور حول ما يسميه "النسق الأبعد من الوجود" عند دريدا- يقدم دريدا تشبيهاً مهماً فيما يتعلق بفهم دور الاختلاف المرجئ وعلاقته باللاشيئية:

إن الماضى قدماً نحو الآخريّة الجذرية... يتخذ دوماً- ضمن حدود الفلسفة- شكلاً بعدياً أو تجريبياً. وينتج ذلك عن الطابع المرأوى فى الفكر النظرى الفلسفى. فالفلسفة غير قادرة على تدوين (أو فهم وإحاطة) ما يكون خارجها إلا عبر تمثيل يقوم

بموازمة صورة سلبية عن ما يقع خارجها، والتشتيت أو الانتشار
مكتوب على ظهر هذه المرأة، على طلائها القصديري^(١١٤).

الاختلاف المرجئ هو الذى يسمح للهويات بإنتاج الاختلافات فيها، وللاختلافات
إنتاج الهويات على نحو لا نهائى؛ فيتسبب فى انتشار الأثر انتشاراً لا يتناهى دون
أصل أو أصول، ودون أن يشترك هو نفسه فى هذه العملية. ويقول لنا جاشيه إن
الطلاء القصديري الذى تطلّى به المرأة هو "حدّ فضى، هو ظهر المرأة اللامع...
بدونه لا يوجد انعكاس ولا نشاط مرآوى ولا تأمل، وهو لا مكان له ولا هو طرف
فى لعبة الوميض الانعكاسى"^(١١٥). الاختلاف المرجئ هو هذا الطلاء القصديري، هو
حركة تتسبب فى الإيجاد دون أن تشارك فيه، تؤلّد دون أن تظهر بنفسها. إن إشارة
دريدا المبهمّة التى "تلمّح، دون أن تكسر الزجاج، إلى ما وراء الوجود الظاهر
"epekeina tes ousias" تصبح واضحة الآن: لا تشير الكتابة إلا إلى اللامسافة
الكائنة من وراء المرأة، ولا تتعدها إلى اللامسافة الكائنة من وراء الوجود.

إلى أى مدى يمثل "طلاء المرأة القصديري" عند دريدا- الطلاء بما هو
هذا اللامكان الكائن خلف المرأة- موقع الحق عند ابن عربى، فيتسبب فى
الحضور بينما يُغيب نفسه دائماً وأبداً؟ فى فقرة حاسمة من كتاب *الفتوحات المكيّة*
يتوسع ابن عربى فى شرح تواليات الحق بعبارات تضاهى عبارات دريدا:

وينبها ذلك إلى صورة الحجاب حيث يكشف الحق فيها عن نفسه.
فالحق يحول نفسه من حجاب إلى حجاب آخر. وما ثمّ إلا انتقال من
حجاب إلى حجاب، فالكشف الإلهى لا يكرر نفسه أبداً البتة. ومن هنا
تتغاير الصور، والحق نفسه وراء كل صورة منها. فما ثمّ عندنا منه
سوى اسم الظاهر سواء فى الكشف أو الحجاب. واسمه الباطن يظل
باطناً دائماً وأبداً.

ولذا، يظل الحق غيباً أبداً وراء الصور الظاهرة فى الوجود^(١١٦).

وقد قال دريدا إنه منذ اللحظة التي يوجد فيها المعنى، لا يوجد سوى علامات^(١١٧). وكذلك، منذ اللحظة التي يوجد فيها الحق، لا يوجد سوى تجلياته وحدها، فـ"ما ثمَّ إلا انتقال من حجاب إلى حجاب". وحين يتم التعبير عن الباطن لا يوجد سوى الظاهر فقط، مفضياً إلى المزيد من الظاهر، وهكذا إلى ما لا نهاية. ومع أن الحق متحرر من "الجوهريّة العالية" التي يحاول دريدا- في غير موضع- تفكيكها عند العلامة إيكهارت، فإن مراوغة الحق- التي هي سبب في الحضور بينما تظل غيباً على نحو فيه مفارقة- يبدو أنها تحذو حذو حركة الاختلاف المرجئ *différance*، إلى درجة أن ابن عربي يستخدم الاستعارة نفسها التي يستخدمها دريدا؛ ألا وهي استعارة المرآة، وفي الغالب تتبدل الاستعارة كل مرة لتتناسب السياق. فأحياناً، تكون المرآة هي الحق، وأحياناً تكون المرآة هي قلب الصوفي، وأحياناً هي شخص المؤمن. ولعل إحدى فقرات *فصوص الحكم* تتقل بشكل أفضل أصداً هذه الاستعارة كما يستخدمها دريدا:

وأجهد في نفسك عندما ترى الصورة في المرآة أن ترى جرم المرآة
لا تراه أبداً البتة...

... فالمستقبل لا يرى إلا صورته في مرآة الحق. ولا يرى الحق نفسه، وهو مستحيل، فهو يعرف أنه ما رأى إلا صورته الحقة فيها. وكما في حالة المرآة والرائي، فهو يرى الصورة فيها، ولا يرى المرآة نفسها... وتشبيه المرآة هو الأقرب والأوفى بروية الكشف الذاتي الإلهي^(١١٨).

وكما في استعارة دريدا، فالحق يشكل هذا الجزء من المرآة الذي لا نراه (الطلاء القصديري)، والذي يظل غير مرئي أثناء عملية الانعكاس بكاملها، والذي بدونه لا تتمكن من رؤية انعكاسنا على سطح المرآة مطلقاً. وهذه الاستعارة عند ابن عربي ودريدا، تعطى الميتافيزيقا نغمة نرسيسية تقريباً. حين ينظر اللاهوتي في المرآة بقصد رؤية الحق نفسه، يفوته أنه ما رأى إلا صورته المنعكسة عليها؛ فالذوات

عند ابن عربي ودريدا- على السواء- تعجز عن وضع طلاء المرأة القصديري في حساباتها، فتعجز عن رؤية أن ما يبحثون عنه يقع بالضرورة خارج مجال رؤيتهم. وبطبيعة الحال، تزخر الكتابات الدينية على اختلاف أنماطها باستعارات المرأة، فليس ابن عربي أول من استخدمها؛ غير أنها استعارة تنطوي على قياس تمثيلي يدعم يقين ابن عربي بأخرية الحق التي لا يمكن تصورها: الحق الذي يُنتج الصور ولا يمكن لمحه أبداً البتة. وبهذا المعنى، يصبح ظهرُ المرأة "محلَّ كشف" (١١٩) وفترة من الصور، وكذلك حال الاختلاف المرجئ الذي ينتمي إلى "مسافة غريبة... بين الكلام والكتابة" (١٢٠)، وهي لحظة لا يمكن تصورها حين يصبح الباطنُ ظاهراً، وحين تصبح النصوصُ تفسيراتٍ، وحين تصبح الكلماتُ أشياءً.

* * *

وإنْ بدت المقارنات بين الاختلاف المرجئ والحق غريبة للغاية، إذ يشتركان في عدد من الخواص العامة- انعدام التحديد، الأخرية الجذرية، عدم قابلية الإدراك حساً أو عقلاً/عدم الرؤية/عدم قابلية التصور، اللازمية، فضلاً عن أدوارهما التوليدية التي تنطوي على قدر من المفارقة- فعلى المرء أن يقرر إلى أي مدى يمكننا تقبل الاختلاف difference (لعدم وجود كلمة أفضل) الذي لا يزال دريدا يرغب في الإبقاء عليه بين استراتيجياته وإيماءة الحق المتقوّضة أنطولوجياً de-ontologizing gesture of the Real عند ابن عربي^(*). في المقام الأول، يظل الاختلافُ المرجئُ différance، "عبءٌ صامتةً"، يظل صمتاً، يظل "سراً وإفشاءً صامتاً للسر، وكأنه قبر" (١٢١). وإنْ بدا أنّ خواءً ما يتخلل كل أعمال دريدا عن الاختلاف المرجئ، فإن عدم تناهي الخواء لا حاجة به إلى "الواحد الذي لا يمكن معرفته"؛ فلا يوجد عند دريدا ذلك الواحد المراوغ الذي يتترك خلفه صورَه

(*) يقصد الموند الاختلاف الذي يحرص عليه دريدا بين استراتيجية التفكيك عنده من ناحية، واستراتيجية الحق عند الشيخ الأكبر بصفة خاصة (وإنْ كانت تقويمية أو تفكيكية) واللاهوت السلبي النافي بصفة عامة، من ناحية أخرى- المترجم.

المتوالية دومًا، وإنما يوجد ببساطة "خلاف" ناشط، دائب الحركة بين قوى مختلفة، وهي ألفاظ نيتشه يستخدمها دريدا. وبكلمات أخرى، الاختلاف المرجئ يحدث ببساطة. إنه يحدث، منتجًا صورًا بالسهولة نفسها التي يُنتج بها صورتين قد تُضاعفان من نفسيهما إلى ما لا نهاية. فما يبدو أنه يتردد في أعمال دريدا كلها هو اللاتناهي بلا عمق؛ وصفة هذا اللاتناهي أنه "مسطح كرقعة شطرنج لا يُحاط بها ولا عمق فيها، وعلى سطحها تحدث لعبة الوجود"^(١٢٢)، وهي رقعة شطرنج لا تحتاج إلى أي لاعب، سواء كان يُلعبُ عليها أم لا.

وكما سوف نرى في فصل لاحق، إلى أي مدى يمكننا مساءلة "وقاية" دريدا الاختلاف المرجئ من أي "تلوث" لاهوتي. أما الآن، ومع أن الاختلاف المرجئ والحق يتشكلان بطرق مختلفة، فلا يقلل ذلك من التشابه القوي بين نتائجهما: إعادة مساءلة الفكر العقلاني مساءلة جذرية، إعادة فهم كل محاولات تفسير الله/الواقع/النص بوصفها محاولات قائمة على الوهم، إعتاق امتناع الله والنص على التحكم أو الضبط من قيود الميتافيزيقا التي تحدهما. لعله بهذا التحرر من تحديدات العقلانية وتصنيفاتها الضيقة، تحدث - حتمًا - درجة من الحيرة أو البلبلة، أما الطريقة التي يتعامل بها ابن عربي ودريدا - على وجه التحديد - مع كلمات مثل "الحيرة" perplexity و"البلبلة" confusion فذلك موضوع الفصل التالي.

هوامش الفصل الأول

- (١) Cited in S.Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, p.142.
- (٢) in J. Derrida, *L'Écriture et la Différence*, Paris: Editions du Seuil, 1967, p. 121 The English translation used is by Alan Bass, *Writing and Difference*, London: Routledge and Kegan, 1978, p. 82
- (٣) Ibn 'Arabi, *Shajarat al-Kawn*, trans. A. Jeffery, Lahore, Pakistan: Aziz, 1980, pp.88-89.
ويرى بعض دارسى ابن عربى أن نسبة هذه الرسالة إلى ابن عربى محل شك.
- (٤) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p.151
- (٥) *Writing and Difference*, p. 84, *L'Écriture*, p.125.
- (٦) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 292, *L'Écriture*, p. 427
- (٧) Jacques Derrida, "How to Avoid Speaking: Denials", trans. K. Frieden, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany, NY: State University of New York Press, 1993, pp. 295, 299.
- (٨) *Ibid.*, p. 310.
- (٩) Found in Ibn 'Arabi, *Fusus al-Hikem*, A. E. Affifi (ed.), Beirut: Dar al-kutub al-'Arabi, 1946, p. 68. Trans. Ralph Austin as *The Bezels of Wisdom*, New Jersey: Paulist Press, 1980, p. 74.
- (١٠) Derrida, *Writing and Difference*, p. 280, *L'Écriture*, p. 412.
- (١١) Ibn 'Arabi, *The Bezels of Wisdom*, p. 75.
- (١٢) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, trans. G. C. Spivak, Baltimore: John Hopkins University Press, 1976. p. 29; French Edition *De la grammatologie*, Paris : Les Editions de Minuit, 1967, p. 45.
- (١٣) From *the Futuhat al-Makkiya*, vol, III. 198.33- found in W.G. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany: SUNY Press, 1989, p. 107.
- (١٤) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 336/*Futuhat*, 1.266. 15.
- (١٥) M. Fakhry, *A History of Islamic Philosophy*, London: Longman, 1983. p. 204
- (١٦) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 75/*Futuhat*, II.319.15

- (17) Taken from his *al-Ibana*, cited in A. J. Arberry, *Reason and Revelation*, London: Allen and Unwin, 1957, p. 22
- (18) *Ibid.*, p. 22.
- (19) A. Haleem, "Early Kalam" in S. H. Nasr and Oliver Leaman (eds), *Routledge History of Islamic Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1996.
- (20) *Ibid.*, p. 75.
- (21) See Alexander D. Knysh, *Ibn 'Arabi in the Later Islamic Tradition*, Albany: SUNY Press, 1999, pp. 34-35.
- (22) H. Corbin, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi*, trans. Ralph Manheim, New Jersey: Princeton University Press, 1969, p. 26; Richard Netton, *Allah Transcendent: Studies in the Structure and Semiotics of Islamic Philosophy, Theology and Cosmology*, Richmond: Curzon Press, 1994, p. 269.
- (23) M. Fakhry, *Islamic Philosophy*, p. 246.
- (24) Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1975, p. 263.
- (25) H. Dabashi, *Truth and Narrative: The Untimely Thoughts of 'Ayn al-Qudat al-Hamadani*, Richmond: Curzon Press, 1999, p. 604.
- (26) See W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 376/*Futuhat* II.133.19.
- (27) See M. Fakhry, *Islamic Philosophy*, p.117.
- (28) See Mustafa Tahrili's interesting article "The Polarity of Expression in the *Fusus al-Hikem*" in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993.
- (29) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p.62/*Futuhat*, I.160.7.
- (30) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 350/*Futuhat* IV.143.2.
- (31) *The Bezels of Wisdom*, p. 282.
- (32) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 279
- (33) *The Bezels of Wisdom*, p. 149, *Fusus al-Hikem*, p. 121.
- (34) *The Bezels of Wisdom*, p.150, *Fusus al-Hikem*, p.122.
- (35) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 156/*Futuhat*, II.671.5
- (36) Jacques Derrida, *Dissemination*, trans. B. Johnson. London: Athlone Press, 1981, p. 20.
- (37) *The Bezels of Wisdom*. p. 152, *Fusus al-Hikem*, p. 124.

- (٣٨) W. G. Chittick, *Sufi Path*, pp.104-5/*Futuhāt* II.185.27; W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 105/ *Futuhāt*, II.589.28; in the final extract, Ibn 'Arabi is quoting Abu Talib al-Makki, cited in W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 354/*Futuhāt*. III.384.18.
- (٣٩) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. III/*Futuhāt* II. 657.13.
- (٤٠) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 230/ *Futuhāt* IV.105.3.
- (٤١) A. Hyman and J. Walsh, *Philosophy in the Middle Ages*, Indianapolis: Hackett Publishing Co., 1973, p. 377.
- (٤٢) Reiner Schürmann, *Meister Eckhart*, Bloomington: Indiana University Press, 198, p. 102 – taken from the sermon *Quast vas auri*.
- (٤٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 60/*Futuhāt* II.597.17.
- (٤٤) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 62/*Futuhāt* I.160.4.
- (٤٥) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 292; *De la grammatologie*, p. 413.
- (٤٦) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 253.
- (٤٧) Peggy Kamuf (ed.), *A Derrida Reader: Between the Blinds*, Exeter: Harvester Wheatsheaf, 1991, p. 173; Jacques Derrida, *La Dissémination*, Paris: Editions du Seuil, 1972, p. 183.
- (٤٨) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, trans. Alan Bass, Brihton: Harvester Press, 1982, p. 317. French edition used is *Marges de la Philosophie*, Paris, Editions du Seuil, 1972.
- (٤٩) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 79; *De la grammatoioogie*, p. 117.
- (٥٠) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 114.
- (٥١) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 20; *L'Écriture*, p. 34.
- (٥٢) *The Bezels of Wisdom*, p. 254; *Fusus al-Hikem*, p. 200.
- (٥٣) Ibid.
- (٥٤) S. Mackenna (ed.), *Plotinus: The Enneads*, London: Penguin, 1991, section V.2.1.
- (٥٥) Found in Schürmann, *Meister Eckhart*, p. 123- in the German text see Niklaus Largier (ed.), *Meister Eckhart: Werke*, Frankfurt am Main : Kohlhammer, 1993, p. 70-taken from the sermon *Surrexit autem Saulus*.
- (٥٦) From the Brethren of Purity's *Rasa'il* 3:232, cited in W.G. Chittick, *Heart of Islamic Philosophy: The Quest for Self-Knowledge in the Teachings of Afdal al-Din Kashani*, New York: Oxford University Press. 2001, p. 76.

(٥٧) Ibid., p. 75

(٥٨) ويسمى القونوى الفيض الذى يخلق الموجودات "تَعْيُن"، منتقلاً بذلك من ما يسميه "الغيب غير المخلوق" (وهو حق الحق الذى بلا اسم أو صفة)، فيتنزل إلى الروحى والخيالى والحسى ثم فى النهاية البشرى. انظر:

W. G. Chittick, "The Five Divine Presences: al Qunawi to al-Qayseri" in *Muslim World* 72: 2, 1982. pp. 106-128.

(٥٩) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 12; *L'Écriture*, p. 24

(٦٠) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 203/ *Futuhāt* II. 523.2

(٦١) *The Bezels of Wisdom*, p. 75; *Fusus al-Hikem*, p. 70.

(٦٢) H. A. Wolfson, *The Philosophers of the Kalam*, Massachusetts: Harvard University Press, 1976, p. 587.

(٦٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 165/ *Futuhāt* II.281.15.

(٦٤) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 50, *De la grammatologie*, p. 73

(٦٥) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 4, *L'Écriture*, p. 11.

(٦٦) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 19.

(٦٧) Ibid., p. 15

(٦٨) Ibid., p. 16.

(٦٩) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 16, *L'Écriture*, p. 29.

(٧٠) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 26.

(٧١) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 13, *L'Écriture*, p. 24.

(٧٢) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 5.

(٧٣) Ibid., p. 14.

(٧٤) غير أن دريدا حريص فى مقاله عن فرويد على التحذير من هذا التشابه، فيقول: "على الرغم من وجود تشابهات سطحية، فإن تفكيك نزعة مركزية اللوغوس ليس تحليلاً نفسياً للفلسفة"، انظر: Ibid., p. 196

(٧٥) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 8; *De la grammatologie*, p. 17.

(٧٦) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 27.

(٧٧) Ibid., pp. 29-30, 43, 71.

(٧٨) See the opening pages of John D. Caputo's *Radical Hermeneutics: Repetition, Deconstruction and the Hermeneutic Project*, Bloomington: Indiana University press, 1987.

(٧٩) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 41.

(٨٠) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 130; *De la grammatologie*, p. 190.

(٨١) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 37, *De la grammatologie*, p. 55.

- (٨٢) Jacques Derrida, *Margins of philosophy*, p. 3, *Marges de la Philosophie*, p. 3.
- (٨٣) The Original Discussion of “La Différance” in David Wood, *Derrida and Difference*, Coventry: Parousia Press, 1988, p. 184.
- (٨٤) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 6, *Marges de la Philosophie*, p. 6.
- (٨٥) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 11; *Marges de la Philosophie*, p. 12.
- (٨٦) Caputo, *The Prayers and Tears of Jacques Derrida*, p. 7.
- (٨٧) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 78; *L’Ecriture*. p. 116.
- (٨٨) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 26, *Marges de la Philosophie*, p. 28.
- (٨٩) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 26, *Marges de la Philosophie*, p. 28.
- (٩٠) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 73/ *Futuhāt* II.499.7.
- (٩١) بخصوص فهم إجمالي عن السجل الإسلامي حول صفات الله، انظر:
Wolfson on Al-Ash ‘ari in Wolfson, *Philosophers of the Kalam*, p. 16.
- (٩٢) W. G. Chittick, *Sufi Path* p. 345/ *Futuhāt* II.472..35.
- (٩٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 231/ *Futuhāt* IV. 19.22.
- (٩٤) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 230/ *Futuhāt* IV.105.3.
- (٩٥) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 6.
- (٩٦) Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 21, *Marges de la Philosophie*, p. 22.
- (٩٧) *Margins of Philosophy*, p. 3.
- (٩٨) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 110/ *Futuhāt* II.483.7.
- (٩٩) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 164/ *Futuhāt* II.648.7.
- (١٠٠) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 6.
- (١٠١) *Ibid.*, p. 5.
- (١٠٢) I. Harvey, *Derrida and the Economy of Différance*, Bloomington: Indiana University Press, 1986, p. 23.
- (١٠٣) *Margins of Philosophy*, p. 4, *Marges de la Philosophie*, p. 4- Italics mine.
- (١٠٤) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 62/ *Futuhāt* I. 160.4.
- (١٠٥) See W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 182/ *Futuhāt* II. 502.21.
- (١٠٦) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 11.

- (١٠٧) Ibid.
- (١٠٨) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 157.
- (١٠٩) Ibid., p. 163.
- (١١٠) Ibid., p. 164.
- (١١١) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 13, *Marges de la Philosophie*, p. 13.
- (١١٢) *Margins of Philosophy*, p. 12, *Marges de la Philosophie*, p. 13.
- (١١٣) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 3.
- (١١٤) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 33.
- (١١٥) Rodolphe Gasché, *The Tain of the Mirror*, Cambridge: Harvard University Press, 1986, p. 6.
- (١١٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 231/ *Futuhāt* IV.105.3; IV.18.32.
- (١١٧) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 50.
- (١١٨) *The Bezels of Wisdom*, p. 65; *Fusus al-Hikem*, p. 71.
- (١١٩) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 215/*Futuhāt* III. 116.18.
- (١٢٠) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 5.
- (١٢١) Ibid., p. 4.
- (١٢٢) Ibid., p. 22.

الفصل الثانی

إخلاص الحیاری

ابن عربی ودريدا في مقام "الببلبة"

أرتاب في واضعي الأنظمة جميعهم
وأجنبهم. فإرادة النظام تعنى عدم
الاستقامة (نيتشه، *أقول الأصنام*)^(١).

اللهم زدنى فيك تحيراً! (ابن عربى،
فصوص الحكم)^(٢).

تعنى الببلبة to confuse، من الناحية المعجمية، تدفق الأشياء وسيلانها معاً، أى إزالة الحدود والتخوم والفروق التى تنفصل الأشياء بمقتضاها عن بعضها البعض إلى صنوف فتوجد بينها اختلافات. وأن تصيبنا الحيرة أو الببلبة فهذا معناه أننا لم نعد بقادرين على معرفة إن كان هذا الشيء هو نفسه أم هو شيء آخر، ولم نعد متيقنين من ماهيات الأشياء من حولنا ومعانيها، فنرى الشيء المؤلف لنا وقد صار بعتةً أمام أعيننا إلى شيء غير المؤلف.

وتقع الببلبة Confusion حين ندرك أن ملكاتنا العقلية ليست كافية لفهم ما يحدث؛ أن أمراً ما قد حدث تعجز ملكاتنا العقلية عن الحديث عنه باللغة. وبمعنى ما، تحدث الببلبة بسبب عقلانيتنا، إذ نتعلق بأمر يُعْمِننا عن "الموقف الحقيقى"، ونصر عليه. وأتناول فى هذا الفصل بالتحليل رغبةً الفكر الصوفى والتفكيكى - على السواء - فى الببلبة، وإدراكه بأن الحيرة أخلص سبيل إلى الحقيقة. ولعل

كلمات من قبيل confusion (=البليلة) و bewilderment (=الحيرة)^(*) تمكنا من لمح التشابه أو التماثل بين طريقتي تفكير ابن عربي ودريدا، أي تماثلهما في إثبات الحيرة أو البليلة بوصفها حالة مرغوبًا فيها، وبوصفها حالة جسورة وعسيرة.

ويبدو أن ابن عربي ودريدا لا يخشيان البليلة أو أن تصيبهما الحيرة. وسواء كان يتعلق الأمر بالمدائمة على "تفجير الآفاق الدلالية" التي تُشتت النص⁽²⁾، أو الهداية التي تعنى "الاهتداء إلى الحيرة"⁽⁴⁾، أو "تقبل التفكك المشوّش"⁽⁵⁾، أو الله الذي يوجد في كل مكان ولا يوجد في أي مكان - فإن دريدا وابن عربي لا ينظران إلى البليلة والحيرة نظرة التراث الفلسفي والقرآني الذي يُرادف الحيرة أو البليلة بالخطأ والسقوط والباطل والخطيئة.

كان يُنظر إلى الحيرة في الغرب - نظرًا دائمًا تقريبًا - بوصفها "مشكلة" الفلسفة. ويلخص فتجنشتين Wittgenstein هذه النظرة على الوجه الأكمل بقوله: "يشق الفيلسوف طريقه في المجهل، صارخًا بلا عون، إلى أن يسقط في قلب حيرته"⁽⁶⁾. فالخوف من الوقوع في حبال البليلة والحيرة والشك كان على الدوام القوة التي دفعت معظم المشروعات الفلسفية سواء عند اسبينوزا Spinoza الراغب في فهم جوهر السلوك الإنساني، أو عند ديكارت Descartes بمشروعه في تجاوز قلق الشك. وكذلك الحال في الفكر الإسلامي، فالوضع السلبي يعني عدم القدرة على فهم إرادة الله، أو يعني توابع الإحجام عن ذلك؛ حيث من المعتاد أن توصف حالات التردى العقلي أو الروحي بأنها حالة "حيرة". وقد عانى هذا الضرب من الحيرة عين القضاة الهمذاني قبل أن يقرأ الغزالي في نهاية المطاف: "كان قلبي بحرًا هائجًا بلا شطآن، غرقت فيه كل النهايات وكل البدايات"⁽⁷⁾. وفي مقدمة فسي

(*) تعنى كلمة confusion معجميًا: البليلة أو الاضطراب أو الخلط أو التشويش أو الالتباس والضلال. وتعنى كلمة bewilderment: الحيرة أو الانذهال أو الارتباك أو البليلة. وسوف أنتقى من هذه الإفادات الدلالية تعبيرى "الحيرة" و"البليلة" فأروح بينهما مقابلًا للكلمتين، مع الوضع في الحسبان بقية الإفادات الدلالية - المترجم.

أصول التفسير يقول ابن تيمية إن النبي قد أرسل ليشرح بوضوح (ويبين) كل شيء نحتاج إلى بيانه^(٨). وإن سلمنا جدلاً بهذه الفرضية، لن تكون الحيرة في الإسلام إلا حالة سلبية، يسقط فيها من لا يقدر على الفهم أو لا يريد. فإله يهدي الصالحين، ويضل الظالمين، يُسْتَت من يرفض رُشدَه فيتبع سبيل الشر، بل ويهلكه. غير أن ابن عربي يستغل "الحيرة" بما هي عنصر قرآني متكرر (ناهيك عن أنه توراتي)، فيعطيها معنى إيجابياً، إلى درجة أنه يجعل من البلبلة أو الحيرة عطاءً إلهياً. ولا يشهد ذلك على أصالة الشيخ الجسورة وكفى، بل يدل أيضاً على مدى استعداده لتفسير آيات معروفة من القرآن تفسيراً جديداً جذرياً كما فعل مع سورة نوح. وكما سوف نرى، تضع هذه التفسير الجديدة موضع السؤال بعض المزامع المعروفة التي تدعى أن ابن عربي "تقليدي" و"سلفي"، وهي مزامع تحتل موقعاً مركزياً في مسار الفكر الإسلامي^(٩).

ابن عربي ودريدا: عشاق وضوح أم بلبلة؟

لا تكتفى أعمال ابن عربي بالإعلاء من قيمة الحيرة، بل تقع هي نفسها في أحابيل الحيرة والبلبلة. ولا يتفق كل الباحثين على ذلك بالطبع؛ فالدراسات المتاحة عن الشيخ الأكبر تنقسم إلى قسمين فيما يتعلق بمسألة الوحدة والترابط المنطقي في أعماله. ولعل أبا العلا عفيفي كان أول النقاد الناطقين بالإنجليزية ممن أدركوا بوضوح أنه لا توجد "صيغة ملموسة من الترابط أو النظام" في كتابات الشيخ الأكبر^(٩)، بل مجرد أسلوب "مبعثر، استطرادي، يفتقر إلى الشكل والتماسك افتقاراً واضحاً"^(١٠). وثمة باحثون أحدث عهداً وأكثر تعاطفاً - إلى حد ما - يرون في

(٩) إن القول بتقليدية ابن عربي وسلفيته لا يعدُّ قولاً مركزياً في مسار الفكر الإسلامي على نحو ما أوهمت أو غالت عبارة الموند مستنداً في ذلك إلى محمود الغراب؛ فالعكس هو الصحيح، أي أن القول المركزي حقاً في الفكر الإسلامي يذهب إلى اتهام ابن عربي بالهرطقة والخروج عن الإسلام القويم على الرغم من محاولات الغراب التي بذلها مؤخراً - المترجم.

أعمال ابن عربي (ولنستخدم كلمات صوفية) ساحة بلبلية وتحير، ففيمًا يقول مصطفى طاهرلى: "لا تُراعَى مبادئ الخطاب العامة وعلى الأخص مبدأ عدم التناقض" فى مواضع من كتابه *فصوص الحكيم*، "ومن الطبيعى تمامًا أن يصاب [القارئ] بالحيرة" حين يطالعه^(١١). أما ألكسندر كنيش Alexander Knysh فيرى أن مضمون الحيرة يتخلل كل أعمال الشيخ الأكبر التى "تتصدى لشروح ميتافيزيقية ولاهوتية متضاربة"^(١٢). ومن جهة أخرى، ثمة باحثون أكثر شغفًا برؤية الجانب "السلفى" عند ابن عربي- من أمثال محمود الغراب- يؤكدون أن الشراح هم المسئولون عن أية بلبلية تحيط بعبارات الشيخ الأكبر وأقواله^(١٣). وعلى عكس المفكر المتحير المتناقض الذى يراه عفيفى، يمثل ابن عربي عند الغراب "مرآة محمدية تعكس الوضوح الأكبر والتماثل والاستقامة"^(١٤).

ثمة هوة ماثلة تفصل قراء دريدا الذين يرون فيه صاحب النسق والغاية النسقية، عن الذين يستشعرون أن إصابة الأنساق ببلبلية غير نسقية هى على وجه التحديد هدف دريدا. ومن الممكن أن يتواجد المعجبون بأعمال دريدا والقادحون فيها ضمن الفئة الثانية: بدءًا من حملة هابرماس Habermas المشهورة حين ازدرى ما أسماه "شعوذة صريحة فى الباثولوجيا الاجتماعية"^(١٥)، إلى مارك س. تايلور Mark C. Taylor الذى يرى أن القراءات التفكيكية ناجمة عن "لعبة أسطح لا نهاية لها"^(١٦). وبينما يتهم جون إليس Jhon Ellis دريدا بـ "الغموض" والتناقض الذاتى وعدم الترابط المنطقى بوجه عام، يبتهج ريتشارد رورتى Richard Rorty بأن يجد فيلسوفًا لم يعد "جادًا" (بمعنى الكلمة فى السياق الأنجلوسكسونى)؛ مفكرًا أسقط بكل بساطة "النظرية... لصالح فانتازيا يمارسها مع أسلافه (الفلسفيين)، يلعب معهم فيها"^(١٧).

طبقًا لهؤلاء النقاد، لا يدع دريدا الفلسفة تنعم بالسلام، بل يصيبها بالبلبلية والحيرة. وتأتى المعارضة الكبرى للاتجاه الذى يتهم دريدا بالفوضوية من جهة معجبيه (كلر Culler، جاشيه Gasche، نوريس Norris) ممن يرون دريدا- بمعزل

عن أى شطط ما بعد بنوي- فيلسوفاً جاداً "في مسيرة التراث الفلسفى بدءاً من كانط Kant إلى هوسرل Husserl وفريجه Frege" (نوريس)^(١٨). وفيما يرى جاشيه، لا ينطوى التفكير على تسمية أو حيرة وبلبلّة، بل ينطوى على شرح؛ فالتفكير يحاول "تعليل" التنوع غير المتجانس... والتفاوتات المنطقية... التى تطرأ دومًا على الحجج الفلسفية حتى وإن كانت هذه الحجج تتنامى بنجاح"^(١٩). وبكلمات أخرى، لو استخدمنا استعارة فتحششتين، يرشد دريدا الذبابة المحبوسة فى زجاجة إلى طريق الخروج. وهكذا، يتولى التفكير الإيضاح، ويلقى الضوء على الأمور الغامضة حتى تتقشع الحيرة والبلبلّة، ثم يفرز مشكلات الفلسفة ويُعيدها إلى جادة الصواب.

وما دام الغرض الأساسى من هذا الفصل إيضاح القيمة الإيجابية التى يعطيها التصوفُ والتفكيرُ الحيرةَ والبلبلّةَ، فلا ريب أننا فى غضون التحليل سنعارض ما يقوله محمود الغراب عن ابن عربى وما يقوله جاشيه عن دريدا. وفى حالة ابن عربى، يذهب مصطفى طاهرلى إلى شوط أبعد فيفترض أن المفارقات والتناقضات فى كتاب **فصوص الحكم** جزء من استراتيجية روحية أكبر؛ إذ من خلال استثارة حالة من الحيرة والبلبلّة فى نفس القارئ يبدأ كتاب **فصوص الحكم** عمليةً طويلةً يفصل بها القارئ عن ارتكازه إلى العقلانية والمنطق^(٢٠). وبمعنى ما، فأسلوب **فصوص الحكم** الذى يثير البلبلّة يُعدّ- بحد ذاته- وقفة تمهيدية على الطريق إلى مزيد من الحيرة المقدسة: الحيرة الملازمة لأية معرفة بالله.

يكتب ويليام شينتيك William Chittick- تقريباً- فى بداية كتابه عن ابن عربى: "العثور على الله يعنى الوقوع فى الحيرة والبلبلّة"^(٢١). وما من عبارة غير هذه، تلخص بدقة متناهية الموقف الصوفى من الحيرة. فعلى طول كتابي **الفتوحات المكية** و **فصوص الحكم**، يستخدم ابن عربى مجموعة متنوعة من الاستعارات للتعبير عن الحيرة والبلبلّة. فالحيرة- كما قلنا- وقفة، عطاء، تسمية مقدسة، أداة، معرفة، وهى فى نهاية المطاف "موقف حقيقى"- فيما يظن المرء- يقوِّض كل شىء نعتقد أننا نعرفه. يقول أبو بكر^(٢٢): "العجزُ عن درك الإدراك إدراك"، ولا يملّ ابن

عربي من الاستشهاد بهذا القول الذي يُعدُّ وثيقة تنازل سقراطي. ومن ثم، تتبع رؤية ابن عربي الإيجابية جذريًا للحيرة والبلبلية نوعًا مباشرًا عن امتناع الله على التصور امتناعًا جذريًا كذلك.

ولذا، حين يستشهد ابن عربي بحديث "اللهم زدني فيك تحيرًا"^(٢٣) (كما يفعل مرارًا وتكرارًا) فما يطلبه في واقع الحال هو: اللهم أصبِّ بالحيرة والذهول الحدودَ البسيطة التي حاولتُ حبسك فيها. وهكذا، تغدو البلبلية والحيرة الطريقَ الأمثل الذي يسير فيه المؤمن حتى يتجنب الشرك الميتافيزيقي الكامن في منظوره الخاص الذي ينظرُ به الله؛ ولا يتحقق ذلك بتقديم معرفة لغوية إضافية (اسم أو علامة سرّية)، بل يتحقق - على الأصح - بإيقاع الحيرة في نفس المؤمن بكثرة متنوعة من تجليات الله المختلفة؛ بعضها معروف متواتر، وبعضها مبتدع هرطقي، بعضها تشبيهي محايت بشكل حميم، وبعضها تنزيهي بعيد متعال. ولعل ما يثير الانزعاجَ الجمعَ المحير بين هذا العدد الضخم من الصور المختلفة؛ فيبدأ المرء - بداية حقيقية - في فهم أن "الألوهية الحقّة لا يحدّها حد ولا يقيدّها قيد، فهي مكنونة غير معروفة"^(٢٤). وما كثرة العقائد واختلافها - فيما يرى ابن عربي - إلا برهان امتناع الله على التصور امتناعًا مطلقًا. وهذه الطريقة في فهم وجود الله من خلال ما تحدّثه صورُهُ المتناقضة من تحير وبلبلية لها أصل بعيد نسبيًا، يرجع - على أقل تقدير - إلى اللاهوتيين الأوائل في عهد الكنيسة الباكر ممن ينفون الصفات؛ الأمر الذي يوضح الإمكانيات السلبية النافية apophatic عند ابن عربي بوصفه عالم لاهوت سلبي، مما يجعله يندرج تحت انتقاد دريدا التعريف بالسلب.

ولعل ديونيسيوس الأريوباجي المنتحل Dionysius يقدم - في القرن السادس - المثل الأكثر ذبوعًا في علم اللاهوت السلبي، ومفاده أن الأبنية المشيئة حول الله على اختلافها - وهي أبنية يمكن فكّها في الحال - تتطوى بشكل أفضل من غيرها على إحساس بعدم القدرة على وصف الله. وفي لحظات بعينها من كتابيه اللاهوت الصوفي *The Mystical Theology* والدرجات السماوية *The*

Celestial Hierarchy، يقول ديونيسيوس قولاً لافتاً مؤداه أن مناجاة الله التمثل أو الجوعان أليق من مناجاة الله الطيب أو الحكيم^(٢٥)، فـ"التفاوتات الغريبة" تجعلنا أكثر وعياً بأخرية الله التي لا يمكن إدراكها من الصفات المتناهية من قبيل "القادر" و"العليم". وطبقاً للأريوباجي، فإن مناجاة الله باسمه "القادر" و"الصبور" و"الحكيم" و"التمل" في آن معاً أكثر دقة في الإشارة إلى ما يدعوه أحد النقاد "لغة تنسخ حقيقة الله"^(٢٦). ويستعمل ديونيسيوس استعمالاً واعياً تراكيب متناقضة يصف بها الآخر الإلهي ليعبر تعبيراً واقعياً وافياً عن امتناع الله على التصور امتناعاً مطلقاً. إن بناء اختراعات عديدة عن الله وفكها، وهي العملية التي يقوم بها اللاهوت الإيجابي الإثباتي affirmative theology، يقدم استراتيجية سلبية نافية Apophatic مهمة. ويقترح ديونيسيوس محاولة فهم انعدام تصور الله في صورة من خلال ضمّ الصور المتعارضة بعضها إلى بعض بدلاً من استبعاد الصور كلية^(*).

وعند دريدا، نجد نسخة علمانية من الاستراتيجية نفسها؛ إذ ينطوى فهم الآخر على "انفتاح مطلق على الآخر في تمامه"، من خلال مقاطعة دائمة constant interruption وفضاً متكرراً لروايات الآخر التي تُشيدُها الذات لنفسها. فالمقاطعة الدائمة تعني تقلباً ضرورياً يهيئ شروط لمح آخرة الآخر من خلال بقايا أنقاض أبنية الذات الخاصة:

(*) هو ديونيسيوس الأريوباجي المعروف بالمنتحل؛ لأنه انتحل شخصية ذلك الرجل الأثيني الذي اعتنق المسيحية على يد القديس بولس في القرن الأول الميلادي ومات شهيداً. هذا الكاتب المنتحل الذي أخفى اسمه هو مؤلف الأعمال المنحولة المنسوبة إلى ديونيسيوس؛ غير أنه قد بذل مجهوداً خارقاً في إضفاء الروح المسيحية على الفلسفة الأفلاطونية المحدثة فاستحق أن تخلده كتب الفلسفة التي تتناول العصر الوسيط. يصور كتابه *الدرجات السماوية* مجموع درجات الوساطة التي تحقق - في إطار الصدور - التحول المتعدد المنظم الذي ينتهي بكل كائن إلى الله (الأمر الذي يحقق ربانية المخلوق على المستوى الرمزي). أما كتابه *اللاهوت الصوفي* فيصف فيه الاتحاد بالله الذي يتجاوز كل إدراك عقلي - المترجم.

بمقاطعة نسيج لغتنا، ثم من خلال نسيج المقاطعات جميعها، تأتي لغة أخرى تُقلِّقُ اللغة الأولى... فيصل النصُّ الآخرُ، ونصُّ الآخرِ، فى صمت، بإيقاع منظم تقريباً، دون أن يظهر أبداً فى لغته الأصلية، ليزيح لغة الترجمة^(٢٧).

يعمل الآخر فى تمامه **tout autre** عمل نص تحتى لا تطوله أيدينا البتة؛ فهو يتراجع دوماً أمام كل تفسيراتنا وفى الوقت نفسه يمثل شرط إمكان هذه التفسيرات، وهنا تكمن المفارقة. فعبّر إبداع كل تصوراتنا عن الآخر وهدمها، تهيئ لنا مقاطعة الآخر الدائمة لمح دنيوية ما وراء الوجود الظاهر: "فى اللحظة التى ينطلق فيها الإبداع، لا بد وأن يفيض فيُطلّ على غير نفسه، ينتهك وينفى... وقد أراد الناس تقنين هذه الحالة أو ترخيصها سلفاً"^(٢٨). وبهذه المألوف يمكن إدراك غرابة الغريب دون حاجة إلى أفق توقع. وأين ذلك كله من اختلاف تجليات الله عند ابن عربى اختلافاً إشكالياً عسيراً! فإن كان دريدا يرى العلاقة الأصلية بالآخر اضطرارياً حتمياً متواصلًا؛ مما يفسر الحيرة التى من خلالها يتمكن المرء من لمح آخريّة الآخر، فمن الممكن وصف نهج ابن عربى وصفاً جديداً بأنه تشظية مستمرة لأبنيتنا التى نشيدها حول الله، وبأنه ثورة ضرورية على المعتقدات التقليدية؛ فيتمكن المرء من لمح "ألوهية" الله لمحا مباشراً دون وساطة.

ومع أن ابن عربى يسهب نوعاً ما فى بيان أن "المعرفة بالله حيرة ومعرفة الخلق حيرة"^(٢٩)، فثمة لحظات فى كتابيه *الفتوحات المكية* و*فصوص الحکم* تُسائلُ فكرة الحيرة من حيث هى الموقف الصوفى الأخير فى رحلة المؤمن؛ فالحيرة أو البلبلة- بمعزل عن كونها جوهر الأشياء- يصفها الشيخ الأكبر بأنها تمهيد مؤقت يتسم بالتوتر إلى لحظة التنوير (درجة العارف المحقق)، وليست ضرباً من المعرفة فى حد ذاتها. وفى ثنايا مناقشة عن "تنزيه الحق" الذى هو فى الوقت نفسه "على صلة بالخلق"^(٣٠)، يكتب ابن عربى أن "مَنْ يفهم قولنا حقاً لا يتحير؛ مما يعنى أن مَنْ يتحير لا يفهم فهماً حقيقياً. ومن ثم، يُعدُّ الفهم- وليس التحير أو البلبلة-

الموقف الأخير الذى نعانيه قبل ملاقاته الله. هذا الاعتقاد بأن الرغبة فى معرفة الله تنتهى- على المستوى المعرفى- بلحظة السكينة لا الاضطراب يتأكد أكثر مع نهاية الفصل اللوطينى:

فقد بان لك السر وقد اتضح الأمر
وقد أدرج فى الشفع الذى قيل هو الوتر^(٣١)

ويمكن صياغة المعضلة على النحو الآتى: أى المفردات لها الكلمة الأخيرة عند ابن عربى؟ أتلك التى ترى الله حالة من الحيرة أو البلبلة الأزلية المقدسة تذيب الاختلاف؟ أم تلك التى تقود المؤمن لا إلى الحيرة وإنما عبرها نحو شىء لا يوصف؛ ألا وهو "السر" الذى يذكره ابن عربى كثيراً؟ هل الله هو الحيرة نفسها أم هو - على الأصح- أمر يقع على الناحية الأخرى من أية حيرة تصيبنا؟

لعل هذا السؤال وثيق الصلة بموضوع المقارنة، على الأقل بالنسبة إلى القراء الملمين بدريدا (وبصفة خاصة أعماله المعنية بعلم اللاهوت السلبي). لأنه إن كان يمكننا العثور على لحظة الحضور الذاتى الموهوب فى أى موضع من أعمال ابن عربى- وإن كان يمكن عزو الكلمة "المتحركة لوغوسياً" إليه على أية حال- فذلك يتوقف على تصورهِ عن الله. وطبقاً لدريدا، تضطلع كل أشكال اللاهوت السلبي- الإسلامى أو المسيحى، اليونانى أو اليهودى- بالإيماءة نفسها اضطلاعاً جوهرياً؛ إذ من خلال إنكار صفات الله تتخلى هذه الأشكال عن قشرة الله الميتافيزيقية سعياً إلى لقاء جذرى حقيقى مع الله. ولذا، فهذه الاستراتيجيات السلبية النافية ليست تفكيكية وإنما هى استراتيجيات إرجائية فحسب. ومع أن أشكال اللاهوت السلبي هذه، تتميز- فيما يؤكد دريدا- بالجسار- بطرائقها فى النفسى وتقويض النفسى وأنماط التفكيك التلقائى- فهى لا تزال ميتافيزيقية فى نهاية الأمر؛ إذ تستبقى "على سبيل الاحتياط... جوهرانية ما تتسم بالعلو"، فتعيد من خلال هذه الجوهرانية إثبات المنطق الأنطولاهوتى^(٣٢). أما وإن كان الله هو الحيرة نفسها، فلا

يمكن اتهام الشيخ الأكبر ببساطة بأنه يؤيد فكرة الله الميتافيزيقية الأنطولوجية؛ وهي "الجوهريّة العالية" التي يتهم بها دريدا كلاً من العلامة إيكهارت وديونيسيوس الأريوباجي المنتحل بالرُسُوّ عندها والخلوص إليها. ولو اكتفى ابن عربي بتحديد سلسلة من الخطوات (والحيرة أو البلبلّة واحدة منها) تقودنا، في نهاية المطاف، إلى سرّ مقدس ما، فهو بذلك لا يسائل تصور الله مسائلة جذرية بل يؤجله فحسب، فيرجئ معناه الوشيك ليس إلا.

وإذن، فما تصور الله عند ابن عربي في التحليل الأخير: أهو حيرة أم وضوح؟ وما دام كتاب **فصوص الحكم** يعطى إجابتين مختلفتين عن هذا السؤال- فالفصّان النوحى والمحمدى يقترحان الحيرة، أما الفصّان الإدريسى والهؤدى فيقترحان الوضوح- فلعل بعض العون يأتينا من عبد الرحمن جامى شارح ابن عربي فى القرن الخامس عشر^(٣٣). يميز جامى تمييزاً أساسياً بين ثلاثة أنواع من الحيرة فى الفص الختامى من كتاب **فصوص الحكم**؛ ألا وهو الفصّ المحمدى، النوع الأول هو "حيرة المبتدئين"^(٣٤). ويقول جامى إن هذه الحيرة "عامّة" يستشعرها معظم المؤمنين؛ فقلق هؤلاء قلق من يبحثون عن معنى لكنهم بلا اعتقاد أو طريق يسافرون فيه. وتزول حالة الحيرة الأولى هذه بـ"تحديد الطلب"^(٣٥). وأما "السواد الأعظم" من الناس فيقودهم ذلك إلى السكينة. ويبدأ بعضهم فى معاناة المرحلة الثانية من الحيرة حين ينظرون حولهم فيرون المؤمنين قد "انقسموا إلى شيع كثيرة"؛ "فيتحير [المؤمن] ولا يعرف أىّ الاعتقادات فى الحق هو الصحيح". وتزول هذه الحيرة أو البلبلّة حين "يعدم [المعتقد] الرغبة فى الحضور الإلهى من وجه خاص أو نظر"^(٣٦). أما بعد التخلّى عن المذاهب والمنظورات فننتقل إلى المرحلة الثالثة التى ينتسب إليها من يسميهم جامى "أهل الحيرة الأخيرة". فهذه هى المحطة التى يحطّ عندها "الأقطاب الروحيون الأعظم" رحالهم فلا يتجاوزونها، "فهم يرتقون فيها دوماً وأبداً". وبعد مرور قرنين على تأليف **فصوص الحكم**، لا

يرى جامى فى الحيرة عند سلفه ابن عربى جسراً مؤقتاً إلى حل نهائى واضح، بل يراها أرضاً غريبة تقع وراء الله يهيم فيها العارفون حقاً على وجوههم فى كل جهة يشعرون بالانسجام فيها. "فيدخلون صحراء بلا دروب يضطرم إليها تأمل الحق، فحيرتهم منه وعبره وفيه"^(٣٧).

تلقى تعليقاتُ عبد الرحمن جامى الضوء على ثلاثة وجوه مهمة من "الحيرة" عند الشيخ الأكبر؛ وهى وجوه سنلقى بظلالها- كما سوف نرى- على مقارنته بدريدا. أولاً، توجد أنواع مختلفة من الحيرة، وأنماط مختلفة من اللبلة يصادفها المؤمن. وفى بعض الحالات، تُعدُّ محاولة تجاوز الحيرة ضرورة روحية، وفى البعض الآخر، تتم عن عدم الفطنة، بل ولا طائل من ورائها. ثانياً، يرى جامى بوضوح (ودون أى انتقاد) نوعاً من النخبوبة عند الشيخ الأكبر؛ فالحيرة ليست متاحة لأى مؤمن. فبعض المؤمنين من ذوى الأرواح الخفيفة يتمكونون من مواصلة السعى فى حيرة دائمة، أما السواد الأعظم منهم فيؤقفون "الحيرة الأخيرة" حتى يلوذوا بمشكاة الوجود فوراً (ويسميهام جامى أهل الوقف)^(٣٨). وعلى وجه التقريب، يمكن أن نرى بوضوح ترابنية الحيرة هنا، مع ملاحظة أن الحيرة ممكنة بضرب من اللامعرفة وليس المعرفة. فمن يمكنون فى القاع لديهم أفكار أوضح عن الله، أما الذين اقتربوا من القمة فهم الأشد تحيراً، هم الأقرب إلى سرِّ الله الممتع على التصور امتناعاً يصيب العقل بالدوار. ثالثاً، "الحيرة الأخيرة" التى يشير إليها جامى تجعلنا نعجب من أن الغاية الحقيقية من كتاب ابن عربى ليست مزيداً من الحيرة بل إيقاف الحيرة؛ فالحيرة الحقيقية ليست الزيادة فى الحيرة بل على الأصح تقبلاً مطمئناً للتوقف، وربما ابتهاجاً بلحظة التوقف. وبطبيعة الحال، فما أقرب هذا "الابتهاج" من "إيجابية لعبة العالم المرحلة... عند نيته"^(٣٩) التى نطالعها فى الفقرات الختامية المعروفة من مقال دريدا "البنية والعلامة واللعب".

التفكيك: عَقْدٌ محلولةٌ وأنساقٌ مُعَطَّلةٌ

قد نفهم ضمناً من كلمة "تفكيك" deconstruction الدلالة على أمر سلبي؛ مع أن دريدا كان قد اقترح في موضع آخر كلمة "هدم" de-structuration (ترجمةً لكلمة هيدجر Destruction^(*)) بوصفها الأدق في نقل معنى مصطلح هيدجر^(٤٠). وحقيقة الأمر أن مجموعة الصور المتنوعة التي يستكمل بها دريدا وصفاً مضامين الاختلاف المرجئ différence والتشتيت dissemination تثير الحيرة بحد ذاتها: الاختلاف المرجئ فوضوي، فهو "يحرّض على تخريب أية مملكة"^(٤١)، و"يفلت من البنية... فلا تنتظمه بنية"^(٤٢)، إنه "يقلق مرّسى" النص، و"يمزقه"^(٤٣)، و"يدحض الأفق الدلالي" لموضوعه^(٤٤). وتقدم هذه التعابير أمثلة على إتيولوجيا الحيرة التي تتطوى على مفارقة، بما تحمله من معنى التقارب والتباعد في آن. الحيرة أو البلبلة confusion كلمة تعني حرفياً "انصهار الأشياء"، لكننا في الغالب نستخدمها بمعنى عكسي، لنصف موقفاً تحدث فيه أشياء كثيرة في وقت واحد. والاختلاف المرجئ يخلط الأشياء بعضها ببعض ويجعلها متشابهة، فيفتت تعقدها، ويفكك تراكيبها، ويجرد بنياتها إلى عناصرها المتنوعة التي تتألف منها. وفي الوقت نفسه، يجعل النصّ عسيراً على القراءة، إذ يُعَطِّلُ معناه الأوّلي ليطلق عقال معانيه الثانوية الوفيرة، فيجرد النص من دفته الدلالية على نحو لم يعد يمكن معه القول إن النص يبحر في اتجاه بعينه.

ومن ثم، يتأكد أن الاختلاف المرجئ يفكك النصّ ويمزقه ويمزّعه، الأمر الذي يستدعي بشكل واضح أصول كلمة "نص" text (التي تعود إلى الكلمة اللاتينية Textus الدالة على النسيج). النص نسيج يهدده الاختلاف المرجئ دوماً بالتمزيق.

(*) يقال إن مصطلح هيدجر destruction يرجع إلى مصطلح أطلقه لوثر ألا وهو destructo ويعنى به تنفيذ نظريات اللاهوت التي تحتل الصدارة وتحجب الرسالة الإنجيلية الأصلية، كذا صنع هيدجر حين قام بتنفيذ المسار الفلسفي اليوناني الغربي الزاعم أنه يتكلم عن الوجود وهو في حقيقة أمره ما تكلم سوى عن الموجود؛ فحجب الوجود، وهو الأصل - المترجم.

و"التشيت يسْلُ خيطاً من نسيج الكتابة فلا ينفع معها الرتق بعد الآن..."^(٤٥). وما من عمل يمكنه الإفلات من هذا السلِّ، فهو محايث فيه، وهو إمكان حاضر دوماً لتمزيق العمل تمزيقاً كاملاً. ولعله من المهم في هذا السياق ملاحظة أن المصطلح العربي الذي يستخدمه ابن عربي للتعبير عن "الإيمان" هو الاعتقاد والعقيدة، الذي يرجع جذره إلى معنى انعقاد العقدة أو إلى ربط شيء ربطاً محكماً^(٤٦). ولذا، فحين يقول ابن عربي إن "كل فرقة اعتقدت شيئاً عن الله"، فهو يعنى أن "كل فرقة عقدت عقدة على الله"^(٤٧). أما الله الذي يمتنع على التصور، والذي يثير بامتناعه هذا الحيرة، فلا تتعد عليه أية عقدة، حاله في ذلك من حال حركة الاختلاف المرجئ التي لا تتدرج في أي تصور فتفكك كل نص وتُمرّعه.

ومع تنوع الاستعارات التي يقدمها دريدا للتعبير عن الاختلاف المرجئ والتشيت، ينبغى ألا ننسى أن دريدا- بمعزل عن فعل إيقاع الحيرة والبلبلّة بالنص- يبيّن ببساطة أن النص، بحد ذاته، ساقط في أحابيل الحيرة والبلبلّة سقوطاً فعلياً. فالتفكيك عملية استكشافية وليست تحفيزية؛ نظراً لأن "سير النص على غير هدى حال جوهرى فيه"^(٤٨) يسبق أي تدخل نظري؛ فالنصوص تتجول دوماً على غير هدى^(٤٩). وإن كان التفكيك يُوقع الفوضى بالنص، فهو لا يُوقعها إلا بإلقاء الضوء على عناصر متمردة فيه، مضطربة دائماً، وتوآفة إلى الظهور، تغلّي على أهبة الفوران تحت مظهر الوحدة والتماسك البادى مطمئناً. إن الاضطراب وعدم الاستقرار شرط سابق في أي نص، بصرف النظر عن ما إذا كان النص تمّ تحليله أم لا. وبالطريقة نفسها، فكنه الله الذي يثير الحيرة سابق على أية محاولة للحديث عنه حديثاً ذا معنى سواء عند الأشاعرة أو المعتزلة؛ "الله أصل أي خلاف بين

(٤٥) إن ملاحظة ألموند هنا جوهرية؛ ومعناها أننا نتعلم التفكيك واستراتيجياته من النص عموماً- ومن النص الأدبي على وجه الخصوص- فليس التفكيك فرضاً منهجياً مفروضاً على النص، وإنما حركة النص ذاته هي التفكيك. هذا هو معنى القول بأن التفكيك استكشافي وليس تحفيزياً - المترجم.

العقائد في العالم^(٤٩). فالحيرة أو البلبلة- عند دريدا وابن عربي على السواء- تسبق أية محاولة تسعى إلى تشييد نسق، بل وإن النسق ليرتكز عليها. وإنه لإيمان يَسِمُ الرغبة في الحيرة والبلبلة بميسم الإخلاص والبسالة (فضلاً عن "النزاهة" النيئتسوية): الرغبة في لمح الشأن الأكبر تحيراً فلا ينقاد لإغواء النسق، وهو بذلك "الأحق" باللمح. وفي حالة دريدا، يبدو تقدير قيمة الحيرة والبلبلة تقديراً جديداً أوضح في مقال عام ١٩٨٥: "أبراج بابل" Des Tours de Babel.

بابل عند دريدا: استبداد الوضوح

ينطوى عنوان مقال دريدا- الذي يحلُّ فيه مقال بنيامين المعروف عن الترجمة "مهمة المترجم" The Task of the Translation- على سخرية واضحة، ووضوح السخرية فيه يناقض غموض كلمة "Des tours" والتباسها الدلالي (فالكلمة تعني حيلًا tricks وأبراجًا towers وانعطافات detours في آن معاً). يبدأ مقال دريدا عن الترجمة بتسع آيات من الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: هدم برج بابل الذي يعنى في الوقت نفسه ميلاد المترجم؛ فهدمُ البرج حدثٌ أعراقى قديم ethnoclastic يجعل الترجمة ممكنة. وما يلفت النظر فوراً إلى كلمة "أبراج" Des Tours الطريقة التي يعيد بها دريدا تفسير واقعة بابل مستخدماً مصطلحاته الخاصة، فيروى رواية أخرى قصة العهد القديم شأنه شأن عالم من علماء العصور الوسطى برموز الكتاب المقدس؛ فدريدا في زمنه الذي ليس مسيحياً، وإنما ما بعد بنوي، يحولُّ أصحاح سفر التكوين إلى نموذج تفكيكي. لم تعد الآيات التسعة الأولى في الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين مجرد قصة عن كبرياء الإنسان التي اعترضتها قدرة الله: فهذه الآيات تحكى أيضاً بنية لا تنتهى؛ تحكى مشروعاً أحادي الثقافة وأحادي اللغة (مشروع الساميين) ينطوى على مقاصد شمولية لا يعترضها رعد أو زلازل وإنما تعترضها اللغة نفسها.

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة" (سفر التكوين، الأصحاح الحادى عشر، آية 1). تقوم واقعة بابل بتبرير تعدد الألسنة تبريراً توراتياً، وفى الوقت نفسه تشير إلى بدء بلبله الإنسان فى الكتاب المقدس؛ تشير إلى بداية تشظى الثقافات وشتات الألسنة المختلفة، فتمهد تمهيداً متعمداً إلى تكثر شنيع (أحدثه الله) فى مشروع الساميين الشمولى. وما من عجب فى أن يرى دريدا فى كل هذا عناصر تتوازى مع التفكيك:

فالساميون وهم يسعون إلى "إطلاق اسم على أنفسهم"، وفى الوقت نفسه إلى إيجاد لسان شامل ونسب فريد- أرادوا إرجاع العالم إلى العقل، ويدل هذا العقل على عنف استعمارى (بما أنهم أرادوا تعميم لغتهم الخاصة بهم)، كما يدل على شفافية سلمية تتطوى عليها جماعتهم البشرية، فى آن معاً^(٥٠).

إن الساميين- ولم يعودوا مجرد بناء برج- صاروا بناء نسق. فالمؤمنون بالحقائق الكلية، مهندسو البناء الميتافيزيقى، يسعون إلى تشييد بناء يرمز إلى سيادتهم ويثبتها فى الآن نفسه: سيادتهم على الشعوب الأخرى ("العنف الاستعمارى")، وأيضاً على اللغة. أراد الساميون الاستئثار بوظيفة إلهية؛ ألا وهى إطلاق الاسم، فأرادوا "إطلاق اسم على أنفسهم" بأنفسهم، أرادوا إخضاع اللغة وضبطها بتقرير ما يسمونه وما لا يسمونه، وهو ضبط ترجع بمقتضاه المدلولات إلى الدوال. وفضلاً عن غرابة استدعاء آيات من الكتاب المقدس إلى دائرة تفكيك دريدا الميتافيزيقا الغربية (فهل دريدا إرميا حديث ساخط على مزاعم بابلية تدّعيها البنيوية والظاهرانية، ويدّعيها العلم وعلم الاجتماع؟)، تؤكد الفقرة أن كبرياء الساميين أعماهم عن استبصار عدم جدوى مشروعهم. وذلك على وجه التحديد ما تمثله بابل بالنسبة إلى دريدا: "عدم اكتمال الكلية واستحالة إنهاؤها... استحالة اكتمال شىء ما وفق نظام النسق... وفق العمارة"^(٥١). وقد أمضى دريدا حياته فى الكشف عن استحالة إيقاف المعنى أو توقيفه؛ استحالة جعل النص يقول معنى ما بطريقة دائمة

ومتماسكة دون معنى آخر. وعلى هذا، فعدم جدوى مشروع الساميين هو نفسه عدم جدوى مشروع هوسرل؛ فمشروعه الديكارتي يسعى إلى "العودة إلى الأشياء نفسها" ويفتس عن "ركيزة الموضوعية"^(٥٢)، وكذلك عدم جدوى تاريخ الجنون *L'histoire de la folie* الذى كتبه فوكو معتقداً أن بإمكانه الحديث بطريقة عقلانية تحليلية عن الجنون دون الخضوع لثنائية عاقل/مجنون التى يدعى انتقادها، كذلك عدم جدوى الكلية واللاتماهى *Totality and Infinity* اللذين أرادهما ليفيناس بهدف إعادة تأسيس علاقة "غير عنيفة" مع الآخر فى تمامه، وقد أبان دريدا أن هذه المساعى مجرد "حلم": "حلم بفكر منطقي مُغاير مغايرة خالصة"^(٥٣). وفى كل هذه النماذج، نرى نسخاً من يقين الساميين المغلوط بأن بناءهم يمكنه إيجاد لغة فضلى.

ولعل الأكثر أهمية من اتخاذ دريدا الكبرياء التوراتي تمثيلاً كثنائياً Allegorizing معاصراً، الطريقة التى يرى بها دريدا الله مرادفاً للتفكيك. إذ انطلقاً "من اسم العلم **a proper name** الله... تفرقت الألسن أو تبلبلت أو تكثرت"^(٥٤)؛ الله مُفككُ القصة الأكبر، فهو الذى بَلَبَلَ نسقَ العلامة عند الساميين بتصديعه وتكسيه فجعله يزدوج ويتثلث حتى لم يعد الساميون يعرفون من هم أو ما الذى كانوا يبنون عمله. وبهذا الإذلال والتحقيق، وبهذه البلبلة، ليس الله عند دريدا فاعل التفكيك وحسب، بل إنَّ الله يُفككُ نفسه أيضاً:

واسم العلم الله (المعطى من الله) ينقسم فى اللسان ليدل أيضاً على "الحيرة" بشكل مجير. فالحرب التى أعلنها الله [على الساميين] ثارت أولاً داخل اسمه: انقسم اسمه، وتشقق، فصار ثنائياً وتكثر معناه: الله يُفككُ نفسه^(٥٥).

ويشير دريدا إلى ذلك غير مرة؛ فحتى الله لا ينجو من الاختلاف المرجئ. أو لنقل بتعبيرات دنيوية علمانية: فحتى الناقد التفكيكي لا بد وأن يسقط ضحية الأوضاع الدلالية المتقلبة نفسها التى يكشف عنها عند الآخرين. وعليه، ينحل الفرق الصغير بين المُفكك وما يُفككُه. وفيما يرى دريدا، لا أحد أو شيء، لا الله أو

المتصوف، لا أقواس هوسرل ولا الوجود عند هيدجر ولا الموالفة bricoleur عند نيفي شتروس- لا شيء من هذا يمكنه أن ينجو من "التواطؤ الميتافيزيقي" في اللغة^(٥٦). وبمجرد أن نبدأ في التفكير، نكون قد فكَّنا أنفسنا بالفعل. حين يرسل الله صاعقة الحيرة والفوضى على خطط الساميين فهو يبتليهم بنفسه في حقيقة الأمر. وقد أوحى دريدا بذلك في مفتتح مقاله باقتباس من معجم فولتير الفلسفي Voltaire's *Dictionnaire Philosophique*:

لا أعرف لماذا يقال إن بابل Babel تعنى البلبلة، فالمقطع با Ba يدل على الأب في الألسن الشرقية أما بل Bel فيدل على الله؛ ومن ثم تدل بابل على مدينة الله، المدينة المقدسة. ويطلق القدماء على كل عواصمهم هذا الاسم^(٥٧).

وليس من العسير معرفة السبب في استخدام دريدا "سخرية" فولتير "الهادئة" (المرجع السابق): يشير فولتير ضمناً إلى ما سيعلنه دريدا صراحة فيما بعد؛ ألا وهو أن أصل البلبلة وجوهرها ليس شيطانياً بل إلهياً. وبطبيعة الحال، تمثل إتيولوجيا بابل الأخرى عند فولتير نقداً لادعاً لها عند القديس أوغسطين؛ ففي كتابه *مدينة الله Civitas Dei*، يميز أوغسطين بين مدينة الله (القدس: السلام والصمت والوحدة وشرعية القانون والأبدية) ومدينة الإنسان (مدينة بابل: التمزق والصخب والفرقة واللبلة والتغير)^(٥٨). وبينما يرى القديس أوغسطين الألوهية دواء الحيرة، فيقترح "رؤية السلام" vision of peace أصلاً اشتقاقياً للقدس Jeru-salem، يرى فولتير مدينة بابل Babylon مدينة الله الأولى الحقة. الألوهية اسم البلبلة الآخر.

(٥٦) لما صارت الامبراطورية الرومانية إلى الانحلال بدءاً من عام ٤١٠، ثار الناس على المسيحية اعتقاداً منهم أن السبب في هذا الانحلال هو عدم الإيمان بالآلهة اليونانية القديمة، فقامت حملة عنيفة على المسيحية بوصفها دين إفساد، وقد تصدى أوغسطين في كتابه *مدينة الله* لهذه الحملة فنظر في التاريخ نظراً شاملاً تقوده الديانة المسيحية بوصفها نموذج الدولة والحضارة الأعلى - المترجم.

وكما يسبق الله التاريخ، تسبق الببلبة النظام وتتقدم عليه. أو بتعبير دريدا: الببلبة محايدة في النظام، تتخلل النظام وتعطيه معناه. وفي رواية دريدا لـ سفر التكوين، مَنْ يُفَكِّكُ البرجَ ليس الإله المتعالى المظمن فى عليائه، فالأصح أن الرواية الأولى عن الببلبة تمنح الرواية الثانية مولدها. ولعل السبب فى أهمية مقال دريدا "أبراج بابل" فى مناقشتنا الحالية، أنه أحد المواضع القليلة فى أعمال دريدا التى يلتقى فيها مع ابن عربى لقاءً حقيقياً على مستوى استخدامه "الببلبة أو الحيرة" اسماً إلهياً. ففى "الأبراج" يسائل دريدا بساطة الله، وينتقد الصور المعيارية شديدة التبسيط التى نكوّنها عن الله، فيذكرنا بأن التفكير فى الله معقدٌ تعقداً يثير الحيرة والإرهاق. وقد تناول دريدا هذه الفكرة فى موضع آخر - قبل عقدين من الزمان - ألا وهو مقاله عن جابيس Jabès (الذى يُعدُّ المتصوف اليهودى القابالى Kabbalistic الأكبر فى مقالات دريدا^(*))؛ حيث يقارن دريدا بين "الله" الذى يمكننا معرفته و"الله" الذى لا يمكننا معرفته:

إن كان الله يفتح السؤال فى قلب اسم الله، وإن كان الله هو انفتاح السؤال الانفتاح الحق، فانه ليس بسيطاً. ولذا، فالممتع على التصور عند العقلانيين الكلاسيكيين يصبح واضحاً بذاته هنا. فانه المتولد عن ازدواج قابليته للمساءلة لا يتصرف بطرق بسيطة، فهو ليس صادقاً ولا سليم الطوية^(٥٨).

(*) القابالاة: فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض مسيحيى العصر الوسيط، تقوم على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً. وكانت كلمة القابالاة تعنى حتى القرن الثالث عشر التلمود والمدرشيم وعدداً من نصوص التصوف الغنوصى، وقد انتسجت خيوط مدونة القابالاة فى العصر الوسيط حول التمييز بين حياة الوجود الداخلية من حيث هى تحديد ذاتى وحياة الوجود الخارجية أو الظهور الخارجى (الخلق) فقدمت بديلاً عاماً عن الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية المحدثة - المترجم.

وكما فعل ابن عربي، يطلب منا دريدا أن نزيد من حيرتنا في الله. إن "بساطة" الله- أي الاعتقاد في أن الله يتصرف ويعمل بطرق واضحة تتطوى على معنى في جوهرها- تتعارض مع التعقد والحيرة غير الكلاسيكية التي ينطوى عليها الله بوضوح. ويتطابق دريدا- إلى حد ما- باستنكاره هذه "البساطة" مع التذكرة القرآنية التي يشير إليها ابن عربي كثيراً والتي مفادها أن الله ليس كمثل شيء مما نعرفه.

وبعد مقاله عن بنيامين، يزيد دريدا من جرعة الكتابة عن الله والحيرة، غير أنه لا يرادف بينهما مرة أخرى. ففي مقالاته اللاحقة عن إيكهارت وسيلسيوس Silesius، فضلاً عن عمله الأحدث عن الفيلسوف التشيكي جان باتوكا Jan Patocka، يهتم دريدا اهتماماً أكبر بالله من حيث هو سرٌّ مؤجل إلى ما لا نهاية، أو من حيث هو "حقيقة فوقية"، بدلاً من كونه فوضى إلهية مفككة الأوصال. وبمعنى ما، فإن إشارة دريدا في "أبراج بابل"- أي وصف الله بأنه بلبله مقدسة ومصدر طاقة غير منضبطة تتقلب دومًا- لها أسلاف في الفكر الغربي وخارجه على السواء، ومن هؤلاء الأسلاف على أقل تقدير بوهمه Boehme (١٥٧٥ - ١٦٢٤)^(٩) وإيكهارت. ويذكر دريدا بوهمه قرب نهاية المقال: "إن الله عند بوهمه... يخرج على نفسه، يحدد نفسه في تناهيه فينتج التاريخ"^(١٠). ويعبر دريدا عن فكرة الله عند بوهمه من حيث هو طاقة تتحرك حركة دائبة وعارمة تعبيراً أكثر ذبوعاً بفكرته عن اللأساس أو الهاوية بلا قرار **Ungrund**:

وعلى الرغم من أنه مشمول في الإرادة، وأنه جوهر، وأنه ينشئ نفسه بنفسه أبدأً في هاوية سرمدية، أي يدخل بنفسه إلى نفسه ويستوعب نفسه بنفسه ويجعل من نفسه المركز؛ على الرغم من ذلك كله فإن من يستوعب نفسه بنفسه يتجاوز نفسه فيظهر نفسه في بريق العين، ومن ثم يتألق مبرزاً الجوهر في حد ذاته ومن تلقاء ذاته^(١٠).

(٩) يعقوب بوهمه: متصوف ألماني تلقى قدرًا قليلاً من التعليم، ثم عمل مصلح أهدية فترة من الزمن. ترسم في تصوفه خطى القابالية وبعض التقاليد الهرمسية، مما أهاج عليه السلطات الكنسية فتوقف عن الكتابة مدة خمس سنوات ثم واصلها سرًا- المترجم.

إن سلمنا بطبيعة الاختلاف المرجئ المتقلبة التي هي "لا شيء"، مع أنه "يختلف عن نفسه ويؤجل نفسه ويكتب نفسه بوصفه اختلافاً مرجئاً"^(٦١) على الدوام، فسوف يتضح السبب في أن دريدا (على الأقل في مقاله "أبراج") ينجذب إلى تصور "الله عند بوهمه": "فإنه قوة متلونة تتسم بالغليان، وتنبثق من عمق لا يُسبَرُ غوره (من هاوية بلا قرار) ليلبور نفسه تاريخاً. وفي سفر التكوين، يبدع الله- في نهاية المطاف- التاريخ حين يهدم البرج ويمحو اللغة الواحدة؛ فالله ينفخ الحياة في الكثرة، إذ حين يفسد خطط الشعب الواحد يخلق كثرة من القبائل.

ويفضى كل ذلك إلى السؤال الآتي: ما الذي يقوله دريدا على وجه التحديد في مقاله "أبراج" عن الحيرة والبلبلية؟ هل هي حال مرغوبة أم منكورة؟ هل هي إعلان عن ميلاد شيء جديد إيجابي أم أنها مصير حتمي يحد أي مشروع نضطلع به؟

في المقام الأول، تظهر البلبلية أو الحيرة عقاباً يسلطه الله على من أرادوا التخلص من بلبلتهم. فالساميون متهمون باقتراف الخطيئة الأصلية الآتية: "وقالوا هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجاً.../ ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض"^(٦٢). وحيث إن العالم ليس مكان إثبات بل مكان سيطرة على الأصح، فالساميون غير راضين بتيههم ولا بحال انعدام الاسم؛ تلك هي على وجه التحديد كبرياء عدم الرضا عن حال التيه؛ الأمر الذي استدعى عقابهم. ولعل شيئاً من المفارقة الخفيفة هاهنا: "يحيق التيه الحقيقي والبلبلية بمن لا يرغبون فيهما"، كما لو أن تعلم حب الحيرة هو السبيل الوحيد إلى التحرر من الحيرة.

يكن قَدْرٌ من خطيئة الساميين في رفضهم التيه، وأيضاً- على ما يبدو- عدم تقبلهم تكثر اللغة. إن اسم "العلم" الحقيقي الوحيد المتميز الواضح هو اسم "يهوه"، وقد انزعج الساميون من حقيقة أن اسمهم يتخذ معاني مختلفة باختلاف ألسنة الشعوب، فتأقوا إلى اسم يُضارع في وضوحه وتميزه اسم "يهوه". وبهذا المعنى، يُعدُّ برج بابل (بتعبير ريتشارد رورتى) "محاولة لتحاشى النسبة... وإن جاز التعبير محاولة إيجاد كلمة تتطوى على معنى وإن لم يكن لها موضع في

الممارسة الاجتماعية^(٦٣). تكمن خطيئة الساميين في رغبتهم في المعنى نفسه؛ انمعنى النقى غير الملتبس الذي يمكن تكراره، فلا يرتهن بسياقات أو يمرح على غير هدى في مواقف غريبة. وقد أخفق الساميون في ذلك، أما يقين دريدا بـ"استحالة إنهاء" هذه الأبراج فلا يعكس إلا مزيداً من استحالة أن يعنى أى اسم علم - بوجه عام - (حتى اسم يهوه) شيئاً واحداً: شيئاً واحداً فقط.

هذه الرغبة في امتلاك اسم علم - سواء كان علماً على سلالة أو اتجاه أو عمل - تذكرنا برغبة فرويد؛ فقد كانت لفرويد مساراته التي أراد لكتاباتاته أن تمضي فيها، فكان يسارع إلى تحذير أتباعه كلما رأى نصاً من نصوصهم يحيد عن مسار كتاباته المرغوب عنده. وإلى ذلك يشير دريدا ببراعة في مقاله "إحراز الحق بالكامل"^(٦٤) Coming Into One's Own؛ فهذا المقال يتناول كتاب فرويد *مبدأ اللذة Beyond The Pleasure Principle*، حيث يدرس دريدا إصرار فرويد المثابر على أبوة أعماله، ورغبته في الإبقاء على التحليل النفسي "في إطار العائلة" إن جاز التعبير، ناهيك عن أن يدع نصاً من نصوصه يهيم على وجهه كاليقيم: "... حتى يتأسس العلم... ينبغي عليه المضى دون اسم عائلة فرويد. أو على الأقل ينبغي عليه نسيان هذا الاسم، وذلك شرط ضروري ودليل تتوقف عليه مسيرة العلم ذاته وانتقاله"^(٦٤). لقد أراد فرويد لـ"التحليل النفسي" الوضوح نفسه الذي أراده الساميون لاسمهم. ومن هنا، أشبه فرويد الساميين في نفورهم من البلبلة أو الحيرة، فقد تخوف مثلهم من اختلاف الفهم، وهو خوف لا ينجم إلا عن رغبة في القوة والسلطان.

(٦٣) كنت قد رأيت سابقاً ترجمة عنوان هذا المقال على النحو الآتي "رد اعتبار الخصوصية" في متن ترجمتي مقال نوريس حول أخلاقيات التفكيك، واقترح في الهامش ترجمة ثانية إلى "توريت الحياة الخاصة". انظر، *البنوية والتفكيك: مدخل نقدي*، تحرير وترجمة حسام نايل (الأردن، دار أزمنة، الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٧)، ص ٢٣٤. وإنى أرجع الآن عن هذين الاقتراحين، وأرى أن الأصوب ترجمة عنوان المقال على النحو الآتي: "إحراز الحق بالكامل". وما المترجم أو الترجمة إلا سلسلة من التراجعات المستمرة؛ فكلما رأى رأياً بدله رأى آخر! - المترجم.

وثانيًا، يبدو أن مقال دريدا يعارض بين البلبلة والعنف، وعلى أقل تقدير يعارض بين البلبلة وذلك الضرب من العنف الذى هو "عنف استعماري". إن رغبة الساميين فى "تعميم لغتهم"^(٦٥) - أى رغبتهم فى جعل العالم كله يتكلم بلسانهم ويخضع لثقافتهم - تتعلق فى نهاية المطاف بما أسماه دريدا، من قبل، فكر "الواحد وحده" (وهو تعبير ليفيناس بكلمات أخرى)، وبتعبير آخر: ميتافيزيقا هى "الأصل... أصل كل طغيان فى العالم"^(٦٦). ولذا، تصبح إيماءة الله "منكثرة" بمعنى المصطلح الأكثر سخرية؛ فقد خذلت بلبلة الساميين مقاصدهم الإمبريالية، حيرت مهندسيهم وشتتت جيوشهم وسلبتهم السلطة المادية والدالية. وتعنى البلبلة أو الحيرة هنا فقدان الأسباب التى يريد بها المرء التحكم فى شخص وإخضاعه؛ مما يعنى صعوبة إلزام شخص ما بالعمل بموجب لوغوس واحد بينما يوجد منه الكثير. وإن كانت الميتافيزيقا العقلانية هى "الأصل... فى أى تعسف"، وإن كانت البلبلة هى - على وجه التحديد - ما يعرقل إرادة الميتافيزيقا، فليس من الغريب أن يتمكن دريدا من اكتشاف الإيحاءات السلمية أو المسالمة التى تنطوى عليها الحيرة. فالبلبلة أو الحيرة - بدلاً من أن تفسد العدالة أو ترهص باللاعذالة والظلم - تُضعف فى حقيقة الأمر الاستبداد وتُفكك العنف الشمولى، إنها تصيب مفتاح الربط فى ماكينة الحاكم المطلق بالشلل.

يسائل دريدا - بطريقة نموذجية - هذه الفكرة أثناء تعبيره عنها. فالمشروع البابلى "يمكن أن يدل على عنف استعماري... ويمكن أن يدل فى الوقت نفسه على مجتمع سلمى شفاف"^(٦٧). إن الله، بمحوه اللسان المفرد، يُحبط أهداف "الإمبريالية اللغوية" إحباطاً كاملاً، لكنه يلغى أيضاً إمكان التواصل. وهنا، ينشأ سؤال صعب يمكن إيجازه على النحو الآتى: هل تتحدث الآيات التسع الأولى فى الأصحاح الحادى عشر من سفر التكوين عن إعاقة قيام امبراطورية أم عن تهديم جماعة؟ وهل إزالة العنف الاستعماري الأكبر إن هى إلا بداية عدد من حالات العنف الأصغر بين السلالات أو الأعراق أو الشعوب؟ وتلك عبارة متساهلة بشكل يدعو

إلى الدهشة، لو سلمنا بنفور دريدا التلقائي من كلمات مثل "مجتمع" أو "جماعة" (التي يرى فيها "كثيراً من التهديدات بقدر ما فيها من وعود")^(٦٨)، ناهيك عن السجال المشهور مع هابرماس وتصوره عن العقل التواصلى. فاللغة المميزة الشائعة بين جماعة من الناس- وإن كانت مفروضة فرضاً استعماريًا- ستقلل إمكان الفهم المغلوط داخل هذه الجماعة أو هذا المجتمع، إذ سوف تتميز التعابير والأفعال والإشارات بقدر من "الشفافية" النسبية. إن لعبة اللغة عند الساميين فريدة على المستوى الاستعماري، وتتميز قواعدها بالوضوح الشفاف (وإن يكن بشكل لا يقبل الجدل). ومع ما يقوله دريدا فى مقاله "أبراج" من أن تفكيك الله البرج يُعدُّ مثلاً على ما قد أسماه فى موضع آخر "التفكيك العادل"^(٦٩)، فإن احتمال "الشفافية السلمية" عند جماعة الساميين تجعل المقال يعانى نوعاً من الازدواج.

وإذا كان دريدا فى مقاله "أبراج" يبدو راغباً عن الاعتراف والتصريح بأن الحيرة أو البلبلة حالة من السلام الحقيقى- أى لا يجهر بأن الحيرة هى السبيل الوحيد إلى استقبال الآخر دون عنف- فلن نتعجب. إذ قد رأينا من قبل دريدا فى كتابه *فى علم أنساق الكتابة*، وهو يستخدم كلمات مثل "عنف" و"استعماري"، حريصاً على عدم تكرار غلطة ليفى شتروس حتى لا يسقط مثله فى فخ ثنائية الجراد والضحية، المذنب والبرىء. وإن كان دريدا يؤمن بأنه ما من نظام أو مجتمع يخلو من عنف ما، فليس معنى ذلك أن الفوضى شكل من أشكال اليوتوبيا السعيدة. وأقصى ما يمكننا قوله عن موقف دريدا من الحيرة أو البلبلة إننا حين نكون متحيرين أو متبلبلين نكون أقل رغبة فى فرض صورة أحادية تختزل الآخر أو تنتقص منه. وكذلك حال العارف الكامل عند ابن عربى حين تصيبه الحيرة الكاملة أو البلبلة، فلا يعود راغباً أو قادراً على خلع أية صورة على الحق.

وثالثاً، تُبرز عبارات دريدا عن بابل خاصيةً متواترةً فى كتاباته على اختلافها وتنوعها: الابتهاج بالكثرة على حساب الوحدة. إذ يفضل دريدا ما يختلف بعضه عن بعض عن الذى يتجمّع بعضه إلى بعض، فالشطايا أهم بكثير من الكل،

والمتعدد أفضل من الواحد. ومن ثم، يحدّد دريدا موقف البلبلة والارتباك ولا ياباه. فمزاعمُ الفوضى التي تتوازي وتتعاقد في أعمال دريدا، والتي يغالى البعضُ فى فداحتها وغلطها، سديدةٌ إلى حد ما؛ لأنها تهمُّ مفكراً يعتنى بالتصفية والتقويض قدر عنايته بالتشكيل والتخطيط. إن "تشتيت" dissemination الساميين ("قبددهم يهوه من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة")^(٧٠) - وهو بمثابة استعارة كافية لتفكيك أى نسق ممكن - يمثل النمط نفسه من الحيرة التي يسعى دريدا إلى إثباتها. ولعل هذه النبذة العميقة في كتابات دريدا، التي تتعارض مع الأفلاطونية المُحدّثة، تثبت حلّ الواحد الأول إلى الكثير، بدلاً من السعى إلى عودة مستحيلة إلى هذا الواحد؛ فالواحد "الخالص الذي لا يتغير" لم يوجد أصلاً:

يعنى شبه "المعنى" الذي ينطوى عليه التشتيت dissemination استحالة العودة إلى وحدة المعنى المترابطة والمنضبطة مرة أخرى... فهل التشتيت - من ثم - يعنى خسران هذا الضرب من الحقيقة؟ هل يعنى حظراً سلبياً على كل سبل الوصول إلى هذا المدلول؟ يثبت التشتيت ميلاداً معنى ينقسم على نفسه دوماً، فلا يفترض وجود جوهر بكر يسبقه أو يسهر على طريقة عمله، وبذلك لا يتبدد التشتيت ولا يسجن نفسه ضمن حدود لحظة ثانوية سلبية^(٧١).

إن إنكار أسبقية "الوحدانية" أو "الكلية" الأصلية ("الجوهر البكر") على المتكثّر، يشكل الخلاف الأكثر جدية بين ابن عربي ودريدا، برغم أن مواقفهما من العقلانية والحيرة تتماثل - بطريقة ما - من نواحٍ عديدة. وتوحى هذه الفقرة المقتسبة بأن دريدا من أشدّ المفكرين المعارضين للأفلاطونية المُحدّثة، ولا يندesh المرء إلا حين يفكر في بعض الكتاب المفضلين في المعتمد الدريدي the Derridean canon (بنيامين وبلانشو على سبيل المثال)^(٧٢). فبدلاً من الواحد الأول ثمة الشاغرية أو

^(٧٠) سوف يثبت المؤلف في خاتمة الكتاب أن بنيامين وبلانشو، وهما من الكتاب المفضلين عند دريدا، يتعانقان من وجوه عديدة مع الأفلاطونية المحدثّة دون قصد منهما في الغالب - المترجم.

الفراغ في قلب التشتيت، وهو الحيزُ الذي "لم يعد فيه أيُّ عمق يشغله المعنى" (٧٢). وعليه، فـ"الموقف الحقيقي" عند دريدا هو العدد الكبير من بدائل تتكثُرُ إلى ما لا نهاية، دون بدء أو منتهى، دون مركز أو محيط، في غمار مساعي المفكرين الدائمة- غير المستتيرة- إلى تشييد نظرياتهم وأبنيّتهم وحقائقهم، غير واعين بأن أبراجهم الميتافيزيقية ترتكز إلى رمال متحركة لا تنتهي حركتها.

الطوفان عند ابن عربي: القداسة بما هي الحيرة

إِنْ تَجَلَّى عَلَى شَيْءٍ، انْقَطَعَ الشَّيْءُ. وَإِنْ
كَانَ فِي شَيْءٍ انْقَطَعَ الشَّيْءُ (ابن عربي،
الفتوحات المكيّة، 10. 661. II).

يتناول ابن عربي بالشرح السورة الحادية والسبعين من القرآن، ألا وهي سورة نوح، ويُعدُّ تناوله لها مثالاً طيباً على الطريقة التي يُحَيِّرُ بها الشيخُ الأكبرُ قارئه؛ إذ يفسر آيات معروفة في القرآن تفسيراً يتناقض تماماً مع ما يبدو أنها تعنيه، فالتأويلات في **فصوص الحكم** تمثل- في حد ذاتها- درساً في الحيرة والبلبلّة. يتعاطف ابن عربي مع المجرمين الظالمين، أما المؤمنون فيُرينا أنهم جهّال أو ضالون، حيث يفسر الآيات التي تدين المجرمين الظالمين تفسيراً جديداً يجعلها آيات مديح لهم، فيظهر عبدة الأوثان مستنيرين مهتدين. وكما سنرى في فصل لاحق، يترجم ابن عربي يقينه بأن "حقيقة الله في الأشياء جميعها" ترجمةً كاملةً إلى شروحه القرآنية؛ ومن ثمَّ يكمن مقصد نص الله المقدس في كل القراءات الممكنة، بما فيها القراءات الأكثر تناقضاً وغلطاً. أما الآن فسأركز على ما يقوله ابن عربي عن الحيرة في ثنايا **الفص النوحى** من كتاب **فصوص الحكم**، حتى نصل في النهاية إلى أوجه الشبه بين أقوال ابن عربي عن الحيرة أو البلبلّة وأفكار دريدا عنها.

يعيد ابن عربي- بطريقة ما- حكاية قصة نوح، على نحو ما أعاد دريدا حكاية بابل، فكل منهما يتناول بالتحليل كارثة أرسلها الله عقابًا، وكل منهما يصف هذا العقاب وصفًا جديدًا بأنه نعمة وليس نقمة، وأنه نوع من التطور والرقى وليس نهاية مطاف. ولا يختلف وصف الطوفان في القرآن اختلافًا كبيرًا عن وصف الرواية البابلية من حيث دلالة الحدث النهائية. الطوفان ردُّ من الله على ظهور فساد الإنسان وإدمانه العصيان، فيقرر الله قرارًا لا رجعة فيه الانتقام من غير المؤمنين بغمرٍ مقدس بينما ينفذ نوحًا وأتباعه من هذا الغمر لتقواهم وصلاحتهم. ويختلف القرآن عن الرواية البابلية في أنه يعرض بالتفصيل بأس نوح وقنوطه وهو يحاول (عبثًا) إقناع قومه بهجر أصنامهم والتوبة، ثم حدث أن طلب نوح من الله ألا تأخذه رافة أو رحمة بهؤلاء الكفار المتكبرين.

وحتى نفهم قراءة الشيخ الأكبر الجديدة جذريًا لهذه السورة، علينا أن نضع نصب أعيننا باستمرار تأكيد الله المتواصل أنه مشبهٌ ومنزّهٌ في آن معًا. كان نوح حصن التقوى الوحيد في عالم منحط، وقد سعى إلى إقناع غير المؤمنين؛ فبدلاً من أن يمتدحه ابن عربي على ذلك نراه ينتقده لأنه يركز في دعوته إياهم على جانب التنزيه دون اعتبار التشبيه: "فلو أن نوحًا يأتي بمثل هذه الآية لفظًا أجابوه..."^(٧٣). ويفسر ابن عربي غرق الكفار في مياه الطوفان- وهو تفسير معروف بشططه- بأنه غرقٌ قديسين في بحار الله التي بلا سواحل وليس عقابًا عادلاً منه على إثمهم: "فغرقوا في بحار العلم بالله، وهو الحيرة"^(٧٤). الوثنيون الجاحدون وأصنامهم الكثيرة التي بلبلتهم ("وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ ودا ولا سُواعًا ولا يَغُوثَ ويعوقَ ونسرا"، سورة نوح: آية ٢٣) يصبحون فجأة حملة مشعل الحيرة الروحية؛ وهي حيرة كان يتجنبها نوح باعتناقه منظورًا أحاديًا يرى الله من خلاله مُنزَهًا متعالياً^(٧٥).

(٧٥) ثمة فارق من وجهة نظر الشيخ الأكبر بين النبي نوح والرسول الخاتم محمد، يتعلق بـ"كنه الذات الإلهية". ولعل الآية القرآنية "ليس كمثل شيء" تجسد هذا الفارق. فقد قامت دعوة النبي =

إن رواية ابن عربي الجديدة لقصة نوح على درجة من الأهمية؛ فهي تخبرنا بعدد من الأمور عن موقف الشيخ الأكبر من الحيرة. ففي المقام الأول، لا تُعدُّ الكثرة مشكلة، بل هي وسيلة إلى الحل؛ لأن طريق التطور الروحي تلزمه الحيرة أو البلبلة التي لن تتيسر إلا من خلال الكثرة. وكانت كثرة الأصنام عند قوم نوح "علة الحيرة". وما من شيء يجعلنا أقرب إلى الله سوى الحيرة. فالتعبد على وتيرة واحدة غير كاف، لأنه يُضلل الجاهل بإيهامه الوضوح مما يجنبه مشقة صعوبة التفكير في الله، فضلاً عن أنه يجعل المؤمن الذي يفكر في المقدس مقيداً بالحالة أو الصورة التي يتعبد عليها. أما تكاثر الأصنام فيضع مقام المقدس - ومن ثم كنه المقدس نفسه - موضع التساؤل. تصبح الحيرة أو البلبلة هنا أداة مناقضة الميتافيزيقا، فالإنسان يعتاد على رفع الفكر ومنحه منزلة أعلى، بغير ما يستحق، بحجة أنه يعطى فهماً يحرر الأشياء. وتستدعي الحيرة التي يعانيتها المؤمن من جزاء تكثر الإمكانات بحثاً مخلصاً عن كنه الله، وهو بحث يُفضى (فيما يعتقد الشيخ الأكبر) إلى التحقق الكامل من أن الحق حاضر في كل مكان وفي كل شيء.

وهنا، على الأخص، يرى المرء مدى أهمية الدور الذي يلعبه اللاتهاهي في قلب فكر ابن عربي ودريدا على السواء. فصور الحق - حالها من حال المعاني الممكنة في النص التفكيكي - لا يتناهى عددها: "رقعة شطرنج بلا قاع" لا نهاية لها يلعب عليها الاختلاف المرجئ^(٧٥)؛ فلا قاع لبحار الله التي لا تنتهي ("فالله علاقات ووجوه ووقائع بلا حد"^(٧٦)). يرغب دريدا وابن عربي رغبة كاملة في الحيرة أو البلبلة الناشئة عن عدم تناهي الحق والنص الدريدي، على الرغم من أن أولهما يمضي في طريق مختلف جذرياً عن الثاني. إذ يرى دريدا أن إمكانات النص التي لا تنتاهي، والتي تسبب الحيرة، تفضى إلى نتيجة واحدة؛ ألا وهي أن النص شاغر

= نوح على أساس التنزيه وحده، أما دعوة الرسول الخاتم فجمعت بين التنزيه والتشبيه في الحديث عن الذات الإلهية؛ فالآية سألقة الذكر أثبتت التشبيه ونفيه في آن واحد. ويرى ابن عربي أن نوحاً لو جاءهم بهذه الآية لاستجاب له قومه، وهي عماد فكرة الحيرة المشار إليها بتجندها المنظور الأحادي - المترجم.

دلاليًا، فالنص مجرد ورقة عليها رموز، بلا أي عمق. أما ابن عربي الذي يرى تنوع اعتقادات الناس تنوعًا محيرًا فلا يصل إلى القول بعدم وجود الله، وإنما يرى أن ثمة "شيئًا لا يمكننا معرفته" يتجسد، وكل هذه التجليات أو المظاهر التي لا تنتهي هي التي تجسده^(*).

وتتعلق النقطة الثانية بأن الإخفاق الإنجيلي لدى نوح في إنقاذ الكفار من الطوفان ناتج عن إعراضه عن تقديم الله لهم بما هو حيرة مقدسة:

ونوح دعا قومه "ليلاً" من حيث عقولهم وروحانيتهم فإنها غيب. و"نهاراً" دعاهم أيضاً من حيث ظاهر صورهم وحسهم، وما جمع في الدعوة مثل "ليس كمثله شيء" (سورة الشورى، آية ١١)^(٧٧).

يُعرضُ نوح إعراضاً كاملاً عن إيقاع الحيرة على فكرة الله بتقديمه من حيث هو جامع المتناقضات (مُشَبَّه ومُنزَّه). ونوح إذ يعتق هذا المنطق الأحادي الذي يلزم فهم الله فهمًا مبسطاً، وإذ ينفر من الحيرة أو البلبلة نفوراً راسخاً، يتسبب في "تراجع" الكفار وعدم ركوبهم السفينة. وبذلك يصور ابن عربي نوحاً تصويراً يحطُّ من قدره، فيلحقه بأنصار علم الكلام والفلاسفة الذين يقيدون (يعقلون) أنفسهم بصورة واحدة لله. وحتى يحتفظ ابن عربي بقدر من سلامة العقيدة، يخالف بين جهل نوح الضمني وحكمة النبي محمد السديدة الذي قد فهم عن الله (في رأى الشيخ الأكبر) ما لم يفهمه نوح:

ففي "ليس كمثله شيء" إثبات المثل ونفيه، وبهذا قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم إنه أوتى جوامع الكلم. فما دعا محمد صلى الله عليه وسلم قومه ليلاً ونهاراً، بل دعاهم ليلاً في نهار، ونهاراً في ليل^(٧٨).

(*) المقصود أن التجليات أو المظاهر هي صور الله التي تُظهره لنا استناداً إلى الآية "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم"، وليس المقصود التجسيد فيما توهم عبارة ألموند؛ فالشيخ الأكبر ليس عنده تجسيد، وإنما العلاقة بين الله وخلقته على نحو العلاقة بين الروح والجسد، حيث الجسد مظهر الروح - المترجم.

فعلى خلاف نوح، أدرك النبي محمد إدراكاً ثاقباً "الموقف الحقيقى"؛ فهو لا يهتم بالظاهر على حساب الباطن أو بالباطن على حساب الظاهر، بل يمحو - على الأصح - الفرق بينهما. وعلى خلاف نوح أيضاً، لا يخشى النبي محمد من التحير فى الله، ولا تقاس المسافة الطبيعية بين نوح ومحمد بمقياس المحاباة أو الفضل الإلهى، وإنما بمدى اقتراب كل منهما من تقبل الحيرة أو البلبلة بما هى شرط إلهى.

ولعل أهم الاستعارات التى يستعملها ابن عربى للتعبير عن هذه الحيرة استعارة الغمر أو الطوفان التى توحى بصورة الله من حيث هو بحر بلا سواحل، وهى صورة معتادة عند الشيخ الأكبر. وتتطوى هذه الاستعارة على فرضية مارقة تتضمنها قراءة ابن عربى الجديدة للسورة، مؤداها أن رفض الكفار الانضمام إلى نوح وعدم صعودهم إلى السفينة لا يُعدُّ خطأً مأساوياً، بل هو - على الأصح - نقلة روحية أحكم أنجبتهم من التصور الأنطولوجى المحدود الذى اعتنقه ركاب سفينة نوح، مما سمح لهم بالغرق غرقاً نشوانياً فى بحار "معرفة الله" الأوسع^(٧٩). فبرفضهم الانضمام إلى نوح وبعدم اكتراثهم بدعوته إلى تنزيه الله، رفضوا الوضوح غير المستنير، ففضلوا حقيقتهم المحيرة، ودفعوا مقابل هذا الاختيار - كما دفع الحلاج - حياتهم ثمناً. إن المرحلة الروحية التى وصل إليها غير المؤمنين نتيجة رفضهم أرقى بكثير مما وصل إليه نوح. وفى الحال، ابتلعهم الطوفان - إذ لم يجدوا أرضاً ثانية (كما فعل نوح) - فلم يكن الطوفان ملاذاً لهم بل كان هلاكاً روحياً: "فلو أخرجهم إلى السيف، سيف الطبيعة لنزل بهم عن هذه الدرجة الرفيعة..."^(٨٠). إن العارفين المحققين يفضلون غمر البحار على ركوب السفن.

ويقوم ابن عربى بهذا الضرب من الإيماءات مثيرة الخلاف فى كتابه *الفتوحات المكية*، فيقلب معنى بعض الآيات المعروفة فى القرآن بإدانتها الحماقة والكبر، وهى آيات تصف قلة من الناس ممن اكتشفوا الحيرة الحقة فامتازوا عن "عموم الناس"^(٨١). وعلى سبيل المثال، تصف الآية ١٧ من سورة البقرة العصاة بأنهم "لا يبصرون"، وأنهم "صم بكم عمى فهم لا يرجعون" إلى طريق الحق، فيفسرها الشيخ فى المجلد الأخير من *الفتوحات المكية* تفسيراً مختلفاً:

أما المختارون فهم "فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى" (سورة البقرة، آية ١٧)، لا يفهمون. فهم حيناً يقولون "نحن نحن، وهو هو"؛ وحيناً يقولون "هو نحن، ونحن هو"...^(٨٢) (التشديد من عندى).

الظلمات والعجز عن الإدراك والنتية هى عطايا يتمتع بها المتحيرون، "فهم لا يرجعون" إلى الطريق السديد القويم. وتعنى الحيرة ضمن ما تعنيه فقدان الطريق. ثم على حين غفلة، يبدو أن "عدم الرجوع إلى الطريق السديد" دال على الاستنارة وليس الجهل. ومن ثم، يعطى ابن عربى فكرة النتية معنى إيجابياً يصعب أن يتوافق مع الإسلام التقليدى الذى يعطى الطريق أهمية كبرى (الصراط المستقيم) فيجعله مرادفاً لسنن الشريعة وتقاليدها. وفى الفص النوحى يحلل ابن عربى هذا الاختلاف بين غير المتحير - الذى يمضى فى طريق محدد نحو غاية ما - والمتحير الذى لم يعد لديه نقطة انطلاق يبدأ منها الرحلة:

فالحائر له الدور والحركة الدورية حول القطب، وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المقصود طالب ما هو فيه صاحب خيال إلى غايته: فله من وإلى وما بينهما، وصاحب الحركة الدورية لا بدء له فيلزمه "من" ولا غاية فتحكم عليه "إلى"، فله الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلم والحكم^(٨٣).

تتعارضُ الحيرةُ عند ابن عربى - هنا - مع الحركة، فتصبح حالةً من الشلل، تسلبُ المؤمنَ غايتهُ وموضوعه وهدفه. وحين يكتشف الحاجُّ أن الله كامن فى نفسه (محايت لها) وكامن أيضاً فى "مكان ما" خارجاً (متعالياً) لا يعود الحاجُّ محتاجاً إلى الحجِّ؛ لأن المزارَ موجود داخله حقاً. وعليه، فالشلل الذى تصيب به الحيرةُ الإنسانَ (المتحير) "المتمركز إلهياً" ليس حالة سلبية على الإطلاق، وإنما هو تخلُّ عن رحلة وهمية لا ضرورة لها إلى شىء هو الحاجُّ نفسه.

وتتعلق القضية الأخيرة في إشارات ابن عربي عن نوح بالمؤدييات الاجتماعية التي تتطوى عليها الحيرة وطاقتها الهدامة الكامنة فيها. فالفص النوحى أحد المواضع القليلة في كتاب **فصوص الحكم** التي يُشار فيها- وإنْ بشكل خافت- إلى الإمكانات السياسية المضمّنة في حالة الحيرة- اكتشاف الحق داخل الذات- وإنْ لم تسبر أغوارها تمامًا. وفي غالب الأمر، يجد النقّاد المحدثون من ذوى البرامج السياسية في إعادة تفسير النزعات الصوفية على اختلافها فى القرون الوسطى مفردات ثورية، وبصفة خاصة تلك النزعات التي تؤكد وجود الإلهى داخل البشرى. ولعل أوضح مثال على ذلك قراءة إرنست بلوخ Ernst Bloch الماركسية للعلامة إيكهارت فى كتابه **الإلحاد فى المسيحية** *Atheismus im Christentum*. يغدو إلحاحُ إيكهارت- فيما يرى إرنست بلوخ- على الوحدة بين الله والنفس إيماءً تهاديميةً وتحريرية ترى- فى نهاية المطاف- "كنز السماء ملك الإنسان"^(٨٤). ولذا، فطبقاً لبلوخ، لا يشبع إيكهارت حاجة "الذات التواقة" فحسب، بل وأيضاً "المملكة السماوية فى تفتحها النازل على الأرض"^(٨٥).

ولا يعنى ذلك كله أن ثمة محاولة لإنجاز قراءة تحريرية مماثلة لقراءة ابن عربى، فالقيود الوحيدة التى يهتم ابن عربى بكسرها قيود ميتافيزيقية خالصة. فما يستحق التعليق فى قراءة ابن عربى لقصة نوح الكيفية التى يُفكّكُ بها حضورُ المتحيرِ التراتبَ الاجتماعى. والطريقة التى يتكلم بها نوح (كما هو أدناه) تقدم لنا حيرة غير المؤمنين بوصفها تهديداً قائماً يتقصّدُ المجتمع، قد يستفحل وينتشر إنْ لم يُقمع فى حينه:

"إنك إنْ تذرهم" أى تدعهم وتتركهم "يضلوا عبادك" أى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية فينظرون أنفسهم أرباباً بعدما كانوا عبيداً؛ فهم العبيد الأرباب"^(٨٦).

إن كان الله يحلُّ الاختلافات ("الله بلا صفة")^(٨٧)، فكل شخص يحمل بداخله هذه القدرة على حلِّ الترابية، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي. وينجم تخوف نوح عن هذا التهديد الذي فطن إليه حين تكتشف النَّفسُ نفسها بنفسها؛ فالحيرة ترفع العبد عن عبوديته، وتجعل كل شيء يومض ويتغير، فتعيد تحديد موقع الألوهية فلا تمكث في قلوب الخلفاء والملوك فقط، بل تنزل بها إلى أدنى درجات السلم الاجتماعي. وتذكرنا فقرة ابن عربي بملاحظة بلوخ؛ إذ ينطوي ابن عربي على استنارة حقيقية تحولَّ العبيد إلى أرباب.

خلاصة: "المواقف الحقيقية"

يمكن إجمال موقفى ابن عربي ودريدا من الحيرة على النحو الآتى: ارتياب متواصل فى الأنساق وبناء النسق، تصوير الوضوح تصويراً راسخاً بأنه وهْمٌ مؤسس على جهل بالموقف الحقيقى، فهم القوة التى تتحرك حركة دائبة والتى تتخلل التجليات أو النصوص دون أن تكشف عن نفسها أبداً، بما يتوازى مع الإيمان بأن حالة الحيرة تُمكن المرء من لمح الآخر المراوغ الذى لا يراه مَنْ يحاولون التفكير فيه عقلاً... وتقضى بنا هذه الملاحظات إلى عدد من النقاط العامة يمكن عرضها على النحو الآتى:

الحيرة "موقف حقيقى". البلبلة أو الالتباس أو الزيغ- عند ابن عربي ودريدا- وضعٌ عام أصلى سابق على الله أو النص، وعلى أية محاولة للحديث عنهما. فالعارف الحقيقى- عند ابن عربي- يرى تفلسف أقرانه وتنظيراتهم اللاهوتية بعين البصيرة (ولا يستبعدها)؛ فهو يفهم أن "الوضع الكلى [الله] هو التحير"^(٨٨)، وأن فيضاً إلهياً يكمن من وراء كل صورة وكل مفهوم يقدمونه عن الحق. أما الناقد التفكيكى فيطوى أسبقية المعنى بالحيرة؛ إذ يفتن عبر الهدوء الظاهر على النص إلى "النزاع الناشط المتحرك بين القوى المختلفة" الكامنة تحته"^(٨٩)، فيرى فيه هدمًا وشيكًا لأى تفسير وتقويضًا لكل تفسير.

الحيرة موقف حتمي. البلبلة أو الالتباس أو الزيف التي يمهدها لها كل من الاختلاف المرجئ والحق لا يمكن التغلب عليها؛ فما من معجم لاهوتي بقادر على ربط الحق بصورة واحدة، آمنة وثابتة، كما لا يوجد تأويل يحول دون "سير النص على غير هدى في الأساس"^(٩٠). يتحرك الحق من خلال تنويعه من التجليات المحيرة، يتحرك من ظاهر إلى ظاهر، وكذلك النص يتحرك من خلال سلسلة من التفاسير المختلفة التي تثير كل منها الحيرة على حد سواء. وعند ابن عربي ودريدا كليهما، ليس بالإمكان تقييد فيضان المعاني والتجليات المحيرة أو مقاومتها؛ فالحيرة هي حقيقة الله الدالية.

الحيرة موقف عسير يتميز بالإخلاص. تأتي كلمة كافر (بمعنى ملحد وغير مؤمن) من الجذر العربي كَفَرَ، الذي يعنى أخفى أو حَجَبَ. فعلى المستوى الإيتيمولوجي، الكافر هو مَنْ يُخفى الحقيقة في قلبه^(٩١). ويعنى ذلك عند ابن عربي رفضُ معرفة الحيرة التي يصيبنا بها "الموقف الحقيقي": رفض معرفة أن الحق هو الخلق وليس الخلق في آن معاً، رفض معرفة أن الحق مُشَبَّه ومُنزَّه على حد سواء. فالسرُّ الذي تنطوي عليه النَّفسُ الأكبَرية- ومفاده أنها جزء من الحق- محبوب (مكفور به) نتيجة القول بعلو الله (التتزيه) الذي هو نصف الحقيقة فقط. يكتب ابن عربي: "فنحن نحرم التفكير النظري البتة، لأنه يورث صاحبه مكرًا وعدم إخلاص"^(٩٢). إن "تغطية" أو "حجب" الفكرة القائلة بأن الله يمتنع على التصور امتناعاً جذرياً بتأويلاتنا الخاصة عن الألوهية تجعل حيواتنا الروحية أيسر لنا، وإن كنا نرغب في لقاء حقيقي بالحق فعلياً أن نتهياً لتجربة الحيرة ولا نبحث عن الطمأنينة في صور مريحة مكرورة.

عند الحديث عن "تيار اللاهوت التفكيكي" (داخل السياق المسيحي على الأخص)، اقترح دريدا تطبيقات لاهوتية تنطوي على شَبِّهٍ بالتفكيك أقوى من شبهها بأى شيء آخر، اقترح تطبيق أصالة روحية "عارية":

... ثمة موضع يتحرر عنده اللاهوت مما تطعم به، وينعتق من الأنا الأعلى الميتافيزيقي الفلسفي، بحيث يكشف عن أصالة "الإنجيل"، أصالة الرسالة الإنجيلية. ومن ثم، فالتفكيك تقنية مفيدة من منظور الإيمان، على الأقل في نقد النزعة الأرسطية أو التوماوية، وكذلك من المنظور المؤسسي؛ فالحاجة ماسة إلى نقد المؤسسة اللاهوتية من أولها إلى آخرها، تلك المؤسسة التي وارتت على ما يُظن- الرسالة المسيحية الأصيلة وأخفتها. [ذلك موضع يبدو عنده أيضًا أن الإيمان الحقيقي كائن عند أطراف الكتاب المقدس وشديد القرب منه على حد سواء، وأنه لإيمان يمضي على طريق حُرٍّ مغامر محفوف بالمخاطر (التشديد من عندي)^(٩٣).

ويرغم اختلاف السياقات، يبدو أن دريدا- في حقيقة أمره- يقول قولاً يماثل قول ابن عربي مماثلة تلفت الانتباه: الأبنية "الميتافيزيقية الفلسفية" التي قد حاولت مؤسسات عديدة (من أمثال الأشاعرة والمعتزلة) أن تُبسِّط من خلالها كُنه الله بوضعه في نظام ما على مدى قرون، قد تأسست على "مواراة" الألوهية الحقنة وحجبها. فالحيرة عند ابن عربي تقدم لنا- من طرق عديدة- سبقاً إسلامياً لـ"إيمان يمضي على طريق حُرٍّ مغامر محفوف بالمخاطر". وأنه لإيمان يتحرر من الميتافيزيقا، وإنه ليتحرر من الحُجُبِ والصور والأصنام.

الحيرة موقف مرغوب. في كل من التصوف والتفكيك تظل النقطة الأساسية واحدة: حين نكون متحيرين نرى الأشياء التي تفوتنا ونحن نعتقد أننا نعرف ما نفعله تمامًا. نرى اختلاف الاختلاف the difference of difference.

والحق أن هيدجر يرى رأياً مماثلاً. إذ حين يصيبنا مكروه كأن تتكسر أداة نستخدمها أو نقع ضحية حادث غير متوقع أو نعاني من خيانة صديق أو شريك، فتتعطل مشروعاتنا، نرى بشكل حقيقي- للحظة- أن عالمنا ينبنى ويندرج في سياق يعطيه معنى. ويقول هيدجر إنه في هذه اللحظة التي يحدث فيها هذا "التعطل" نلمح

"عالمية العالم" the worldhood of the world. إن كثرة التجليات المحيرة تجعل المؤمن المنذهل قادراً على لمح "ألوهية" الله، وبالطريقة نفسها تجعل صورُ الآخر المتزايدة باستمرار دريداً قادراً على لمح آخريّة الآخر في تمامه. ومن ثمّ، فاشترك التصوف والتفكيك في اعتراضهما على الفكر العقلاني الميتافيزيقي يجد أيضاً جواباً مشتركاً: إذا كانت الميتافيزيقا تُعمينا/تُحجبنا عن الموقف الحقيقي - وإذا كانت الحيرة أو البلبلة تشلُّ رغبتنا العقلانية في النسق - فعندئذ سنبدأ حقاً في "الرؤية"، بعد أن نكون قد تعلمنا الرغبة في الالتباس والبلبلة وليس الهرب منهما.

هوامش الفصل الثانی

- (١) F. Nietzsche, *Twilight of the Idols*, trans. R.J. Hollingdale. London: Penguin, 1990, p. 35.
- (٢) Found in Ibn 'Arabi, *Fusus al-Hikem*, A. E. Affifi (ed.), Beirut: Dar al-kutub al-'Arabi, 1946, p. 73. Trans. Ralph Austin as *The Bezels of Wisdom*, New Jersey: Paulist Press, 1980, p. 79.
- (٣) Jacques Derrida, *Positions*, trans. Alan Bass, London: Athlone Press, 1987, p. 45.
- (٤) *The Bezels of Wisdom*, p. 254, *Fusus al-Hikem*, p. 200
- (٥) Jacques Derrida, *L'écriture et la Différence*, Paris: Editions du Seuil, 1967, p. 224. Transl. Alan Bass as *Writing and Difference*, London: Routledge and Kegan, 1978, p. 151
- (٦) Anthony Kenny (ed.), *The Wittgenstein Reader*, London: Blackwell, 1994, p. 271.
- (٧) S. H. Nasr and Oliver Leaman (eds), *Routledge History of Islamic Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1996, p. 390.
- (٨) *Ibid.*, p.115.
- (٩) A. E. Affifi, *The Mystical Philosophy of Ibnul Arabi*, Cambridge: Cambridge University Press, 1939, p. xi.
- (١٠) *Ibid.*, p. xix.
- (١١) S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, p. 350
- (١٢) *Ibid.*, p. 311.
- (١٣) *Ibid.*, p. 219.
- (١٤) *Ibid.*, p. 224
- (١٥) J. Habermas, *Philosophical Discourse of Modernity*, Boston: MIT Press, 1987, p.181.
- (١٦) M. C. Taylor, *ErRing: A Postmodern A/theology*, Chicago: Chicago University Press, 1984, p. 13.
- (١٧) J. Ellis, *Against Deconstruction*, New Jersey, Princeton University Press, 1989, pp. 8,13, 66; R. Rorty, *Contingency, Irony and Solidarity*, New York: Cambridge University Press, 1989, p. 125.
- (١٨) C. Norris, *Derrida*, London: Fontana, 1987, p. 156.

- (١٩) Rodolphe Gasché, 'Infrastructures and Systematicity', in J. Sallis (ed.), *Deconstruction and Philosophy*, Chicago: Chicago University Press, 1987, p. 4.
- (٢٠) Muhyiddin Ibn 'Arabi: *A Commemorative Volume*, p. 351.
- (٢١) W. G. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany: SUNY Press, 1989, p. 3. The Arabic edition of the *Futuhat* used is Osman Yahia's four volume *Futuhat al-Makkiyya*, Cairo: Al-Hay'at al-Misriyyat al-'Amma li'l-Kitab, 1972.
- (٢٢) *The Bezels of Wisdom*, p. 65, *Fusus al-Hikem*.p. 62.
- (٢٣) *The Bezels of Wisdom*, p. 79, *Fusus al-Hikem*, p. 73.
- ولعله من المثير للاهتمام أن هذا القول يتعذر تتبع سنده؛ مما يجعل المرء يخمن أن قائله ابن عربي نفسه. ولا يمنع المرء نفسه من التفكير هنا في مقولة إيكهارت: "أضرع إلى الله أن يحررنى من الله".
- (٢٤) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 348; *Futuhat*, II.211.29.
- (٢٥) *Pseudo-Dionysius: The Complete Works*, trans. C. Luibheid, London: SPCK. 1987. p. 58.
- (٢٦) D. Turner, *The Darkness of God: Negativity in Christian Mysticism*, London: Cambridge University Press, 1993, p. 278.
- (٢٧) P. Kamuf (ed.), *A Derrida Reader: Between the Blinds*, Exeter: Harvester Wheatsheaf, 1991, p. 414; French text used is Jacques Derrida, *Psyché: Invention de l'autre*, Paris: Editions Galilée, 1987, p. 168.
- (٢٨) *A Derrida Reader*, p. 217; *Psyché*, p. 33.
- (٢٩) W.G. Chittic, *Sufi Path*, p. 380; *Futuhat* IV.279.26.
- (٣٠) *The Bezels of Wisdom*, p. 87.
- (٣١) *The Bezels of Wisdom*, p. 162, *Fusus al-Hikem*, p. 131.
- (٣٢) Jacques Derrida, "How to Avoid Speaking: Denials", trans. K. Frieden. in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany, NY: State University of New York Press, p. 77.
- (٣٣) بعد انتهاء ابن عربي من كتابه *فصوص الحكم*، كتب عملاً ثانيًا يلخص الموضوعات الرئيسية في *الفصوص* ويشرحها. ولأهمية *الفصوص*، فهذا العمل الثاني (الموسوم بـ *نقش الفصوص*) لاقى أيضًا قدرًا من العناية في التراث الشارح؛ فقد اهتم به جامي - من بين آخرين - وكتب عنه كتابًا عنوانه *نقد النصوص في شرح نقش الفصوص*. وقام بترجمته شينيك تحت عنوان:

“The Imprint of the Bezels of Wisdom”, *Journal of the Muhyiddin Ibn'Arabi Society* 1, 1982, pp. 30-93.

(٣٤) Ibid., p. 91.

(٣٥) Ibid., p. 92.

(٣٦) Ibid., p. 92.

(٣٧) Ibid., p. 93.

(٣٨) Ibid., p. 92.

(٣٩) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 292; *L'Écriture*, p. 427

(٤٠) N. Midgley (ed.), *Responsibilities of Deconstruction*, Coventry: Warwick Journal of Philosophy, 1997, p.16

(٤١) 'La différance' in Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, trans. Alan Bass, Brighton: Harvester Press, 1982, p. 22. French edition used is *Marges de la Philosophie*, Paris, Editions du Seuil, 1972.

(٤٢) Jacques Derrida, *Positions*, p. 84

(٤٣) Ibid., p. 85.

(٤٤) Ibid., p. 45.

(٤٥) Jacques Derrida, *Dissemination*, trans. Barbara Johnson, London: Athlone Press, 1981; French text Jacques Derrida, *La Dissémination*, Paris: Editions du Seuil, 1972, p. 22.

(٤٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 335.

(٤٧) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 336/*Futuhāt* I.266.15.

(٤٨) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 317

(٤٩) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p.338/*Futuhāt* III. 465. 25.

(٥٠) *A Derrida Reader*, p. 253; *Psyché*, p. 210.

(٥١) *A Derrida Reader*, p. 244, *Psyché*, p. 203.

(٥٢) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p.159.

(٥٣) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 151; *L'Écriture*, p.224.

(٥٤) *A Derrida Reader*, p. 249/*Psyché*, p. 207

(٥٥) *A Derrida Reader*, p. 249, *Psyché*, p. 207.

(٥٦) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 281.

(٥٧) *A Derrida Reader*, p. 245, *Psyché*, p. 204.

(٥٨) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 68, *L'Écriture*, p.103.

(٥٩) *A Derrida Reader*, p. 246.

(٦٠) Jakob Boehme, *Six Theosophic Points*, cited in W. Kaufmann, *From Shakespeare to Existentialism*, New York: Doublyay, 1960, p. 35.

(٦١) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 75.

(٦٢) *A Derrida Reader*, p. 248.

- (٦٣) R. Rorty, 'The Reification of Language', in C. Guignon (ed.), *Cambridge Companion to Heidegger*, London: Cambridge University Press, 1983, p. 352.
- (٦٤) Taken from G. Hartmann, *Psychoanalysis and the Question of the Text*, p. 142.
- (٦٥) *A Derrida Reader*, p. 253.
- (٦٦) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 83.
- (٦٧) *A derrida Reader*, p. 253.
- (٦٨) Post-Scriptum: Aporias, Ways and Voices', trans. J. P. Leavery, Jr, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany: SUNY Press, 1993, p. 292.
- (٦٩) Midgley, *Responsibilities of Deconstruction*, p. 34.
- (٧٠) *A Derrida Reader*, p. 248, *Psyché*. pp. 206-7.
- (٧١) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 268, *La Dissémination*, p. 300.
- (٧٢) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 350
- (٧٣) *The Bezels of Wisdom*, p. 76, *Fusus al-Hikem*, p. 70.
- (٧٤) *The Bezels of Wisdom*, p. 79, *Fusus al-Hikem*, p. 73.
- (٧٥) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 22.
- (٧٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 156, II.671.5.
- (٧٧) *The Bezels of Wisdom*, p. 76, *Fusus al-Hikem*, p. 70-71.
- (٧٨) *The Bezels of Wisdom*, pp. 76-77, *Fusus al-Hikem*, p. 71. Austin's notes are in parentheses.
- (٧٩) *The Bezels of Wisdom*, p. 79.
- (٨٠) *The Bezels of Wisdom*, p. 80, *Fusus al-Hikem*, p. 73.
- (٨١) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 380.
- (٨٢) Ibid.
- (٨٣) *The Bezels of Wisdom*, p. 79, *Fusus al-Hikem*, p. 73. Austin's notes in parentheses.
- (٨٤) E. Bloch, *Atheismus in Christentum*, taken from the *Gesamtausgabe*, Frankfurt am Main: Suhrkamp, 1968, vol. 14, p. 95.
- (٨٥) Ibid., p. 287.
- (٨٦) *The Bezels of Wisdom*, p. 80, *Fusus al-Hikem*, p. 74.
- (٨٧) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 73/*Futuhah* II.499.7.
- (٨٨) *The Bezels of Wisdom*, p. 254.
- (٨٩) *Margins of Philosophy*, p. 18, *Marges de la Philosophie*, p. 19.
- (٩٠) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 317.

- (٩١) R. Austin, 'Meditations upon the vocabulary of Love and Union in Ibn 'Arabi's Thought', *Journal of the Muhyiddin Ibn'Arabi Society* III, 1984, 7.
- (٩٢) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 203/*Futuhat*, II.523. 2.
- (٩٣) Kevin Hart, "Jacques Derrida: The "God" Effect", in P. Blond (ed.), *Post-Secular Philosophy*, London: Routledge, 1998, p. 262.

الفصل الثالث

سَدَنَةُ الْكِتَابِ

معنى اللاتناهي في علم التأويل الصوفي والتفكيكي

لعل ما نستخلصه من تاريخ التأويل الملاحظة الآتية: كان الغرض الأول من التأويل فهم كلمة الله وشرحها، ثم شمل هذا الغرض - في نهاية المطاف - محاولة تقنين عملية شرح كلمة الإنسان. ففي القرن التاسع عشر، تعلمنا من هيجل Hegel أولاً، ثم من نييتشه بشكل أعمق، أن الله قد مات. وفي القرن العشرين، قال لنا كوجيف Kojève وتلامذته من أمثال فوكو إن الإنسان قد مات؛ فانفتحت بذلك الأبواب - إن جاز التعبير - على هاوية التفكيك ما بعد الأنثروبولوجي .Postanthropological deconstruction وكما اتسع مجال التأويل وشموله تلاشى مصدرا المعنى الأصليان - الله

والإنسان - آخذين معهما الكون أو العالم، فلم يعد أمامنا سوى ثرثرتنا التي اخترنا- بمحض إرادتنا- أن نسميها فلسفة اللغة أو الفلسفة اللغوية أو ما أشبه من مسميات. فإن كان اللاشئ هو الواقع، وإن كان الواقع هو اللاشئ، فلا فرق بين السطور المكتوبة في نص والمسافات البيضاء الفارغة بين هذه السطور (ستانلى روزن، التلويل سياسة)^(١).

لقد اخترت أن أبدأ هذا الفصل المخصص لمناقشة تصورات عملية التأويل عند ابن عربى ودريدا بملاحظات روزن Rosen التنبؤية لسببين: أولهما أنها تلخص بشكل عميق (مع أنه قد مضى عليها عقد من الزمان) المكانة التى وصل إليها التأويل المعاصر فى استكشافه موت الذات والمؤلف والأعمال المعتمدة الموثوق فيها، وما تبع ذلك من نتائج أثرت فى طريقة قراءتنا الكتب. ومن الواضح أن القضية التى تنصبُّ عليها ملاحظة روزن صارت مألوفة حالياً؛ فانهيار الذات وفقدان الثقة فى الموضوع وزوال العديد من المؤسسات- وبالتبعية زوال علة وجودها اللاهوتية- قد تسبب فى زوال أى معنى راسخ يتداوله الناس. وإن كان القراء والكتّاب على السواء- فيما يقول أحد المنظرين- ليسوا فى حقيقة أمرهم سوى "شبكات من الاعتقادات والرغبات عديمة المركز"^(٢) فكيف تستأنف الموجودات الإنسانية قراءة وكتابة صفحات من الرموز لا تحظى بقبول أو رضى؟ ذلك سؤال واجهه ابن عربى ودريدا على السواء، كلُّ فى عصره، وإن كانت القضية التى كانت مصدر المشكلة عند الشيخ الأكبر هى قضية عدم تناهى العقل الإلهى لا قضية صراع بين منظورات تأويلية متعددة. أما السبب الثانى الذى اضطررنى أن أبدأ فصلاً عن

التأويل الصوفى فى القرن الثالث عشر بذكر "هاوية التفكيك ما بعد الأنثروبولوجى" فيتمثل فى الآتى: بقدر ما يلفتنا عمل دريدا عن النص اللامتناهى إلى أن أفكار ابن عربى معاصرة له بشكل يثير الغرابة، يُلقى فهمُ ابن عربى ما تعنيه قراءة القرآن الضوءً على النسب الأبعد الذى إليه يرجع عمل دريدا.

ولعل من أهداف هذا الفصل تفنيد رؤية روزن التبسيطية الرائجة عن تاريخ التأويل بما هو تاريخ انحدار طويل من عدم التباس الكلمة المقدسة المتعالية إلى فراغ هاوية التفكيك، وذلك من خلال المقارنة بين ابن عربى ودريدا. فى رواية التاريخ هذه، ارتقت حرية القارئ شيئاً فشيئاً بفضل التخلص من هالة القداسة التى كانت تحيط بعملية القراءة، من سجن الكتاب الذى فرضته التعاليم الكنسية إلى حرية النص الدلالية. ونحن نسمع هذا الرأى كثيراً، وبصفة خاصة فيما يتعلق بمرحلة دريدا، فقد عرّف المفكر ذائع الصيت مارك س. تايلور التفكيكَ تحريفاً جديداً بأنه "تأويل" موت الله⁽³⁾؛ مما يدل ضمناً على أن شبح الله غير المُفكك كان لا يزال يطوف بروح عصر التنوير (متخذاً هيئة قصد المؤلف)، فيحدّ من عوامل التغيير ويتجاهل الأغيار ويقيد (وأحياناً يحظر) التفاسير؛ الأمر الذى يدفع المفسّر دوماً إلى بحث عديم الجدوى عن "ما يحاول المؤلف/المالك (A) uthor قوله". ضمن حدود هذا التاريخ، يأتى التفكيك ضربةً قاضيةً على مستوى الدلالة، إذ يبدد- أخيراً- شبح النص ويحررنا من مخافة التفسير المغلوط misinterpretation بإيضاح أنه ما من شيء (بالمعنى الحرفى تماماً) نخشاه.

إن فهم مكانة دريدا فى تاريخ التأويل بهذه الطريقة لا بد أن يتغير. لا لأنه فهم خاطئ من حيث المبدأ، وإنما لأنه فهم يستند إلى نظرة غير سديدة، شديدة التبسيط، للكيفية التى قرأ بها- فعلياً- مفكرو العصور الوسطى نصوصهم. فالتفكيك لم "يحرر" النص من الفهم العليل الذى فرضه اللاهوت، بل على العكس، لم تكن المرونة النصية لدى المفسّر فى العصور الوسطى تقل عن مرونة القارئ التفكيكى حالياً؛ إذ كان يوجد عدد كبير من التفاسير المختلفة، المتغايرة فيما بينها، على نحو ما يحدث

فى أشد الدروس التفكيكية مغالاةً. وهذا التنبه أو التحذير الآتى الذى قاله بورخيس Borges بطريقة لا تنسى - استناداً إلى إيماءة معيارية حالياً فى تاريخ الأفكار - لا يعنى الاستخفاف بما كان عليه عقل العصور الوسطى من تركيب وتعميد:

إن التصور الذى مفاده أن الكتب المقدسة لها قيمة رمزية (بصرف النظر عن قيمتها الحرفية) تصور قديم ولا يناقض العقل...

كان يُعتقد أن العمل الذى أمّلته روح مقدسة نص مطلق. وبكلام آخر، فالنص الذى تسهم فى وجوده الصدفة يُعدُّ صفرًا. هذه الفرضية الأولى الغربية وموداها أن ثمة كتابًا لا تمسه المصادفة ينطوى على أغراض لا تتناهى تلقائيًا - هذه الفرضية جعلت المفسرين يعيدون ترتيب الكلمات المقدسة؛ فصار بهم الحال إلى إيجاد قيمة عددية للحروف، تأملوا هيئاتها ولاحظوا الحروف الصغيرة والحروف الكبيرة، وبحثوا فى أشكال التطريز acrostics والجناس التصحيفى anagrams، كما قاموا بأعمال تفسيرية أخرى تميزت بالدقة والصرامة ليس من الصعب السخرية أو التقليل من قيمتها. وعذرهم فى ذلك أنه ما من شىء يمكن أن يكون عارضًا أو حادثًا فى عمل يمليه عقل لا متناهٍ^(٤).

يلفتنا بورخيس، بأسلوبه البليغ الدال على سعة الاطلاع، إلى أن التعدد الدلالى ليس وقفًا على القرن العشرين بل هو شغف قديم قدم الزُهار Zohar أو كتاب فيلو أمثوليات القوانين^(٥) Philo's Allegories of the Laws، أو شروح ابن عباس رضى الله عنه أو القديس أوغسطين. وفى الفقرة المقتبسة أعلاه، يحيل بورخيس إلى

(٤) يُنسب سفر زُهار إلى الحبر موسى بن شمطوب اللبوني على ما استقر الباحثون مؤخرًا. وهو عبارة عن ديوان من تسعة عشر رسالة تقدم تصورًا صوفيًا قباليًا عن الحروف والأعداد؛ فيجعل لكل علامة فى التوراة معنى باطنيًا. وقد صار "الزهار" مثل المدونة الديونيسيوسية (أعمال ديونيسيوس الأريوباى المنتحل) موضع تزيّدات خرافية. وكان أن حاول المفكر اليهودى فيلو السكندرى (القرن الأول الميلادى) التوفيق بين الفلسفة اليونانية واليهودية مستخدمًا الأمثلة أو التمثيل الكنائى فى محاولته. وقد تم توظيف هذا المنهج فى رسائل الزُهار - المترجم.

القاباليين اليهود Jewish Kabbalists، وليس من الصعب توسيع الإحالة لتشمل ابن عربي (ودريدا نفسه فيما يدعى هابرماس). إن "التدقيقات التفسيرية الصارمة" التي يذكرها بورخيس بوصفها خصائص نص لا تنتهي قراءته - النظر إلى الحروف من حيث قيمتها العددية واشتقاق المعنى استناداً إلى هيئاتها وترتيباتها المتنوعة، واستخلاص أشكال التطريز والجناس التصحيفي من مقاطع الآية حسب ظاهرها - توجد كلها بوصفها خصائص التأويل المعيارية عند الشيخ الأكبر نفسه. وسواء تعلق الأمر، عند ابن عربي، بإعادة تأويله الباطني لتاريخ انتصار دولة الموحدين على الجيوش المسيحية في عام ١١٩٤^(٥)، أو تعلق بفهمه صورة الإنسان (الإنسان الكامل) استناداً إلى حروف اسم النبي محمد، فإن عدم تنامي العقل الإلهي المحيط بكل شيء يحتاط لأى فرق قرآني دقيق، ولأى "احتمال" أو "مصادفة" مزعومة، ولأى انحراف أو تغيير تأويلي، بوصفه تطوراً في الإرادة اللامتناهية يجلب عن الوصف.

وبطبيعة الحال، لم يعد معظمنا يقرأ النصوص بهذه الطريقة؛ إذ من غير المعقول أن نظن ونحن نقرأ رواية ما أن الروائي قد تنبأ من قبل بكل استجاباتنا الفردية للنص التي ينماز بها قارئ عن آخر (شخصيات ما في الرواية تذكرنا بأفراد عائلتنا، أو ذكريات شخصية تثيرها فينا فقرات ما، إلخ). ومع ذلك، فالانفتاح الذي يبديه القارئ التفكيكي نحو النص - فيما يقول دريدا: حقيقة أنه "لا توجد إلا سياقات بلا مركز رؤو مطلق"^(٦)، مما يُحوّل النص إلى ما كينة معنى - meaning-machine تنتج معاني جديدة باستمرار - لا يختلف في حقيقة أمره عن الانفتاح الذي يبديه المفسر الصوفي نحو "القرآن العظيم". وكما قد أوحى بورخيس، يُفجّر عقل المؤلف اللامتناهي^(٧) القرآن فيطلقه في كل الاتجاهات على الفور، مما يسمح له بإلقاء معانٍ متنوعة لا متناهية على عدد من المتلقين لا متناه أيضاً. وفي حالتى التأويل الصوفي والتفكيكي، فالنصوص التي يمكن تأويلها إلى ما لا نهاية موضوع محل نقاش؛ حتى وإن تبانيت من حيث المبدأ الأسباب التي تجعلها تقبل التأويل إلى ما لا نهاية.

(٥) المقصود بـ "عقل المؤلف اللامتناهي" الله الذي أوحى إلى نبيه الكتاب - المترجم.

وبكلمات أخرى، نحن نتناول تناظرًا ينطوي على (ولنقتبس عبارة ماكلنتير MacIntyre) "تراكم تدريجي... لمجموعات مختلفة وغير متجانسة ومتناقضة من النصوص المعتمدة"^(٧) لها وقع اللاتناهي نفسه على النص الحديث كما أن للعجز عن سبر القصد الإلهي وقعه على الكتب المقدسة. إنَّ لا تناهى العقل الإلهي من ناحية، ولا تناهى سلسلة السياقات المعاصرة من ناحية أخرى يؤديان - على السواء - إلى النتيجة نفسها: تكثر المعنى إلى ما لا نهاية. لقد قام دريدا بتقويض تعالي النص وكشف عن سره؛ ألا وهو أنه بلا "سر"، غير أنه لم "يحرره" تحريرًا نهائيًا من مخالب التأويل الأنطولوجوتي المتمركز لوغوسيًا؛ فأعاد إلى النص لا تناهيًا أصليًا كان موجودًا على أيام القديس بونافنتورا^(٨) Bonaventure والحبر موسى بن شمطوب اللبوني Moses de leon والغزالي، ناهيك عن محيي الدين ابن عربي نفسه.

وقد يشعر البعض بقدر انزعاج نحو الاعتقاد في أن دريدا قد أعاد إلى التأويل حسًا قروسيًا باللاتناهي. وما من عجب في أن يُتهم دريدا، أو يُمدح، بنزوعه الصوفي في عدد من المناسبات، وليس الباعث على ذلك مقالات من قبيل مقاله عن "إدموند جابيس" Edmond Jabès. وقد كان هابرماس أول من تهكم على دريدا - استنادًا إلى قراءة التفكيك قراءة عبرانية على نحو ما فعلت سوزان هاندلمان Susan Handelman - فألحقه بـ "التصوف اليهودي" وبصفة خاصة مذهب "القابليين"^(٨). فالكتابة *écriture* عند دريدا بإرجائها اللامتناهي تُحيى من جديد تصورًا صوفيًا عن التراث يراه حدثٌ كشفٌ مؤجِّلٌ دومًا" (ص ١٨٢). فحرف الـ "a" في كلمة *Différance* (= الاختلاف المرجئ) شبيه بحرف الألف عند الحبر

(٧) القديس بونافنتورا (١٢١٧ - ١٢٧٤): إيطالي تعلم في فرنسا. وتقوم فلسفته على تركيبة تجمع ابن سينا وديونيسيوس المنتحل؛ فهو يتصور العالم على صورة هرمية ذات تراتب. أخذ من ابن سينا فكرة النفس بما هي مرآة كل شيء فجعلها "صورة العالم كله"، وقد صارت هي نفسها "عالمًا معقولًا". وأخذ من ديونيسيوس فكرة النظر من حيث هو قدرة استقبالية تتحدد بمكان كل كائن في السلم الهرمي - المترجم.

مندل Mendel (فيما يخبرنا بذلك شولام Scholem): "الاستماع إلى الألف يعنى عدم الاستماع إلى حرف بعده؛ فهو تهيئة لكل اللغة المسموعة، وإن كان فى حد ذاته لا ينطوى على معنى بعينه" (ص ١٨٣). ولا تستغرق قراءة هابرماس بعناية وقتاً طويلاً حتى ندرك أن مؤلف "العقل التواصلى" يشن هجوماً على دريدا أو النزعة القابالية Kabbalism؛ علته الافتتان بأن النص "يقبل القراءة إلى ما لا نهاية" (ص ١٦٦). إذ يودى هذا الافتتان - فى نهاية الأمر - إلى تسوية الفرق بين الفلسفة والأدب. وبتعبير آخر، ثمة تخوف عميق من أن يخلط الناس ماركس Marx بتولستوى Tolstoy وتولستوى بماركس؛ الأمر الذى يفضى بهابرماس إلى استخلاص أن علم التأويل القابالى المُحدَث neo-Kabbalistic hermeneutics عند دريدا يُخفى "رغبةً فوضويةً فى نقض استمرارية التاريخ"^(٩).

وقبل الانتقال إلى المقارنة بين التأويل الصوفى والتفكيكى لا بد من الإشارة إلى أنه إذا كان نقاد من أمثال هابرماس ونوريس يختلفون حول ما إذا كان دريدا ينتمى إلى التراث الصوفى أم إلى التراث الفلسفى، فإن اختلافاً مماثلاً - بدرجة ما - يقع داخل حقل دراسات ابن عربى حول ما إذا كانت تصورات الشيخ الأكبر عن التأويل تنتمى إلى التراث الصوفى المسرف فى صوفيته أم إلى التراث التفسيرى المسرف فى تقليديته. وبتعبير آخر، ثمة اختلاف حول الطريقة التى صارت بها تأويل الشيخ الأكبر مرنة. لقد تركز الخلاف على استخدام مصطلح بعينه، ألا وهو التأويل الذى يعنى حرفياً "المأل إلى"، وإن كان المصطلح - فى هذا السياق - يشير بوجه عام إلى تقنيات صوفية وباطنية فى عملية التفسير الدينى أكثر من كونه مرتبطاً بالإسلام الشيعى. تشجع ممارسة التأويل على تصور أن المعانى الداخلية (الباطنية) فى النص تتكثرت كثيراً لا يتناهى؛ فبدلاً من الاكتفاء بفعل تفسير النص يُحرر التأويل النص، فينقاد القارئ إلى مستوى كلى جديد من المعانى الأكبر. ويُعدُّ هنرى كوربان Henry Corbin مقترح هذه الرؤية الأساسى فى أعمال ابن عربى. ولأن كوربان أمضى سنوات عديدة فى التدريس فى إيران، يميل معظم النقاد إلى رؤية ربط

كوربان ابن عربى بالتأويل جزءاً من رغبته العامة فى تقديم الشيخ الأكبر بوصفه "شيعياً صرفاً"^(١٠). ومن المعروف أن شيتيك يعارض كوربان حين يلحظ أن معظم إشارات ابن عربى إلى التأويل فى كتابه *الفتوحات المكية* إشارات سلبية بشكل واضح. وبطبيعة الحال، ليست معرفة شيتيك بموضوعه وبخصائص مجال دراسته محل نقاش، غير أنه يبدو فى معارضته كوربان مضطراً إلى ادعاء تقليدية التأويل عند ابن عربى؛ بحجة أنه "يوقر النص الحرفى توقيراً عظيماً"^(١١)، وهو ما لا يعقل بعض الشيء. ولا حرج على قارئ *فصوص الحكم* - بما يحويه من معارف صوفية فى حساب الجمل وتتبع دلالات اللفظة تتبعاً غريباً والتفاسير الغامضة وانتقاد النبى نوح ضمناً وامتداح الطاغية فرعون علناً- إن رأى رأياً آخر.

الكتاب عند ابن عربى ودريدا: متى يكون النص الشاعر نصاً لا يتناهى؟

كل موجود يجد فى القرآن ما يريد (ابن عربى، *الفتوحات المكية*، II، ٩٤).

لم يكن ابن عربى أول من اقترح عدم تنهى معانى النص القرآنى، وليست تفاسيره غير المعتادة أغرب ما فى تاريخ التفسير القرآنى. فالغزالي يستشهد فى كلامه عن قواعد تلاوة القرآن (*كتاب آداب تلاوة القرآن*) بحديث أو قول مأثور من أقوال على كرم الله وجهه: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب"^(١٢). إذ لا يتقبل الغزالي - وحاله فى ذلك من حال ابن عربى الذى جاء بعده بقرنين من الزمان - الطريقة الضيقة التى يميل من خلالها العوام (أرباب الظواهر) "إلى إغلاق الباب" أمام التفسير الباطنى (المرجع السابق، ص ٢٤٢)؛ فيدعو إلى مشروعية التفاسير الباطنية حين لا تستجيب الآية لمعنى معقول، بل وحتى تلك الآيات التى يمكن أن يفهمها القارئ العادى فهماً تقليدياً يمكن تفسيرها تفسيراً باطنياً. وفى حقيقة الأمر، لا يؤيد الغزالي قبول النص التفسيري اللامتناهى، بل يتبناه بالقدر الذى يطلق

معه وصف حجاب الجهل على الاعتقاد فى أن تفاسير القرآن الصحيحة هى التفاسير العامة (العقلانية، الواضحة اليسيرة) فقط. ولذا، لا بد من فهم أغير الإشارات فى تأويل ابن عربى على أساس هذه الخلفية.

وعند مقارنة وجهتى نظر ابن عربى ودريدا عن التفسير، لا بد من تأكيد أن تأويل الشيخ الأكبر يتعلق تعلقاً كاملاً- تقريباً- بالقرآن؛ إذ من النادر أن يمتد ما يقوله ابن عربى عن المعنى والتفسير إلى أعمال دنيوية أخرى أو إلى اللغة بوجه عام؛ فالشيخ الأكبر- على عكس دريدا- يجد فى القرآن الكتاب الذى يمتنع بخصوصية أكبر من سائر الكتب^(١٣). ومع أنه توجد مواضع فى كتاب **الفتوحات المكية** تنص على الاعتقاد فى فرادة الذات الإلهية، فإن تجلياتها المتنوعة تفضى بالنصوص كلها، سواء كانت قرآنية أم لا، إلى أن تكون متضمنة فى أشكال الظهور الإلهي:

منا من يراه ويجهله... وكذلك الحب ما أحب أحد غير خالقه ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والسديا والدرهم والجاه وكل محبوب فى العالم. فأفنت الشعراء كلامهم فى الموجودات وهم لا يعلمون ولا يعرفون لم يسمعوا شعراً ولا لغزاً ولا مدحاً ولا تغزلاً... من خلف حجب الصور^(١٤).

وإن كان الله الموجود فى كل مكان وزمان مصدر كل تجلٍ، وهو الحقيقة المحجوبة وراء الظاهر، فما من حكمة عندئذ فى محاولة العثور على الله فى هذا الكتاب الواحد، بل الحكمة هى محاولة رؤية أن الله قد كتب كل كتاب. ومثل هذا الإيمان بوجود الله على المستوى التأويلي فى كل مكان وزمان يبطل إبطالاً قوياً أية محاولة دنيوية لكتابة كتاب "ليس موضوعه الله" ويعطلها. فما الحيز المتاح للدنيوى ضمن حدود رؤية العالم هذه التى ترى كل **ظاهر**- كل "شعر ولغز ومدح وتغزل"- منظوياً على إمكانات إلهية؟

لعل الخاصة الأولى التي توحّد بين نهجَي التفسير الصوفي والتكفيكي هي عدم الإيمان البسيط بسرّ محدود وقاطع في النص؛ أي الإيمان بأن النص ليس وسيلة البلاغ الوحيدة التي يمكن أن تتكرر إلى ما لا نهاية، وإنما هو - على الأصح - حامل يبيثُ معاني جديدة باستمرار طبقاً لموقف القارئ ولحظته؛ مما يعني - عند الشيخ الأكبر ودريدا معاً - أيضاً لا نهاية له من المعاني المختلفة. وترد معظم تعليقات ابن عربي صراحةً على ذلك في المجلد الثاني من كتابه *الفتوحات المكية*:

وبما قلنا في الوجوه أنها مقصود إلهي، فليس يتحكم أحد على الله... ولكنه أمر محقق عن الله، وذلك أن الآيات المتلفظ بها من كلام الله بأى وجه كان من قرآن أو كتاب منزل أو صحيفة أو خبر إلهي فهي آية على ما تحمله تلك الألفاظ من جميع الوجوه، أي على ما هي عليه مقصوده لمن أنزله بتلك الألفاظ الحاوية في ذلك اللسان على تلك الوجوه، فإن مُنزَلَه عليم بتلك الوجوه كلها، وعلیم بأن عبادته متفاوتون في النظر فيه، وأنه ما كلفهم من خطابه سوى ما فهموا عنه فيه، فكل من فهم من الآية وجهاً فذلك الوجه هو مقصود بهذه الآية في حق هذا الواجد له^(١٤).

في المقام الأول، ليس للقرآن (الذي هو "كلام الله") رسالة واحدة بل عدد من الرسائل، يرتهن كل منها بكفاءة القارئ وموقفه. ولا تنتهي هذه الرسائل، أو هي في أقل تقدير تتكرر بتكرار عدد مرات قراءة القرآن (ولا يمنع المرء نفسه هنا من التكثير في قول إسحق لوريا Isaac Luria إنه يوجد ستمائة ألف "وجه" من التوراة على عدد قراءات من وجِدَ من اليهود في إسرائيل زمن الوحي، أو التكفير في اعتقاد أحد الباحثين أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف ومائتي علم، علم لكل حرف من حروف صفحاته)^(١٥). إن عقل المؤلف اللامتناهي [الله] "يقدّر" نصّه تلبيةً لحاجة كل عبد من عبده "على حدة". وقد أحكم الله من قبل هذا الضبط التأويلي، إحكاماً بالغاً. وفي حقيقة الأمر، يستند الشيخ الأكبر في ذلك إلى إحاطة الله الزمنية،

فألوهية الله تتحقق بقدر ما يرى في المستقبل كل الطرق التي يمكن بها لمخلوقاته أن يفهموا كلماته. وطبقاً لابن عربي، فإله قد شاهد- من قبل- ما ينضح به القرآن من إمكانات تفسيرية لا نهاية لها، فهو يعرف مسبقاً الكيفية التي سيتجاوب بها كل فرد- من أفراد هذا الجمع الغفير من الناس- مع "كلمات الله التي لا تنفذ". وترجع أهمية هذه الفقرة المقتبسة من *الفتوحات المكية* إلى أن ابن عربي يقدم فيها سبباً مختلفاً وأكثر تعقيداً يفسر العمق الدلالي اللامتناهي في القرآن؛ وهو سبب يرتكز إلى رؤية الله الاستعدادية لكل قراءات القرآن المترابطة. فالحال كما لو أن المرء يتخيل أن يبدأ شكسبير مسرحيته ماكبث بالنص على أنه يعرف أن ثلاثين ألف دراسة نقدية سوف تكتب عنه.

بحر بلا ساحل: القرآن مثلاً نموذجياً على نصية لا تتناهي

ومما يَسْرَ ذلك كله- بطبيعة الحال- التصور الإسلامي المتميز عن الكتاب الحاوي كل شيء فيه. ثم بعد قليل، نقرأ في *الفتوحات المكية* ضمن القسم نفسه: "ولأن القرآن بحر بلا سواحل، وهو من الله، فهو يقصد كل المعاني التي يطلبها الكلام على عكس كلام المخلوقين"^(١٧). وفي سورة الأنعام: تقول الملائكة(*) للنبي محمد "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (سورة الأنعام، آية ٣٨)، وهي العبارة التي يولع ابن عربي باقتباسها، وبخاصة في كتابه *فصوص الحكيم*، فالقرآن "يشتمل على كل ما وقع وكل ما لم يقع"^(١٨). هذا التصور المعتاد في الإسلام عن القرآن بما هو "الكتاب الجامع"، يعني- عند ابن عربي- أن الإنسان يجد فيه- بالمعنى الحرفي- كل شيء. يحوى نص القرآن (وكلمة "القرآن" بحد ذاتها تأتي من الجذر قَرَنَ بمعنى "يجمع شيئاً إلى شيء") ما لا نهاية له من الصور، فهو بحر من الرموز

(*) لا أعرف لماذا استخدم الموند كلمة angels في هذا السياق بدلاً من كلمة god أو ما يشير إلى الملك جبريل- على التخصيص- الذي نزل بكلام الله (القرآن) على الرسول الخاتم، فضلاً عن أن الظاهر من منطوق الآية أن المتكلم هو الله- المترجم.

ومستودع كل ما يمكن التفكير فيه وما يمكن التفكير فيه. ولنقل بوضوح إن القرآن هو الاستعارة الأقرب التي يمكننا استخدامها عند الحديث عن الله.

إن احتمال ألا يقدر نص ما على الإفصاح عن أي معنى فى ظل سياق مناسب- أى إمكان عدم وجود معنى وحيد أولى يرجع إليه النصُ حتمًا- هذا الاحتمال يُعدُّ إحدى خصائص كتابات دريدا التي تؤدي إلى فهم مغلوط يثير جدلاً قويًا. ولعل تبادل التهم باستخدام الكلمات (لو أمكن هذا التعبير) بين دريدا وفيلسوف اللغة جون سيرل John Searle- الأمر الذى أدى بدريدا إلى كتابة مقاله "توقيع حدث سياق" Signature Event Context- تلقى الضوء على أسباب شعور دريدا بأن "قيمة المعنى الحرفى الصحيح" (*) proper meaning تبدو أكثر إشكالية من أى وقت مضى" (١٩):

تنتج الكتابة علامة تشكل بدورها آلة إنتاج، ذلك أن اختفائى المستقبلى سيحول- من حيث المبدأ- دون القيام بالقراءة وإعادة الكتابة، كما سيحول دون الإنتاج: الإنتاج بحد ذاته (٢٠).

وبمعنى ما، يوسع دريدا ما يقوله ابن عربى عن القرآن ليشمل كل كتاب: فلا نص له معنى واحد أو معنى "حرفى صحيح"؛ فالنص إمكان لا يتناهى من المعانى الوشيقة، يتقبل دومًا القراءة وإعادة القراءة بطرق يختلف بعضها عن بعض اختلافًا جذريًا. وبرغم أن دريدا يُقرُّ بأن السياقات تعطى المعنى فهو يؤكد أنها لا يمكن أن تتحكم فيه؛ لأن النص ينطوى دومًا على "إمكان انفصاله عن مرجعه أو مدلوله بنيويًا" (ص ٣١٨). وعلى عكس تصور ابن عربى عن الله، نحن لا نقدر على توقع الطريقة التى ستقرأ بها نصوصنا، كما لا نقدر على التحكم فى الظروف التأويلية

(*) تشير كلمة proper عند دريدا إلى الدلالات الآتية: الصحيح، الحرفى، الخاص، الخصوصى، الممتلك امتلاكًا شرعيًا وسليمًا؛ بما يعنيه ذلك من الارتباطات بين الخاص proper والملكية property والملاءمة أو اللياقة propriety. ولا بد من اعتبار هذه الدلالات جميعها حين يستخدم دريدا هذه الكلمة التى اخترت هنا ترجمتها إلى: الحرفى الصحيح- المترجم.

التي يتصادف أن توضع فيها نصوصنا. فالمؤلفون ينقشون العلامات على صفحات بيضاء دون معرفة من سيفك شفرتها، وأين ومتى، وطبقاً لأية ظروف.

يتمثل الاختلاف الجوهرى بين هذين التصورين عن النص بما هو "ماكينة معنى" meaning machine فى الطريقة التى يرى بها ابنُ عربى القرآنَ مستودعاً من معانٍ لا تنتهى فلا تنفد أبداً. وإذن، ثمة تصور عن "الامتلاء والغنى" fullness عند الشيخ الأكبر، وهو تصور غريب على النص التفكيكى غرابية مطلقه (إذ يفضل دريدا استخدام كلمة "الوفرة" plenitude)، وبخاصة أن دريدا يحذر مراراً وتكراراً فى أعماله من الخلط بين "التشتيت" dissemination و"تعدد المعانى" polysemeia. فالنص عند دريدا- وهو طفيلى فى الأساس- ليس غنياً إلى ما لا نهاية وإنما هو الفقير إلى ما لا نهاية، ليس النص عنده مستودع ذخائر لا تنفد كما هو حال القرآن عند ابن عربى؛ فالنص يستمد غناه من ما يحيط به، ولا يملك بنفسه شيئاً يقدمه:

إن الخطاب الحى بشبحيته وظيفه وصورته الزائفة ليس شيئاً جامداً وليس عديم الدلالة؛ فهو يدل بالكاد، هكذا حاله دائماً. هذا الدال الشحيح، هذا الخطاب الذى لا يرقى إلى مرتبة شىء كثير، حاله من حال كل الأشباح: هائم على غير هدى errant. يتقلب فى هذا الطريق أو ذاك، شأن شخص ضلَّ طريقه... شأن من فقد رشده وصوابه. إنه نسل مارق منحرف فاسد، متشرد مغامر متسكع، يتيه فى الدروب لا يعرف من هو وما اسمه... مقتلع بلا جذور، لا بيت له ولا وطن. هذا الدال غير الدال تقريباً يبقى تحت تصرف أى قارئ فيلتقطه القدير وغير القدير، أما من لا يعرفون عنه شيئاً فيعرضونه لكل ما لا علاقة له به^(٢١).

وبرغم أن لدينا نموذجين متوازيين عن النصوص التي يمكن أن تعنى كل الأشياء، فإن العلامات الشاردة wandering signs^(*) عند دريدا- التي هي "تحت تصرف أي قارئ"- يمكن تثنيتها أو ليها إلى ما لا نهاية بسبب فقدان ذاكرة amnesia حدث بطريقة ما. وتنتج هذه الليونة الدلالية عن فقدان الهوية. غير أنه يوجد وجه آخر مهم: إذا كانت النصوص عند دريدا تهدد الوحدة أو تنذر بتمزيقها، فهي عند ابن عربي تُعَبَّرُ عنها. هذا الكُنْهُ الفوضوي في النص التفكيكي ("هائم على غير هدى"، "منحرف"، "مارق"، "مغامر"، "مقتلع بلا جذور، لا بيت له ولا وطن") يروغ من السياقات، ويُفَوِّضُ الأنظمة، ويكشف الستار عن صعوبة حقيقة دائمة^(٢٢)، أما أشد تفاسير القرآن تفاوتاً فيدعم- في نهاية المطاف- الوحدة والكتاب الجامع، ويعلمنا أن نرى "التفاصيل في سياق الكل... بوصفها جزءاً من الكل"^(٢٣). إن إلحاح ابن عربي على أن الكتاب "ينهض قائماً" بعد كل قراءة يُعَدُّ أفضل إيضاح للمنزلة التي يعطيها الشيخ القرآن:

... الآخرون يرفعون القرآن من رقاده، ما دام تفسير العلماء يُنيمه بعد أن كان مرفوعاً. فمن أنعم الله عليه بالفلاح يرفع الكتاب بعد أن كان هاجعاً. فيُقرَّ بأن تفسيره له لا يضاويه بحال...^(٢٤).

وبتعبير آخر، في كل مرة "يُستخدم" فيها القرآن (وتعبير "راقِد أو هاجع" يرادف هنا تعبير مقروء أو مفهوم)، لا بد أن يتخذ بعدها وضعية القيام مرة أخرى؛ لتأكيد حقيقة أن دلالاته لا تنفذ. ومما يثير الدهشة أن ابن عربي يمضي أبعد من ذلك؛ فحين يصف القرآن بأنه مُنَزَّة (لا يضاويه شيء) لا يكتفى بقول إننا لا نقدر على إنهاء فعل تفسير القرآن، فيمضي إلى مسألة مختلفة قليلاً؛ ألا وهي أنه ما من تفسير من تفاسيرنا للقرآن يستوعب الكلمة الإلهية الاستيعاب الحق. فالقرآن كتاب لا نتمكن من معرفة شيء عنه، إنه سرٌّ دفين دوماً وأبداً؛ مما يجعل كل محاولاتنا لتفسيره ضرباً من سلسلة تخمينات يائسة.

(*) العلامات الشاردة أو الحائمة أو الجوّالة، وبالمعنى الحرفي: العلامات التائهة، تذكرنا على الفور بأسطورة اليهودى التائه التي أشرت إليها من قبل- المترجم.

وإن كان هابرماس يعزو إلى التفكيك الافتتان بـ"قبول النص القراءة دومًا" ففعل الشيخ الأكبر كان يؤمن بعدم قبول النص القراءة مطلقًا. وحين يوسّع ابن عربي من حدود كلمة تنزيهه حتى تشمل القرآن، فهو يفترض - تقريبًا - أن النص نفسه لا يمكن تناوله؛ فيظل النص ينتج معاني دومًا دون أن يكشف أبدًا عن نفسه، بالطريقة عينها التي يكون بها الحق مصدرًا لا يوصف لكل تجلياته دون أن يظهر بنفسه أبدًا. ولنضع نصب أعيننا نموذجًا آخر على النص الخفى a hidden text الذى "لا يضارعه" أبدًا أى تفسير يُقدّم له، ألا وهو النموذج الذى يقدمه العلامة إيكهارت:

ما من حكيم يحاول سنر غوره إلا ووجده أعمق مما ظنّ فيكتشف فيه أكثر مما اكتشف. ومهما سمعنا ومهما قيل لنا فهو يتضمن معنى آخر خفيًا^(٢٥).

إن أكثر الناس علمًا لن يصل - فيما يرى إيكهارت - إلى قاع الكتاب المقدس، فثمة شيء يروغ ويستعصى دومًا. ويشبه هذا الموقف تعريف الله بأنه متعال وبلا نهاية، شأن تصور إيكهارت عن تفسير الكتاب المقدس. ويستخدم إيكهارت - حاله في ذلك من حال ابن عربي - عنصرًا متكررًا motif مألوفًا فيرى الكتاب المقدس بحرًا (وهى استعارة ترجع على الأقل إلى أوريجينس Origen^(٢٦))^(٢٥). وفى حقيقة الأمر، يمضى ابن عربي إلى حد أبعد؛ فيوسّع التذكرة القرآنية بأن الله يمتنع على التصور امتناعًا مطلقًا ("ليس كمثله شيء"، سورة الشورى: آية ١١) حتى تشمل القرآن نفسه. وهى إيماءة تنقل، بمعنى ما، النص المقدس - فيما يرى ابن عربي - من تصور أنه خزينة كنز لا قرار لها إلى ضرب مختلف من الاستعارة: النص مثل راديو بيت بيتًا أحاديًا، فـ"يفتح" الملف قابلية فهم النص متى أراد، ليوصل معنى ما إلى قارئه المتحير، ثم "يغلق" قبول النص الإدراك بمجرد استلام الرسالة.

(٢٥) لاهوتى مسيحي، يُعدّ أحد آباء الكنيسة. وقد عمل فى حقلى التدريس والتبشير، ووضع عددًا من الشروح التوراتية والرسائل اللاهوتية. عاش حتى منتصف القرن الثالث الميلادى - المترجم.

وفى سياق رؤية معاصرة، ثمة خاصية أخرى فى تأويل ابن عربى يبدو أنها تُرجَعُ أصداءَ إيماءاتٍ تفكيكيةٍ معينة، ألا وهى الطريقة اللافتة للنظر التى يتحدث بها الشيخ الأكبر عن الله والإنسان الكامل والقرآن، فيقدم ما يمكن وصفه- بتعبيرات أكثر معاصرة- بأنه إزالة الفرق بين المؤلف والنص والقارئ. ففى كتابيه **فصوص الحكم والفتوحات المكية**، يتحدث ابن عربى عن هذه التصورات الثلاثة المنفصلة بتعابير وأوصاف متقاربة أو متماثلة. وعلى سبيل المثال، يصف ابن عربى كلاً من النَّفس والقرآن من خلال استعارة "بحر بلا ساحل" ("والنَّفْس بحر بلا ساحل"^(٢٧))، ("القرآن بحر بلا ساحل..."^(٢٨)). ومن ثم، تتكرر فكرة الربط بين الله والإنسان والقرآن باستمرار فى ثنايا كتابيه، فى إطار تصور ينطوى على ما لا نهاية له من الأشياء:

- فله الصَّلَات والوجوه والحقائق بلا حد.

- ... والقرآن العظيم... كلُّ عظيمٍ يجمع فى إهابه كل الأشياء.

- كذلك، كل المعارف اللامتناهية التى يعلمها الله مجموعة فى الإنسان...^(٢٩).

والحاصل لدينا أن الإنسان الكامل والكتاب العظيم يقدمان نفسيهما كوناً صغيراً بالنسبة إلى الله، فهما نسختان مصغرتان من اللاتناهى الجامع الذى يعكس محيطاً من الصور لا حدود له، وذلك هو الله^(٣٠). وحتى نفهم كيف "يهدم" تصورُ ابن عربى الفرق بين المؤلف والنص والقارئ، علينا أن نضع نصب أعيننا كُنْه العلاقة بين الله والنَّفْس فى كتابات الشيخ الأكبر، وهى مسألة "خلافية" لأنه ما من أحد يتقبل المدى الذى يمشى إليه ابن عربى حين يؤكد ألوهية النَّفس ("فالله يمنع السرَّ الحقيقى من أن يُعرف، وهو أنه نَفْسُ الأشياء من حيث الجوهر"^(٣١)). إن سرَّ النَّفس يتمتع بالامتياز لعلاقته بالله؛ فالحقيقة المحجوبة جزء من الله فى واقع أمرها، ومن هنا القول بأن "مَنْ عرف نَفْسَه فقد عرف ربه".

ومن المعروف أن عددًا من النقاد المحدثين قاموا بإعادة تأويل النَّفس التي تفنى نفسها بنفسها صوفيًا في لاشيئية الله، على أساس أن فناءها يمثل تفكيك النَّفس تفكيكًا قويًا شديد المعاصرة (وفي ذلك انظر أحدث أعمال دينيس ترنر Denys Turner عن القديس يوحنا الصليب John of the Cross)^(٣٢). غير أن ما يهمنا في هذا السياق النتائج التأويلية المترتبة على آراء ابن عربي عن الله والنَّفس والكيفية التي تُغيَّرُ بها نشاط عملية التفسير وتؤثر فيه. فإذا كان قارئ القرآن قريبًا أو حتى جزءًا من مؤلف النص الذي يقرؤه - بطريقة ما، مراوغة - فلن يصبح مناسبًا ذلك الفهم التقليدي الذي يجعل العلاقة بين المؤلف والقارئ قائمة على نقل معلومات من كيان منفصل إلى كيان آخر. فعلى الأصح، صار فهم شيء من القرآن - عند المستيرين - عملية تذكر لما قد عناه القرآن مسبقًا. ولعل المظهر الأفلاطوني الأكثر وضوحًا في إبستيمولوجيا ابن عربي، أن كل شيء يعرفه الإنسان - بما فيه ذلك الذي يقرؤه - هو في حقيقة أمره "عملية تذكر وتجديد ما كان قد نسيه"^(٣٣). ومما له أهمية رؤية الكيفية التي يطبق بها الشيخ ذلك على المستوى التأويلي: ما الاستعارة الناجمة عن هذه العلاقة بين المؤلف والقارئ؟ إذا كان مؤلف القرآن قد "أودع"، حقًا، "في الإنسان معرفة كل الأشياء" (المرجع السابق)، فلن تكون عملية التأويل سوى تذكر شيء كامن في الإنسان؛ أي لن تكون سوى تفعيل شيء مستتر، كان موجودًا فيه من قبل. وبذلك تغدو عملية فهم القرآن إسهامًا في اتساعه أو توسيعه.

علم التأويل الإيجابي: احتفاء بتكثر المعنى

إن كان تكثر المعنى خاصية مشتركة في التأويل الصوفي والتفكيكي فهو أيضًا موقف إيجابي وإثباتي في جوهره، يتقاسمه ابن عربي ودريدا؛ فليس في نصوص أيٍّ منهما أدنى مشكلة تتعلق بالحرية المطلقة، كما لا يُبْذَى أيٌّ منهما أيَّ انزعاج أو تخوف أو قلق إزاء حقيقة أن القراء يجدون في نصوصهما ما يريدون. وهذا محتمل في حالة ابن عربي، لأن الشيخ الأكبر يرى توليد القرآن التفسيرات انتقالًا من

الباطن إلى الظاهر، أى يراه تنشيطاً لا يتناهى لباطن الكتاب المقدس الذى لا يتناهى. ومع التسليم جدلاً بفهم الشيخ عملية الخلق بوصفها إيجاداً مستمراً لأشياء موجودة ليست معدومة، فمن غير المدهش وجود موقف مفتوح جسور إزاء تكثر المعانى فى تأويل ابن عربى:

والعلة فى سرعة التغير المستمر ودوامه أن الأصل هكذا. لذا، يهب الله الوجودَ فيخلق دوماً وأبداً بحق منزلته، والوجود الموجود عنه فقير محتاج إليه دائماً. فالوجود كله فى هذا العالم وفى الحياة الأخرى فى حركة دائمة، لأن الإيجاد لا يقع من سكون. فانه فى تحول دائم وكلماته لا تنفذ^(٣٤).

إن رؤية ابن عربى الهيراقليطية عن عالم دائم التغير والتقلب، وعملية الخلق فيه دائمة وأبدية، نجد صورة مصغرة منها فى فعل التأويل. فالقرآن "فى حال جديدة على الدوام"؛ ينتج معانى تختلف باختلاف القراء. وتعنى قراءة القرآن دوام ترجمة باطن آياته إلى ظاهرها بما يتناسب وحياة كل قارئ وظروفه. وفيما يتعلق بذلك، يُعدُّ ابن عربى أرسطى النزعة بكل ما تعنيه الكلمة (وبصمة ابن سينا واضحة عليه تماماً)^(٣٥)؛ فهو يعيد من جديد الامتياز الذى يعطيه أرسطو الواقع الفعلى على الإمكان حين يقدم "الرحمة" (الرحمن) فى تصوره عن عملية الخلق. إذ بالمنة (والامتنان) "يخلص" الله الأشياء الممكنة من "بؤس" اللاوجود بإظهارها إلى حيز الواقع، فينعم عليها- فيما يقول ابن عربى- بـ"متعة الوجود السعيد"^(٣٦). وبهذا المعنى، فالآية التى يتم تأويلها تعلق فى المنزلة على الآية غير المؤلثة. إن قراءة القرآن وفهم معانيه تعنى- تبعاً لهذا المنطق- إسباغ "الرحمة" عليه.

وهذا التصور الذى تعنى فيه عملية التأويل إعطاء النص حياة، بدافع الرحمة، تفترضه سلفاً الحروف الهوائية the pneumatic characteristics فى اللغة العربية؛ وهى خاصية تشترك فيها كل اللغات السامية كما نعرف. فحروف كلمة (محمد)- الميم والحاء والميم والدال- لا تعنى شيئاً إلا بعد أن نضع علامات

الضبط عليها (الفتحة والضممة والكسرة... إلخ) حتى نتنفس من خلالها مُحَمَّدٌ، فننفخ فيها الحياة. وبمعنى ما، تشكل قراءة كل كلمة فعلاً من أفعال التأويل، مادام يمكننا تنفس كل كلمة ونطقها بأساليب مختلفة، مما يغير من معناها في كل مرة. وعلى هذا، فالتصور الذى مفاده أن مجرد قراءة النص تعنى تأويلاً مباشراً له نجد تحققها فى اللغة العربية نفسها.

ومع أن دريدا يشارك ابن عربى فى إثبات تكثر التأويل إثباتاً إيجابياً فهو لا يؤمن بأن "الله علة كل خلاف"^(٣٧)، وإنما يؤمن على الأصح بإثبات غياب المؤلف/المالك A/author وبدعم الارتباط بالأصل كما آمن من قبله نيتشه. وعليه، يصف دريدا أعمال المفسرين المهووسين بـ"المعنى الأسمى" فى النص - ذلك المعنى الذى يضبط كل المعانى اللاحقة عليه ويحددها - بأنها أعمال تبحث عن "توظيف معانٍ قديمة فى سياق جديد" paleonymy؛ الأمر الذى يجسد رغبة لا طائل من ورائها فى حفظ معانٍ موعلة فى القدم: "لماذا الإبقاء على معانٍ قديمة؟ لماذا تكبح الذاكرة دلالات المعنى الجديد؟"^(٣٨). والحال هكذا، لا يعتد دريدا بشيء سوى العلامات المنقوشة على الصفحة، فلا مجال عنده لمثل هذا الحنين، أما تأويله (أو نقضه للتأويل) فناشئة - على وجه الدقة - عن الغياب الذى يُخَيِّبُ رجاء أى نص. وعلى امتداد عمله، يوظف دريدا سلسلة من الاستعارات يصف بها حالة النص فى انقطاعه عن الأصل - فالنص هاوية لا قرار لها، النص يتيم تائه زائغ - بلا أدنى رثاء على هذا التيه الدائم، وبلا أدنى رثاء على تعرُّضه المستمر للاستملاك المتواصل، وهى الأمور التى يستنكرها المفسرون المهووسون بالمعنى الأسمى فى النص:

وعلى هذا، فالوحدة الحروفية المكتوبة التى تكرر نفسها بهذه الطريقة، لا موقع لها ولا مركز طبيعى. فهل فقدتهما إلى الأبد؟ وهل يقوِّض انعدامُ تمركزها المركز؟ أو ليس فى وسع المرء إثبات عدم الإحالة إلى مركز بدلاً من التحسر على غياب المركز؟^(٣٩)

يطلب منا دريدا في أعماله عن التأويل قراءة النصوص دون الانشغال بما يحاول مؤلفوها قوله لنا؛ فيحرص حرصاً صارماً ذا طابع وجودي تقريباً على تأكيد وفاة ذلك الذي كان سيهدينا في طريقنا. إذ بينما يكون الحضور اللامتناهي علة تعدد النص وتكاثره عند ابن عربي- أى حضور الله اللامتناهي في كل التفاسير- يعطى الغياب اللامتناهي النص حريته عند دريدا؛ "فالغياب اللامتناهي هو الذي يوجده"^(٤٠).

الحضور اللامتناهي/الغياب اللامتناهي: إلى أى مدى يمكن قول إن كلمة "infinity" (= اللاتناهي)- في الفرنسية والعربية كل على حدة- تصل بين معجمي ابن عربي ودريدا المختلفين اختلافاً جذرياً؟ وإلى أى مدى يمكن هاتان الكلمتان أن تشكلا جسراً بين "التكاثر اللامتناهي بلا قرار"^(٤١) عند دريدا و"البحر بلا سواحل" الذي يصف به ابن عربي القرآن؟ فهل هما حقاً كلمة واحدة؟ ولعل السؤال الأهم هو الآتي: متى يتساوى استعصاء العقل الإلهي على الإدراك وغياب هذا العقل، من خلال النص؟ وإذا كان عدم تناهي القصد الإلهي وإزاحته ناتجين- على السواء- عن الحرية التأويلية نفسها، فهل سيشغل المرء باله بالإبقاء على فرق بينهما بالمرّة؟

الربانيون والشعراء

تتعلق إحدى صعوبات الإجابة عن هذا السؤال بالتنوع الملحوظ في كتابات دريدا على مستوى النبرة والأسلوب، ويجعل هذا التباين- في النبرة والأسلوب- أية مقارنة دقيقة وبسيطة بين "دريدا" أو "التفكيك" وأى كاتب آخر مسألة معقدة. ولعل مقالتى دريدا الأكثر أهمية عن فعل التأويل - مقاله الموسوم بـ"إدموند جابيس ومسألة الكتاب" (١٩٦٤) Edmond Jabès and the Question of the Book ثم مقال "توقيع حدث سياق" (١٩٧١) Signature Event Context- يمثلان حالة في

صميم الموضوع. ففي مقال "إدموند جابيس"، يستخدم دريدا تراثاً يرجع إلى أبراهام أبو العافية^(*) Abraham Abulafia وإسحق لوريا Isaac Luria والرباني موسى بن شمطوب الليوني Moses de Leon. أما المقال الثاني فهو أقرب إلى فتجنشتين وأوستن Austin وويزدم Wisdom على مستوى الشكل والمحتوى^(**). ويُسرف دريدا في مقاله "جابيس" في استخدام الاستعارات القابالية (مدينة، غابة، صحراء، الكتاب، الحرف)، بينما يغيب هذا الاستخدام غياباً كاملاً في ردّه التقني - أساساً - على سيرل Searle. وإن كان المقالان يعالجان مسائل واحدة - هي: غياب المؤلف بوصفه الشرط الأصلي في عملية التأويل، وعدم الاستقرار الذي يعاني منه النص بشكل حتمي وإشكالي، وانعدام الرجاء في الوصول إلى المعنى والتحكم فيه - فكل منهما يعالجها بلغة مختلفة اختلافاً يلفت النظر. تتشبتت مقالة دريدا عن جابيس بتعليقات وشروحات ربانية؛ مما يجعلها أدخل في التفسير اليهودية المدراسية (= التقليدية) منها في النقد الأدبي، بينما الاقتباس الرباني الوحيد في مقالة "توقيع" هو ج. ج. أوستن. في مقاله عن "جابيس" نعرف أن "الله يفصل نفسه عن نفسه حتى يسمح لنا بالكلام... وما فعل ذلك بالكلام وإنما بالبقاء صامتاً، فترك صمته يقطعُ صوته"^(٤٢)، أما في مقال "توقيع" فتصاغ هذه الفكرة بطريقة مختلفة نسبياً: "إن غياب المرسل عن العلامات التي تركها والتي انفصلت عنه وتداوم على إنتاج

(*) هو أبراهام بن صمويل أبو العافية، تتلمذ على هليل الفيروني، ودافع عن القضية اليهودية أمام البابا نيقولا الثالث فحكم عليه بالإعدام. كان مفكراً يُنظرُ للممارسة النبوية فشرح كيف يرتقى الإنسان إلى درجة النبوة عن طريق تدريبات بصرية وسمعية. يمثل أبو العافية تياراً من القابالاة يوصف بالانجذاب - المترجم.

(**) يُعدُّ عمل فتجنشتين رسالةً منطقيّة فلسفيّة مرتكز تحول فلسفي بدأ يحدث أواسط القرن العشرين؛ مداره محاولة استكشاف العلاقة بين اللغة والوقائع. وقد أصبح عمل التحليليين ليس تقرير أحكام من نوع معين أو عدة قضايا معينة، وإنما حل المشكلات التي نشأت نتيجة سوء فهم منطق اللغة، وذلك بتحليل اللغة تحليلاً منطقيّاً. وقد أثرت هذه الفكرة تأثيراً عميقاً في فلسفة التحليل في مدرستي كمبردج وأكسفورد، وبخاصة عند جلبرت رايل وأوستن وستروسن وويزدم. ولما جعل فتجنشتين من قضايا الميتافيزيقا شيئاً خالياً من المعنى، كان لهذا الاتجاه أثره الكبير في فلسفة الوضعية المنطقية وبخاصة عند آير - المترجم.

معانٍ تتجاوز حضور المرسل... هذا الغياب يُعزى إلى بنية أية كتابة^(٤٣). وتصاغ الكتابة بما هي ترحال في عبارة من قبيل: "الكتابة لحظة صحراء، والصحراء لحظة انفصال"^(٤٤). ويعيد دريدا تقديم هذا التصور في مقاله "توقيع" على النحو الآتي: ثمة "تية جوهرى، علته أن الكتابة بنية تقبل التكرار بلا أدنى مسئولية على الإطلاق"^(٤٥). ما أريد قوله إن التصورات الواحدة في جوهرها يُعبّر عنها بألفاظ مختلفة وباستعارة عنقودية: مرة بلغة التراث التفسيري الربّانى اللاهوتية التى يحاكيها دريدا بوضوح تام في مقاله عن جابيس؛ يحاكيها أو يسخر منها (وبخاصة أنه يسمى نفسه "Reb Derissa" (= الثائر دريدا)^(٤٦)، ومرة أخرى بمصطلحات مدرسة أكسفورد الأكثر دقة ووضوحًا (أوستن، رايل Ryle، وأشباهم)، وهو جهاز اصطلاحى يشدد على تحديد النماذج ووضوح التعبير.

أما أية لغة منهما يرتاح إليها دريدا فأمر يظل رهن الحدس والتخمين. وقد حاول بعض الباحثين وضع دريدا في خانة سقراطية/سامية جاهزة سلفًا؛ لعل آخرهم جون كابوتو الذى يرى أن التفكير "نبوى" أكثر منه لاهوتًا سلبيًا، فهو أقرب إلى الأنبياء اليهود منه إلى الأفلاطونية المُحدثة المسيحية^(٤٧). وتنطوى هذه المحاولات على مخاطر واضحة؛ لأنها تفضى بالمرء إلى تفسير آراء مفكرين يُجاهرون بعلمانيتهم تفسيرًا دينيًا، وإن كان توماس ألتيذر Thomas Altizer أكثرهم عمقًا بتأكيده أن جانبًا من دريدا "مفكر يهودى لاهوتى"^(٤٨) دون إنكار الدور الذى تلعبه الشاعرية واللاشئئية فى عمله. يساوى ألتيذر فى مقاله "التاريخ نبوءة" History As Apocalypse الإزاحة التفكيكية لأصول النص بالـ زيم زام -Zim-Zum، وهى اللحظة القابالية التى انسحب فيها يهوه إلى نفسه حتى يمكنه القيام بعملية الخلق. ويُعيننا ألتيذر على فهم أن دريدا- فى مقاله عن جابيس- يعالج بلغة دينية توراتية ما كان قد عالج به النص من قبل بلغة علمانية؛ ففى مقاله "جابيس" تبدو حرية النص فى حقيقة أمرها هبة صمت الله، أى هبة ناتجة عن قراره بالانسحاب من المشهد حتى يترك مخلوقاته تشكل عقولها بنفسها. أما فى مقاله

"توقيع" فلا تحمل عبارة "غياب المرسل" مثل هذه الطمأنينة اللاهوتية. فـ"التيه الجوهرى" الذى يعاينه النصُّ يحدث فى كَوْن بلا مراكز؛ فى كَوْن بلا مواضع إحالة خفية أو ظاهرة.

غير أنه لا شىء من ذلك يقرّبنا من ابن عربى؛ فأسباب عدم تنهى النص ثلاثة، ألا وهى: نص يمكنه قول أى معنى لأنه بلا مؤلف (دريدا)، ونص بإمكانه قول أى معنى لأن مؤلفه قد تنحى عن التحكم فيه (التصوف اليهودى القابالى)، ونص بإمكانه قول أى معنى (و"يعنى" ما يقول) لأن مؤلفه يقصد كل معانيه (ابن عربى).

ومن حيث المبدأ، فالاختلاف الأساسى الذى نواجهه باستمرار بين ابن عربى ودريدا فى تصورهما عن التأويل اللامتاهى يتوقف على قضية الرسالة. إن تصورَ النص بما هو رسالة مرسلّة من كيان إلى آخر لتقول معنى واحداً محدداً تصورٌ مُبَيَّنٌ فى جذر كلمة hermeneutics (= تأويل) (ولنتذكر أنها مشتقة من كلمة Hermes التى تعنى رسول الإله)؛ الأمر الذى يفسر نفور دريدا من طريقة التأويل الروسوى الربّانى^(*)، وهى طريقة (ولنستخدم تعبير آلان باس Alan Bass الموفق) "ترى التأويل رجوعاً حتمياً إلى حقيقة أصلية"^(٤٩). وبكلمات أخرى، يوجد نوعان من التأويل: تأويل الشعراء وتأويل الربّانيين. لا يزال الربّانى يسعى - غير واعٍ بـ"اختفاء الله منذ زمن بعيد أو اندثار الإنسان"^(٥٠) - إلى البحث عن الأصل، لا يزال يحنُّ إلى استرداد المعنى، لا يزال يعتقد أن النص فى جوهره حامل رسالة: رسالة يقينية آتية من مكان يقينى. أما الشاعر فى تصور دريدا فيفهم فى النهاية سرّاً أغوار النص مدركاً أن ورقة الرموز التى أمامه "بلا موقع طبيعى ولا

(*) يقصد المؤلف من هذا التعبير أن الفيلسوف جان جاك روسو - فى قراءة دريدا له - يقيم دعائم فلسفته على رجوع حتمى إلى حقيقة أصلية فأشبهه اللاهوتيين الربانيين. وقد استكشف دريدا فى كتابه علم أنساق الكتابة الاستراتيجيات التفكيكية التى تملئها هذه الفلسفة دون قصد منها، من أجل مزيد من التفاصيل يمكن مراجعة الترجمة العربية لكتاب دريدا تحت عنوان: فى علم الكتابة، ترجمة وتقديم أنور مغيث ومنى طلبية (سبق ذكره) - المترجم.

مركز طبيعي^(٥١). ويمكن المرء هنا- إحياءً لذكرى الوجوديين الفرنسيين- الحديث عن التجاوب "الأصيل" مع النص عند دريدا؛ فالقراءات الشعرية- على عكس القراءات الربانية- تواجه الشاعرية أو الفراغ أثناء فعل القراءة نفسه وتُثَبِّتُه، فلا تخشى غياب المرشد أو الدليل.

إن كان يمكننا فهم التأويل بوصفه محاولة الوصول إلى الآخر في تمامه *tout autre* أو الآخر الجذري في النص، فلسوف يمكننا فهم السبب في إحساس دريدا بأن "فينومينولوجيا الكتابة أمر مستحيل"^(٥٢)، كما يمكننا أيضًا فهم السبب في أن الشاعر لا يشارك هوسرل الرغبة في الوصول إلى "أساس" النص الذي بواسطته يتأسس "معناه الحقيقي، معناه الأصلي الموثوق فيه"^(٥٣). يؤمن الشاعر بأن سطح النص أمر مطلق، بينما يتكرر الرباني لها. إن كلمات دريدا المشهورة عن الاختيار بين "طريقتين في التأويل"- قرب نهاية مقاله عن ليفي شتروس- تبين بوضوح أنه يوجد عند الجذر أكثر من موقف نحو النصوص أو البحث الأنثروبولوجي:

توجد طريقتا تأويل وطريقتا بنية وطريقتا علامة وطريقتا لعب، تسعى الأولى منهما إلى فك الشفرة، تحلم بفك شفرة الحقيقة أو الأصل الذي ينأى عن لعبة العلامة ونظامها، والذي يقتات على ضرورة التأويل بما هو نفي عن الأصل. أما الثانية التي لم تعد تمضى نحو الأصل فتثبت اللعب وتحاول العبور إلى ما وراء الإنسان والإنسانية، إلى ما وراء اسم الإنسان بما هو اسم وجود يحلم بالحضور الكامل، يحلم بإعادة توكيد الأساس، يحلم بالأصل وبنهاية اللعب^(٥٤).

ومع أن دريدا لا ينص- في واقع الحال- على أيّ طريق هو الطريق المختار؛ فكلمة الاختيار التي يستعملها دريدا في وصف كل طريق تجعل أيّ اقتراح صريح أمرًا غير ضروري: إن فهم النص بطريقة "روسوية حزينة سلبية حنينية شاعرة بالذنب" على أساس أنه شيء يُرْفَعُ عنه الغطاء أو تُفَكُّ شفرته مُقَدَّمٌ-

بطريقة لافتة- فى مقابل إثبات النص إثباتاً "ناشطاً"، "نيتشويًا"، "جويسيًا" Joyous؛ الأمر الذى لا يودى إلى طريق ميتافيزيقى مسدود دلاليًا، بل إلى "مغامرة أثر تتسم بالإبداعية والتطور المستقبلى" (المرجع السابق). وبتعبير آخر، يضع دريدا فرقًا رومانسيًا- من حيث المبدأ- بين وحشة الربّانى المعتمّة الفاترة الوحدوية وهى وحشة تسعى إلى إنهاء اللعب، من ناحية، وتأويل الشاعر وهو تأويل مغامر فرح بسعيه، يرغب فى اللعب واستمرار اللعب فلا يريد إيقافه. وعلى هذا، فالربّانيون والأنثروبولوجيون البنيويون لديهم التصور نفسه بوجه عام؛ فهم جميعًا يرون النص أحجية أو لغزًا وليس مغامرة؛ إذ علينا التقاط النص وردّه إلى حيث ينتمى فلا نستبقه كى نستخدمه لأمر يختلف اختلافًا كاملاً عن ما ينتمى إليه.

ويؤكد دريدا أن تصورى التأويل هذين "لا يقبلان التوليف بينهما بحال من الأحوال"^(٥٥)، وبرغم ذلك فما يقدمه ابن عربى يمثل وسطًا هجينًا بين هذين التصورين من زوايا عديدة. فالشيخ الأكبر- لو استخدمنا تعبيرات دريدا- ربّانيّ وشاعرٌ فى آن معًا. ويمثل تأويله- فى السياق الإسلامى القروسطى- اعتراضًا تفكيكيًا على المعنى "الأصيل"؛ الأمر الذى يحرر النص تحريرًا معاصرًا بكل ما تعنيه الكلمة، وإن كان يستبقى فى الوقت نفسه مفهوم المؤلف بوصفه المرسل الذى يسعى إلى إخبارنا "بمعنى ما"، والفرق الوحيد أن هذا "المعنى" يتغير ويتبدل إلى ما لا نهاية له، من شخص إلى شخص، ومن لحظة إلى لحظة، ومن مكان إلى مكان. يرى ابن عربى ودريدا على السواء أن النصوص قادرة على أن تعنى ما لا نهاية له من المعانى باختلاف القراء؛ غير أن ابن عربى- دون دريدا- يرى "المعنى" متعديًا فى جوهره، ومن ثم فهو معلومات "مُلقاة" إلى القارئ بواسطة "كائن" خارج الكتاب.

قد يجد القراء العلمانيون فى ذلك تصورًا غيبياً أو إعجازياً إلى حد ما، وهم ليسوا فى حاجة إلى مثل هذا التصور. فابن عربى- شأن دريدا- يرى النصوص مناسبات استكشافية مواتية أكثر منها أسرارًا تحتاج إلى فك الشفرة، يراها لحظة "فتح أو انفتاح" (فتوحات) وليست شيئاً مغلقاً. ويتضح ذلك فى سياق ربط ابن

عربي التأويل باستعارات السفر أو العبور؛ ففي كتابه *فصوص الحكم* "يعنى التأويل العبورَ من صورة ما يراه الإنسان إلى ما وراء الصورة"^(٥٦). إن تصور "الموراء" وهو تصور يقبل التفكيك - بكل ما تعنيه الكلمة - ناشط هنا؛ فالشيخ الأكبر كلما تقدم في التأويل لا يجعل من كلمة "معنى" كلمة إشكالية على نحو ما يجعل منها دريدا، ومع ذلك فليست هذه هي القضية، فما له مغزى الكيفية التي يقدّم بها مبدأ المغامرة وعدم اليقين عند مُفكّرَي التأويل ابن عربي ودريدا على السواء. النص عندهما طريق إلى لقاء الآخر بأخريته الجذرية حتى وإن اختلف هذا الآخر واختلفت دلالاته اختلافًا جوهريًا عندهما. ويُعبّرُ ابن عربي عن هذه الفكرة أفضل تعبير في سياق حديثه عن تأويل الأحلام لا عن تأويل القرآن. ففي كتابه *الفتوحات المكية*، يستخدم الشيخ الأكبر مرادف كلمة تأويل؛ ألا وهو كلمة تعبير التي يرجع جذرها إلى الفعل "عبّر" الدالُّ على معنى العبور والاجتياز:

يُسَمَّى الإخبار عن الأشياء عبارة، ويسمى تأويل الأحلام تعبيراً؛ لأن المُعبّر/ المؤوّل "يجتاز" و"يعبر" من خلال ما يقوله. وبكلماته يجوز من حضرة نفسه إلى حضرة نفس المستمع؛ فينقل كلماته من خيال إلى خيال، لأن المستمع يتخيل ما يُقال له على قدر ما يفهم^(٥٧).

إن كانت توجد "لحظة تفكيكية" - لحظة يدرك عندها المفكر أن العلامات في كتابه لا تقودنا إلا إلى مزيد من العلامات، وأن "المعنى" أفق دلالي مستقبلي - فعندئذ يكاد ابن عربي - شأنه شأن روسو - يقترب اقتراباً قَلْباً من هذه اللحظة دون أن يتطابق معها حرفياً. ففي هذه الفقرة يرى ابن عربي عملية التأويل ناقلة الرموز "من خيال إلى خيال"، من صور إلى صور. فالشيخ يحو الفرق بين المُعبّرِ - *expresser* والمؤوّلِ - *interpreter* - بين مَنْ ينتج العلامات ومَنْ يقرؤها - حين يُعيّن لهما جذراً لغوياً واحداً هو: عبّر، الذي يعنى أيضاً اجتاز. يعنى التورط في اللغة - بصرف النظر عن ما إذا كان المرء يؤوّلها أم يُنتجها - الانفصال عنها من أجل عبور عتبة ما، بين الذات والآخر. وعلى هذا، لم تعد عملية التأويل فعل وصول إلى الأصل؛ بل صارت على الأصح بداية إبحار.

ودريدا، أيضاً، مولع بالاستعارات الحائمة الجوّالة في حديثه عن الكتابة، فإنّ كان إبحار ابن عربي في "بحر بلا ساحل" يُشبه النصّ الذي "يعبر من خلال لا مركزيته السلبية"^(٥٨) عند دريدا شبهها سطحياً بشكل معقول - تكرار علامة لا تقبل التكرار أساساً لمجرد أنها تعبر أو تنتقل من سياق إلى سياق - فهو إبحار مرتاب ينطوي على كل الآثار الناشئة عن الانفتاح النصي ومغامرة المعنى المتكثّر. هذا "الإسرافُ المغامر"^(٥٩) ثمرة "العبور والاجتياز"، مقطوعُ الصلة بأصل لا يقبل التمثيل، ولا "طريق له محدّد سلفاً"، وإنما عليه أن يشقّ "طريقه اللامتناهي عبر غمْرٍ موحش بلا أنس" (كما يقول دريدا عن مقدمات لوتريامون (Lautréamont)، عليه أن يمهد لنفسه "درّباً بين ممرات الوحشة... يشق الأرض ويشيد نفسه كلما تقدّم وتطاول"^(٦٠)). ويكاد يستشعر المرء أن الصدفة، بالتوازي مع تعدد السياقات وتكثّرها بلا ضابط أو رابط، قد حلّت محلّ الحق في التصور غير التّأويلي عند دريدا؛ مما يعطى النصّ الذي يتكثّر ويتضاعف في غيبة مرسله مفهومًا غير لاهوتي عن اللاتناهي. ومن ثم، يستبدل دريدا بالعقل الإلهي الذي لا حدّ له بحرًا من إمكانات تأويلية لا حدّ لها (ولا تناهيها غير متعال هنا)، فالنص وإن كان يظلّ واحداً فمن طبيعته المرونة.

تناقضات ذاتية

كتبهم أيضاً تتضمن اختلافاً...
 فجورها الفلسفي ينطوي دوماً
 على القضية ونقيضتها، على
 حجة حاسمة وحجة مضادة لها
 في الآن نفسه. والكتاب الذي لا
 ينطوي على نقيضه كتاب ناقص
 (بورخيس، Tlön, Uqbar, Orbis
 Tertius)^(٦١).

(*) يشير عنوان هذه القصة / المقال إلى أسماء عديدة لكوكب خيالي - المترجم.

يبدل ابن عربي ودريدا جهدًا كبيرًا للتشديد على غياب المعنى الواحد السري عن النص، كما يؤكدان عدم تناهي إمكانات النص الدلالية فلا يؤمنان بقدرة السياق على استيعاب النص كليًا، وكلاهما يريان التأويل /التعبير مغامرات إبحار لا ألغازًا أو أحجيات تحتاج إلى حل... أما الخصيصة الأخيرة المشتركة بينهما فهي التناقض الذاتي.

وينبغي ألا يفهم وصفى لهما بالتناقض نوعًا من الهجوم على أي من ابن عربي ودريدا، وإنما لا يعدو الأمر ملاحظة المخاطر المحتمومة التي تحيط بالمرء حين يكتب؛ وبخاصة حين يكتب عن النصوص وطرق استجابة القراء لها. والتناقض الذاتي ليس هو الأمر الوحيد الجامع بين دريدا وابن عربي، بل نجدهما - كما سوف نرى - يعارضان بطرق شديدة الاختلاف تصوريهما عن التأويل اللامتاهي.

وثمة عناصر ما داخل الدرس الأكبرى والدریدی تجهد من أجل إيضاح أن الأمر ليس كذلك، وأن استبعادهما تأويل بعينها بحجة أنها "خاطئة" أو "فاسدة" لا يفضى إلى إخراج نظريتيهما عن النص. ويهدف هذا القسم الأخير من الفصل، بإيجاز شديد، إلى إيضاح قدر التفاوت - الذى يطرأ أحياناً - بين ما يقوله كل منهما عن عملية التأويل والكيفية التى يمارسان بها التأويل عملياً.

برغم أن ابن عربي يرى القرآن "بحراً بلا سواحل"، فلم يمنعه ذلك من استبعاد بعض تفاسيره بحجة أنها "فاسدة" أو "بعيدة الاحتمال" أو بحجة أنها كما يقول (تأويل بعيد)^(٦٢). فمن جهة، يحرص ابن عربي فى بعض مواضع من الفتوحات المكية على إيضاح أننا نحجم عن تفاسير بعينها أو أفكار ما، بحجة أنها "مستحيلة" أو ضرب من المحال، غير أنه أمام عظمة الله لا يوجد مستحيل أو محال:

- ما أوسع حضرة الخيال! يتجلى فيها المحال...^(٦٣)

- الخيال وهو خلق من مخلوقات الله بلا حدّ يحدّه، فما بال مَنْ خلقه...؟ فكيف تحكم بأن الله محدود وتقول إن الله لا يقدر على فعل المستحيل؟^(٦٤)

يوجّه ابن عربي نقده- هنا- إلى المفكرين العقلانيين الذين لا يعتدون بـ"العطاء الإلهي" (الوهب) فيعتدون بملكاتهم العقلية (العقل) للتحقق من ما هو صحيح وغير صحيح. وبمعنى ما، تشكل هذه الفقرة جزءاً من سجل ابن عربي الطويل مع المفكرين العقلانيين الذين يستبعدون أية قراءة للقرآن لا تتفق مع تفسيرهم بحجة أنها "فاسدة". ويستخدم ابن عربي في هذا السياق عدم تناهي الخالق (الذي لا يحده حد) ليقوّض أية محاولة تقف عند حدّ السلامة العقلية. وبتعبير آخر، يتخلّى ابن عربي عن تصورات الإمكان والاستحالة بما هي معيار، له اعتباره، في الحكم على ظاهرة الله الذي يقع خارج نطاق الممكن والمستحيل: "إفإن كان المستحيل يقع [فأين حكم ملكة العقل على الله وعلى فساد التفسير؟] (المرجع السابق). فإن كان الله غير متناه وقادرًا على كل شيء- ممكناً كان أم مستحيلًا- أقمّن اللائق استخدام ملكاتنا العقلية المتناهية في وصف أيّ تفسير بأنه "فاسد"؟

ومع ذلك، يرى ابن عربي أن ثمة تفاسير "بعيدة الاحتمال" لسببين. ففي بعض الحالات يرتاب ابن عربي في الدافع من وراء تفسير ما، فعلماء السلطان الذين "يسعون إلى نيل مكانة رفيعة عند الملوك" يفسرون القرآن بحيث "يتماشى مع الأهواء الشخصية" لمن يجزّلون لهم العطاء^(٦٥). وثمة علماء آخرون ينتقدون ابن عربي لأنهم "ليسوا معتدلين فينغمسون في تفاسير لا تناسب بين ظاهر الكلام ومعناه"^(٦٦)، وهؤلاء هم الأكثر أهمية في نقده. إذ يؤكد ابن عربي في كثير من المواضع أنه لا بد من صلة بين المعنى الحرفي والتفسير، بين الباطن والظاهر، وإلا كان المفسر "غائصاً" دون توقيف الحقيقة.

إن هذا الإصرار على بقاء التفسير مخلصاً للنص الأصلي مرتبطاً به- بطريقة ما- مسألة مهمة علينا وضعها نصب أعيننا؛ وبخاصة حين نصادف في كتاب **فصوص الحكم** فقرات تستهجن طريقة أمثال ابن تيمية في التفسير. والحق أن ابن عربي يميل في مواضع عديدة من كتابه **فصوص الحكم** إلى إدراج آيات وقصص قرآني معروف في نسقه الفكري الخاص معطيناً إياها معاني تختلف

اختلافًا جذريًا عن المتعارف عليه في تفسيرها. وعلى سبيل المثال، يفسر ابن عربي آية صريحة واضحة من قبيل "اتقوا ربكم" (سورة النساء، آية ١) ليعنى بها "اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم [الحق]، وهو ربكم، وقاية لكم"^(٦٧). ولا يمنع المرء نفسه من التفكير في هيدجر هنا، فهو يأخذ جملة شذرية من فلاسفة ما قبل سقراط من أمثال أناكسمندر Anaximander، وتُكن مثلًا: "هنا أيضًا تظهر الآلهة إلى الوجود"، ثم يعيد تفسيرها ليدل بها على أفكار هيدجرية مخصوصة من قبيل: "مسكن الإنسان المألوف منطقة مفتوحة لحضور الإله"^(٦٨). ويصعب في أيّ من هذين المثالين الوقوف على موضع المناسبة بين الأصل وتفسيره. حتى مبدأ التفسير عند القديس أوغسطين (عدم الميل إلى التفسير الرمزي إلا في حالة عدم وضوح المعنى الحرفي) الذي يتصادى معه ابن عربي في مواضع بعينها من **فصوص الحكم**^(٦٩)، لا ينطبق على تفسيره في الموضع السابق نظرًا لوضوح الآية.

وثمة خاصية أخرى في تأويل ابن عربي تجعل القرّاء مرتابين في آراء الشيخ الأكبر عن "التفاسير بعيدة الاحتمال"، ألا وهي حرصه على إعطاء هيئة ترتيب حروف أسماء الرسل قدرًا من المعنى الذي يقبل التفسير. وعلى سبيل المثال، ففي الفصل السابع عشر من **فصوص الحكم** وعنوانه "فص حكمة وجودية في كلمة داودية"، يلحظ ابن عربي أن اسم النبي داود يتكون من حروف منفصلة بينما يتكون اسم النبي محمد من حروف متصلة وحروف منفصلة في آن معًا. وانطلاقًا من هذه الملاحظة يخبرنا الشيخ الأكبر بأن الله "أنعم" على داود بأن أعطاه اسمًا ليس فيه حرف من حروف الاتصال "فقطعه عن العالم"^(٧٠)، بينما المقصود من اسم النبي محمد الذي يجمع حروفًا متصلة وأخرى منفصلة إظهار أن الله "وصله به وفصله عن العالم، فجمع له بين الحالين في اسمه" في آن معًا (المرجع السابق). وإذا كان مؤلف النص هو اللامتناهي نفسه، فمن الواضح أنه لا مجال للاختيار هنا؛ فكل حركة على كل حرف وكل عدد من الحروف الصامتة في مقطع شعري، أو سطور على الصفحة، لا بد أن تتطوى على معنى دقيق مقصود.

وبمجرد أن يدخل المرء إلى هذه النظرة العالمية **Weltanschauung**، فمن اليسير فهم السبب في أن الشيخ لا يرى في ممارساته هذه تأويلاً "بعيد الاحتمال"، أما الأكثر صعوبة فهو فهم السبب في أنه يرى ممارسات الآخرين "بعيدة الاحتمال". ولعل إيمانه بأن النص مركب تركيباً خاصاً بتقدير وقضاء إلهي مسبق لا يجعله مقيداً بنظام الحروف الرمزي؛ إلى درجة أن قراءة فقرة ما بكيفيات مختلفة يمكن أن يثمر أسراراً مختلفة بالنسبة إلى قارئ من الله عليه بالهداية. ففي كتاب الجلال، يؤكد ابن عربي قيمة الوقف أثناء قراءة آية من القرآن:

من الضروري لك الوعي بالفروق بين كلام الله العليّ وأنت تقرؤه.
فمثلاً، يقولون:

إذا لقوا الذين آمنوا

وقفه ثم:

قالوا "آمنا"

وقفه، ثم:

وإذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا

وقفه، ثم:

"إننا معكم، إنما نحن مستهزئون"

وقفه، ثم قل:

الله يستهزئ بهم (سورة البقرة، الآيتان: ١٤، ١٥).

فإذا قرأت الآية بهذه الطريقة في الوقف، عرفت أسرارها وميزت ظروف الخطاب وحكاية الأحوال والأقوال والأعمال... فاعرف ذلك^(٧١).

لا تكفى قراءة القرآن بطريقة مباشرة؛ فالثراء اللامتناهى الذى ينطوى عليه كلام الله يعطى معانى مختلفة لو قُرأ بطرق مختلفة؛ وكل معنى من هذه المعانى على حدة مقصود. يقوم الشيخ الأكبر - هنا - بتقطيع الآية تقطيعاً غير تقائدى فينشئ سياقاً جديداً لها، الأمر الذى يؤدى إلى اكتشاف "أسرار" تفتقدها القراءة "العادية". ومن حيث المبدأ، إن كان القرآن "بحراً بلا سواحل" حقاً، وإن كان مؤلفه قَصَدَ سلفاً كل معانيه التى يمكن تصورها أو إدراكها، فالسؤال الآتى يفرض نفسه حتماً: هل يمكن المرء الاستشهادَ بنص غير متناه خارج السياق؟ ثم أفلا يمكن الاستشهاد بآيات الكتاب "الجامع" استشهاداً مغلوطاً أو مُسيئاً؟

إذا كان ابن عربى يستبعد بعض التفاسير لأنها "بعيدة الاحتمال" فلا ريب أن السبب لا يكمن فى أن الخطأ قد "استشهدوا به خارج السياق". فكما رأينا، يؤسس ابن عربى اعتراضاته عليهم إما على عدم إخلاصهم أو على عدم رغبتهم فى التمسك بـ "المعنى الحرفى" (الظاهر) فينتقلون إلى معناه الداخلى (الباطن). وقد أدى ذلك كله ببوليام شيتيك - وهو أحد الباحثين التقديرين البارزين فى نقد ابن عربى - إلى أن يكتب الآتى: "يجلُّ ابنُ عربى النصَّ الحرفىَّ تبجيلاً عظيماً" (٧٢). وكما قلنا، يتخلى ابن عربى فى تأويله عن "ما يناقض المعنى الحرفى فى القرآن والحديث" (٧٣). وإن كان لا بد من استبعاد تأكيدات شيتيك فليس ذلك بسبب ثغرات فى دراسته، بل لأن تعبيرات من قبيل "المعنى الحرفى" عند ابن عربى لا تنطوى على أى معنى حقيقى. إذ حين يقرأ مؤلف **فصوص الحكم** نصاً يدين فى ظاهره فرعون فيردّ عليه بنص بمتدحه - وهو بذلك يصون حرفية الآية - فلا بد أن تصوراً استثنائياً عن "تبجيل النص الحرفى" يسرى هاهنا؛ إذ من الصعب فهم ما يريده ابن عربى بإصراره على وجود مناسبة أو علاقة بين النص والتفسير، وبخاصة حين يعيد تفسير سورة نوح فيجعل عبدة الأوثان أولياءً ونوحاً ضالاً. وعلى أية حال، لا بد من إنشاء تصور جديد تماماً عن "الحرفية" حتى نقبل تأكيدات الأستاذ شيتيك.

وكذلك يمكن قول قصة مماثلة عن التفاوت بين النظرية والممارسة عند دريدا، وإن كان "موظفو مناهضة التفكيك" (كما يسميهم دريدا)^(٧٤) لم يرددوها كثيراً؛ فكلهم حريص على تحديد نقطة عمياء متمركزة لوغوسياً في أعمال دريدا بغرض الوقوف على العنصر المتحكم في لعبته. ويكفي القول بأن دريدا يعي وعياً واضحاً على الدوام مخاطر الكتابة- ضمن حدود اللغة- عن عدم استقرار اللغة؛ غير أنه وعى لم يمنعه من شعوره بأحقّيته في ملكية نصوصه، وبخاصة حين يعارض استملاكات الآخرين لها التي تأتي على غير هواه. وباستثناء "دهشته المستكثرة" التي أبدأها إزاء حظوظ كلمة "تفكيك" (حيث عبّر عن قدر من الاستياء إزاء بعض التوظيفات الأمريكية لأعماله) فإن مشهدية النص الحائم أو التائه على غير هُدى- التي يرسمها دريدا- تتفوّض بفعل محاولاته الدفاعية التي يحرص فيها على أن تُقرأ أعماله بطرق دون أخرى. ويتضح ذلك بصفة خاصة من ردّه على قراءات ربطت أعماله باللاهوت، وهي قراءات سعت إلى ربط الاختلاف المرجئ *différance* بـ"الله في علم اللاهوت السلبي"؛ الأمر الذي أصابه بتوتر شديد. وقد خصص دريدا ثلاث مقالات منفصلة يشرح فيها أنه ليس صوفياً يعتزل على ضفة نهر الراين غرب ألمانيا، ولا مؤسس جماعة باطنية. غير أنه حين نضع نصب أعيننا ملاحظات دريدا عن مساعى فرويد الحريصة على ألا يحدد أتباعه عن منهجه لن يصعب علينا ملاحظة مناورات دريدا دون أن يتابنا الشعور بمفارقة ظاهرة.

في أحد السجلات الدائعة المعنية بالعلاقة بين التفكيك وعلم اللاهوت السلبي، لم يكتف دريدا بعدم تقبل التفاسير التي تربط أعماله باللاهوت السلبي، بل لم يتقبل أيضاً القراءات التي جعلت من ديونيسيوس المنتحل والعلامة إيكهارت أسلاف التفكيك. وفيما يقول دريدا، يرجع عدم تقبله إلى شيوع مفهوم "الطهر والنقاء" في كتابات هؤلاء المتصوفة؛ وهي "خبرة لم تسمح [لهم] بقول شيء مهم"^(٧٥). إن الحضور في هذا النوع من كتابات اللاهوت السلبي عن "الجوهرائية العالية" يعنى أن نصوصهم تنطوي دائماً على "شيء" تقوله، وعلى اتجاه ما ترحل

فيه، وعلى قراءة "خالصة" ما تحفظ وتصون. وعلى هذا، فكتاباتهم تتعارض ضمناً مع كتابات دريدا؛ لأنها ليست كتابة متحررة حقاً.

غير أنه يمكن المرء القول بأن الرغبة في النقاء أو الطهر هي التي يكشف عنها دريدا بنفسه حين يحاول عزل التفكير عن "أسلوب علم اللاهوت السلبي ومداوراته وطبيعة تركيبه"^(٧٦). ففي فقرة من مقاله "حاشية" Post-Scriptum الذي يروى فيه دريدا كيف أن علم اللاهوت السلبي يفى بـ"وعده الفلسفى أو الأنطولاهوتى الذى يبدو أنه يُخل به"^(٧٧)، يكتب دريدا الآتى:

أعتقد على العكس أن كل نص ينفى عن نفسه أنه لاهوت سلبي ملوث- بطريقة ما- باللاهوت السلبي، حتى هذه النصوص التى تصرح بأنها ليست لاهوتاً سلبياً، فتريد أو تعتقد أنها لا ترتبط باللاهوت من قريب أو بعيد (التشديد من عندى).

وما يريد دريدا قوله هو الآتى: ما دام اللاهوت السلبي يصر على أن المرء لا يعرف ما يكونه الله إلا من خلال ما لا يكونه، فكل خطاب- حتى ذلك الخطاب الذى يدعى أنه "لا يرتبط باللاهوت من قريب أو بعيد"- هو ضمناً بيان عن الله. ولكن ما يعيننا هنا الكيفية التى تصبح بها كلمة "ملوث" متضمنة فى إعادة الاستملاك الأنطولاهوتى الباطنة فى كل خطاب. ولعل إشارة دريدا إلى "هذه النصوص التى ترغب... عن... أية علاقة باللاهوت من قريب أو بعيد" تشمل أيضاً كتاباته؛ وهى الكتابات التى تسعى إلى اشتراع طريقة انتقاد الأنطولاهوت، فتظل "ملوثة- بطريقة ما- بعلم اللاهوت السلبي". ويضطر المرء إلى التساؤل: لماذا "ملوثة"؟ أمن الواجب صيانة "نقاء" المشروع التفكيرى وطهره؟ ألا بد ألا يتسرب إليه اللاهوت السلبي (فلربما يستولى عليه)؟

لا ريب أن هذه الأسئلة تفضى بنا إلى مناقشة وضعية التفكير، وهى مناقشة معتادة ومفروغ منها بمعنى ما. وليس ما يشغلنى الآن إحياء الخطوط العامة فى

السجال الشهير (جاشيه/ رورتى/ نوريس وآخرون) بنتائج المعروفة؛ بل غرضي تسليط الضوء من أجل إيضاح أنه حتى دريدا لا ينجو من مفهوم "النقاء أو الطهر" و"التلوث". إذ من خلال رغبته في الإبقاء على "مسافة لا تتناهى" بين كتاباته وكتابات علم اللاهوت السلبى (وكتابات أخرى) كان عليه أن يصون "نقاء" أو "طهر" خطابه واختلافه المرجئ بمعزل عن أية صورة من صور "التلوث" الميتافيزيقي؛ الأمر الذى يفرض عليه ضمناً القيام بمهمة إشكالية، ألا وهى إقرار أى تفاسير أعماله هو "الصحيح" وأياها "بعيد الاحتمال".

فى بداية مقاله الشهير عن الترجمة، يتأمل بنيامين وضعيّة نص لم يقرؤه أحد من قبل ولن يُقرأ، وما إذا كان أى أحد بقادر على قول إنَّ مثل هذا النص يعنى شيئاً:

قد يتحدث المرء مثلاً عن حياة أو لحظة لا تُتسى وإنْ نسيها كل الناس. فإنْ كان من طبيعة هذه الحياة أو اللحظة ألا تُتسى فلن تتطوى دعوى عدم النسيان على كذب أو خداع، وإنما على مطلب لم يحققه الإنسان بعد، ولعلها تتطوى أيضاً على إشارة إلى عالم يتحقق فيه هذا المطلب، هذا العالم هو ذاكرة الله God's remembrance. وعلى نحو مماثل، لا بد أن نضع فى حسابنا قابلية ترجمة الإبداعات creations اللغوية وإنْ ثبت أنَّ الناس عاجزون عن ترجمتها^(٧٨).

تضفى هذه الفقرة على مقال بنيامين نبرةً شديدة الغموض وغريبة عليه، بأصدائها الشبيهة ببوذية الزنّ التأملية؛ فورقة الشجرة التى لا يبالى بها أحد قد تسقط على الأرض أو لا تسقط. وما يثيره بنيامين فى الأساس (كما أشار دى مان)^(٧٩) إمكان عدم بشرية inhumanity اللغة. ولعل إمكان هذه اللغة أمر مستقل تماماً عن الإنسان، فلا تتعلق به من حيث هو أصلها، ولا تستند إليه من حيث هو غايتها. ويبدو أن بنيامين يقول إن القارئ لا علاقة له بالنص.

وينطوى هذا التصور الذى مفاده وجود نص معزول بعيد المنال- أى وجود ذلك العالم الداخلى الصامت الذى لا يحس به أحد أو شيء- على قدر من الغموض يلائم الإلهى والدنيوى على حد سواء. فمن ناحية، يَسْعُنَا بنيامين بإمكان وجود نص له حياته المستقلة تماماً، تائهاً فى فراغ، لا يقرؤه أحد، ولا يراه أحد، نص حيادى تماماً. ومن ناحية أخرى، يقدم الله (ربما ليطمئننا) بالطريقة التى يقدم بها باركلى Berkeley الخالق؛ خالقاً إذا أغلق جفونه سوف يفنى العالم. فـ"ذاكرة" الرب ستصون معنى النص حتى وإن لم يطالعه أى إنسان أبداً.

لقد ترجم زورن Zorn كلمة Gebilde إلى Creations (= إبداعات) ولعل ترجمتها إلى images (= صورة، صور مجازية أو بلاغية) أكثر دقة وأقل لاهوتية. وقد اخترت أن أختم هذا الفصل ببنيامين؛ لأن التصور الذى يتبناه ينطبق على دريدا وابن عربى معاً. إن تصور الكتاب عند ابن عربى والنص عند دريدا يجدا مكاناً- بطريقة ما- على جانبي هذه الفقرة الغريبة، حيث يربطهما معاً وعيهما المشترك باستقلال نصوصهما استقلالاً مطلقاً، ثم يفرق بينهما فهما المختلف لأسباب عدم قدرة أحد على التحكم فى هذه النصوص.

ما من أحد عند دريدا يسهر على النص. أما مؤلف القرآن فعينه ساهرة لا تنام، يرقب باستمرار نشاط التفسير القرآنى، حريصاً على تمييز من يقرأ قراءة صحيحة ومن يقرأ قراءة غير صحيحة (وذلك وجه أخلاقى عميق فى التفسير يُعدُّ خاصية مميزة فارقة)، وعند دريدا لا أحد يهتم بالكيفية التى تقرأ بها. ولا حتى مؤلف النص. يرفرف اللاتناهى فوق هذين التصورين عن النص اللامتناهى، فيُرنَّحُهما ويُصدِّعُهما ويعكسُهما على نحو لا يقبل الحساب. غير أن اللاتناهى عند دريدا دنيوى أرضى على الأخص ("... صدفة أو رميَّة نرُد...")^(٨٠) يستند إلى سلسلة محظوظة لا نهاية لها من اللقاءات التصادفية والاستملاكات النائية، أما عند ابن عربى فيظل شيء ما "تحت سيطرة" لا تنهى النصَّ وحُكمه بشكل دائم. وإن كان القارئ عند دريدا يتبنى النص بشكل أبوى فيرثيه ويُغذيه حتى يصبح شبيهاً به

(بالقارئ)، فإن العالم عند ابن عربي يبتلعه النصُّ. وفي هذا الاختلاف تكمن مسألة محددة على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة: يستجيب تفسير القرآن استجابة زائدة متواضعة لمستودع القراءات اللامتناهي فيقدم على استحيااء قراءة تختلف إلى حد ما عن الشأن الأصلي الذي لا ينضب. أما عند دريدا فتعنى قراءة النص تغييره، وجعله مقصوراً على القارئ نفسه في النهاية، والاستيلاء عليه إلى أن يصير جزءاً حميمًا من القارئ. إن التفكير في الأصل مع حضور التفسير الأخرى يفقدُ اعتبارَه بطريقة ما فيصبح مجرد حدث... يلعب- مثل القرآن عند ابن عربي- دور "أصل التمثيل الذي لا يقبل التمثيل"؛ الأمر الذي يفضي دومًا إلى تفسير يسرى فيه الآخر بتمامه على نحو ما. ويبدو أن تصور النص الذي لا يمكن الوصول إليه مطلقًا يعنى عند ابن عربي أكثر من ما يعنيه عند دريدا. فالشيخ الأكبر يحيل باستمرار إلى أصل كى يقول ما يريد قوله، بينما يرى دريدا أصل النص ذكرى مهمة بعيدة المنال بُعدًا مطلقًا، شبيهةً بالطفولة الباكرة، دالة ومؤثرة في كل لحظة، مع أنها قد خسرت ذلك الماضى خسرانًا ييأس من استرداده.

هوامش الفصل الثالث

- (١) Cited in G. L. Bruns, *Hermeneutics Ancient and Modern*, Michigan: Yale University Press, 1992, p. 247.
- (٢) R. Rorty, *Contingency, Irony and Solidarity*, London : Cambridge University Press, 1989.
- (٣) M. C. Taylor, *ErRing: A Postmodern A/Theology*, Chicago: Chicago University Press, 1984, p. 6.
- (٤) Jorge Luis Borges, *Labyrinths*, Harmondsworth: Penguin, 1981, pp. 244, 246, taken from his essay "The Mirror of Enigmas".
- (٥) انظر مقدمة رالف أوستن لترجمته *الفصوص*:
The Bezels of Wisdom, New Jersey: Paulist Press, 1980, *Bezels of Wisdom*, p. 5. Arabic text used is Ibn 'Arabi, *Fusus al-Hikem*, A. E. Affifi (ed.), Beirut: Dar al-Kutub al-'Arabi, 1946.
- (٦) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, trans. Alan Bass, Brighton: Harvester Press, 1982, p. 320. French edition used is *Marges de la Philosophie*, Paris, Editions du Seuil, 1972.
- (٧) Cited in Bruns, *Hermeneutics Ancient and Modern*, p. 248.
- (٨) J. Habermas, *The Philosophical Discourse of Modernity*, Boston: MIT Press, 1987, p. 182.
- (٩) *Ibid.*, p. 182.
 وفي هامش من "الشراكة المحدودة" يتيم دريدا هابرماس بأنه لم يقرأ كلمة واحدة من أعماله، معتمداً فقط على كتاب جوناتان كلر عن التفكير، انظر:
 Jeffrey Nealon's "The Discipline of Deconstruction" in *PMLA* 107, 1992, pp. 1275-6.
- (١٠) H. Corbin, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi*, trans. Ralph Manheim, NJ: Princeton University Press, 1969, p. 26.
- (١١) See W. G. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany: SUNY Press, 1989, p. xvi.
- (١٢) Taken from al-Ghazali's *Ihya'* 1.260, cited in N. Heer, "Abu Hamid Al-Ghazali's Esoteric Exegesis of the Koran" in Leonard Lewisohn (ed.), *Classical Persian Sufism: From its Origins to Rumi*, London, 1993, p. 238.
- (١٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 244.
- (١٤) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 181/*Futuhah* II.326.18
- (١٥) W. G. Chittick, *Sufi Path*. P. 244/*Futuhah* II. 567.19

- (١٦) G. Scholem, *Kabbalah*, New York: Schocken Books, 1974, p. 210; the Muslim scholar's observation can be found in N. Heer, op. cit., p. 239.
- (١٧) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 245/*Futuhat* II. 581.4
- (١٨) *The Bezels of Wisdom*, p. 109
- (١٩) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 309.
- (٢٠) Ibid., p. 316.
- (٢١) Jacques Derrida, *Dissemination*, trans. B. Johnson, London: Athlone Press, 1981, p. 143-144.
- (٢٢) Ibid., p. 26
- (٢٣) *The Bezels of Wisdom*, p. 46.
- (٢٤) W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 200/*Futuhat* II.594.28.
- (٢٥) M.O.C. Walshe, *Meister Eckhart: German Sermons and Treatises*, London: Watkins, 1979, vol. 2, p. 250, Sermon 51. For the German text see J. Quint, *Meister Eckhart: die deutschen und lateinischen Werke*, Stuttgart: Kohlhammer Verlag, 1936, 2:467.
- (٢٦) See Origen, *In Genesis Homiliae*, IX. I
 حيث يشير إلى أن الكتب المقدسة "بحر من الألوهة السرية الغامضة":
 cited in Umberto Eco, *The Aesthetics of Thomas Aquinas*, trans. Hugh Bredin, London: Radius, 1988, p. 145.
- (٢٧) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 154/*Futuhat* II.552.12.
- (٢٨) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 245/*Futuhat* II.518.4.
- (٢٩) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 156/*Futuhat* II.671.5; W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 241/*Futuhat* II. 134.21; W. .G. Chittick, *Sufi Path*, p. 155/*Futuhat* II. 686.4.
- (٣٠) تماشيًا مع التقليد الشائع في الإسلام الذي يرى "شخص" النبي محمد مرادفًا للقرآن، بل ويرى النبي محمد نفسه "متماهيًا" مع الكتاب المقدس لكونه "عظيمًا": [كل من] نظر إليه [القرآن]، فلا فرق بين الناظر إليه والناظر إلى رسول الله". انظر:
 W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 241/*Futuhat* II. 346.12. .
- (٣١) *The Bezels of Wisdom*, p. 133.
- (٣٢) D. Turner, *The Darkness of God: Negativity in Christian Mysticism*, London: Cambridge University Press. 1993, p. 237.
- (٣٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 154/*Futuhat* II.686.4.
- (٣٤) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 102/*Futuhat* II.280.31.
- (٣٥) إن العلاقة بين "اللاوجود" و"الشر" تجعل المرء يفكر في عمل ابن سينا رسالة *في العشق*، حيث يتحدث عن شر "المادة واللاوجود"، وأن "خيرية الواقع" تأتي بالأشياء إلى حيز الوجود. وعلى هذا، يخلص ابن سينا إلى أن "العشق هو علة وجود الموجودات". انظر:

- S. H. Nasr, *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*, Cambridge: Belknap Press, 1964. p. 262.
- (٣٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 87/*Futuhāt* II.248.24.
- (٣٧) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 338/*Futuhāt* III. 465.25.
- (٣٨) Jacques Derrida, *Dissemination*. p. 3.
- (٣٩) Jacques Derrida, *L'Écriture et la Différence*, Paris: Editions du Seuil, 1967, p. 432. The English translation used is by Alan Bass, *Writing and Difference*, London: Routledge & Kegan, 1978, p. 297.
- (٤٠) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 70.
- (٤١) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 296.
- (٤٢) *Writing and Difference*, p. 67, *L'Écriture*, p. 103
- (٤٣) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 313
- (٤٤) *Writing and Difference*, p. 68, *L'Écriture*, p. 104.
- (٤٥) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 316.
- (٤٦) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 300.
- (٤٧) J. D. Caputo, *The Prayers and Tears of Jacques Derrida: Religion Without Religion*, Bloomington: Indiana University Press, 1997, p. xxiv.
- (٤٨) "History As Apocalypse", in T. J. Altizer (ed.), *Deconstruction and Theology*, NY: Crossroad, 1982, p. 176.
- (٤٩) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 311, footnote 3.
- (٥٠) *Ibid.*, p. 294.
- (٥١) *Ibid.*, p. 297.
- (٥٢) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, trans. G. C. Spivak, Baltimore: John Hopkins University Press, 1967.
- (٥٣) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 156.
- (٥٤) *Writing and Difference*. p. 292, *L'Écriture*, p. 427.
- (٥٥) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 293.
- (٥٦) *The Bezels of Wisdom*. p. 99.
- (٥٧) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 119/*Futuhāt* III. 454.1.
- (٥٨) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 297.
- (٥٩) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 54
- (٦٠) *Ibid.*, p. 38.
- (٦١) Donald A. Yates and James E. Irby (eds), *Labyrinths*, London: Penguin, 1987, p.37.
- (٦٢) See W.G.Chittick, *Sufi Path*, p. 121/ *Futuhāt* II.312.23 and also *ibid.*, p. 202/ *Futuhāt* III. 69.30.
- (٦٣) *Ibid.*, p. 124/*Futuhāt* II.312.4.
- (٦٤) *Ibid.*, p. 124/*Futuhāt* II.183.8.

- (٦٥) Ibid., p. 202/*Futuhāt* III.69.30.
- (٦٦) Ibid., p. 201/*Futuhāt* II.594.28.
- (٦٧) *The Bezels of Wisdom*, p. 56, *Fusus al-Hikem*, p. 56.
- (٦٨) David Krell (ed.), *Basic Writings: Martin Heidegger*, London: Routledge, 1978, p.258.
- (٦٩) يخبرنا ابن عربي في فص النبي إسحق أننا نبدأ في تعبير الرؤيا حين تظهر في صورة لا يقبلها العقل. انظر: *Bezels of Wisdom*, p. 101.
- (٧٠) *The Bezels of Wisdom*, p. 200.
- (٧١) Translated by Rabia Terri Harris in the *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* VIII, 1989, 29.
- (٧٢) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. xvi.
- (٧٣) Ibid., p. 256.
- (٧٤) "Passions: An Oblique Offering", in David Wood (ed.), *Derrida: A Critical Reader*, Oxford: Blackwell, 1992, p. 15.
- (٧٥) Jacques Derrida, "How to Avoid Speaking: Denials", trans. K. Frieden, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany, NY: State University of New York Press, 1993, p. 110. French text used is Jacques Derrida, *Psyché: Invention de l'autre*, Paris: Editions Galilée, 1987, p. 571.
- (٧٦) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 6.
- (٧٧) "Post-Scriptum: Aporias, Ways and Voices", trans. J. P. Leavery, Jr, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany: SUNY Press, 1993, p. 310. French text used is J. Derrida, *Sauf le nom*, Paris: Editions galilée, 1993, p. 81.
- (٧٨) From the essay "The Task of the Translator", in Walter Benjamin, *Illuminations*, trans. Harry Zohn, London: Pimlico, 1999, p. 71
- (٧٩) Paul De Man, *The Resistance to Theory*, Manchester: Manchester University Press, 1986, pp. 97-99.
- (٨٠) Jacques Derrida, *Dissemination*, p. 54.

الفصل الرابع

دَوَّقُ الْغَيْبِ وَالْأَعْمَاقِ

السَّرُّ عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَدَرِيدَا

الغايات التي نسعى وراءها محجوبة
دائماً عنا. فالفتاة التي تتلهف على
الزواج تتلهف على شيء لا تعرف
عنه شيئاً. والفتى الذي تتوق نفسه
إلى الأنثى لا فكرة لديه عن ما تكونه
الأنثى. ومن ثم، فالشيء الذي يهينا
الحركة لا نعرف معناه على الوجه
الأكمل (ميلان كونديرا، *خفة الوجود غير
المحتملة*)^(١).

يُكثِرُ دريدا وابن عربي من استخدام كلمة السَّرِّ في نصوصهما، بل ويبدو أنهما
يتهوسان - كل على طريقته - بقوة هذه الكلمة، ويحرصان حرصاً شديداً على تحديد
معناها (ولا معناها) واستكشاف دوافع مَنْ يُفْشِنُ السَّرَّ. ويظهر أن دريدا وابن
عربي على وعي بما ينطوي عليه السَّرُّ من عدم جدوى؛ ذلك السَّرُّ الذي لا يمضي
إلا من "حجاب إلى حجاب" شأن طرائد كونديرا وقناصبيها الفخورين. ويظهر أنهما
يعطيان "السَّرَّ" مكانة مركزية في أعمالهما بوصفه استعارة مثلى تعبّر عن ما
يريدان قوله.

إنَّ القراء العارفين بدريدا مؤلف كتاب *التشتيت Dissemination* ومقال "كيفية تجنب الكلام" How to Avoid Speaking، لن يقتنعوا بفكر دريدا مالك "السرِّ"؛ وبخاصة منذ أن خصص دريدا بنفسه نصًا تكلم فيه عن العكس، على وجه التحديد. ولا يسعى هذا الفصل إلى قول كلام متمرکز لوغوسيًا على لسان جاك دريدا، الأمر الذي يجعل من هذا الكاتب ما بعد البنيوي متصوفًا يخلق في سماوات الخيال. وإنما يسعى هذا الفصل - على الأصح - إلى استكشاف أوجه الشبه بين "السرِّ" secret عند دريدا - إن كان يمكننا استخدام مثل هذه الكلمة - والسرِّ عند ابن عربي، بما يستتبعه ذلك من الكشف عن تحول الوعي عندهما بموقف وجودي راسخ، وتفكيك أصيل لهويات يستقل بعضها عن بعض استقلالاً تعسفيًا، ورفع الوهم illusion (وأنا أستخدّم هذه الكلمة بحرص شديد) الذي أوجدته فرضيات ميثافيزيقية متمرّكة لوغوسيًا.

سرُّ اللاسرِّ عند دريدا

إن اللاهوتيين البارزين العارفين بأداة
النقل العظمى يعلموننا أن خصيصة
الكون الأساسية هي فراغه. وهم على
صواب يقينًا بخصوص ذلك الجزء
الصغير جدًا من الكون الذي هو
الكتاب... فتحت العاصفة والبرق لا
يوجد شيء. يوجد فقط مظهر، سطح
من الصور، هو علة استمتاع القراء به
(بورخيس، مقدمة إلى تاريخ العار
العالمي)^(٢).

العمق الوهمي في السرِّ عنصر متكرر، مألوف بما فيه الكفاية؛ بمعنى: افتراض أن السرِّ الوحيد هو أنه لا يوجد سرٌّ. يكتب روب جريبه Robbe Grillet "عن خزانة مغلقة ومفتاح؛ وهذا المفتاح يفتح الخزانة بسلاسة تامة... فإذا الخزانة فارغة"^(٣). وفي رواية أمبرتو إيكو Umberto Eco **بندول فوكو *Il Pendolo di Foucault*** صاغ مجموعة من الأكاديميين الشبان نظرية تآمرية شديدة الغرابة على معارف رهبان الدير التقليدية والأخوية الماسونية وعلوم الأهرامات المصرية ومعاني الأعداد، وقد لفتت هذه النظرية انتباه مجموعة من الأعضاء الخطرين غير المرغوب فيهم لمجرد أن هؤلاء الأكاديميين صاغوها بهذه الكيفية. وحين احتال في نهاية الأمر أشخاص متعصبون من ذوى انتماءات متباينة على بيلبو Belbo المسكين رَفَضَ إعطاءهم السرِّ الأخير - ألا وهو أنه لا يوجد سرٌّ وأن بحثهم بكامله كان خدعة أكاديمية مدروسة - فكانت النتيجة أن دفع حياته ثمنًا لصمته. تلك هي غواية اللغز الذي يتلهم الجميع على معرفته، وقد اتضح أنه دعابة قاسية انعقد العزم على عدم الرجوع عنها، ولعل الأسوأ من ذلك أن هذا اللغز لم يؤدِ سوى إلى انحسار الأسرار الزائفة انحسارًا غير متناه (وعلى هذه الشاكلة، بلا ريب، تمضى دعابة فيلم **الصقر المالطي *The Maltese Falcon***، وهو الفيلم الذي تقوم حيكته بكاملها على موضوع لا يظهر أبدًا على شاشة السينما). وتذكرنا هذه الخدع بالنتائج اللاهوتية المهمة المترتبة على حيلة جدّ معروفة: لا بد أن يكون السرُّ غير "حقيقي" حتى يمارس قوته علينا.

ولعلنا، حين ندرس موقع السرِّ في فكر دريدا، نبدأ بتريديد ما يردده كل قارئ آخر عن السرِّ الدریدی؛ ألا وهو أنه اللاسرُّ والوهم والسطح الدلالي الذي يخدعنا دومًا فيعدنا بوجود عمق ما فيه. يكتب كارل راشك Carl Raschke أنه من وراء أنساق العلامة كلها "يُدفن" السرُّ، التقاليد التي يبنى بمقتضاها الخطاب؛ ألا وهو أنها تدل على اللاشيء"^(٤). ويتحدث مورني جوي Morny Joy عن إفشاء السرِّ عند دريدا فيقول إنه "إفشاء يعني غياب أيّ حضور وأيّ سرِّ"^(٥). وفيما يقول ديفيد لوي David Loy ساخرًا من دريدا سخريّة: "أكد بوذا أنه لا يحمل معه سرًّا؛

مع أن الأجيال اللاحقة عليه تنسب إليه القول بوجود سر^(٦). ولعل مارك س. تايلور يصوغ هذه الفكرة صياغة أكثر مباشرة من غيره حين يقول:

بما أن "أصل السرية أو الاسترار" مفقود دائماً، فلا يوجد شيء ينقل. وإنى أكرر: لا يوجد شيء ينقل. فالسرُّ أنه لا يوجد سر^(٧).

ويعيد جون كابوتو الفكرة نفسها بأسلوب بليغ قائلاً:

لا ينطوي هذا السرُّ- الذى لا يحمل معرفة ولا يعرف شيئاً- على محتوى دلالى. فهذا السرُّ لا شيء لديه يخفيه. وذلك نوع غريب من السرِّ، إنه شيء من اللاسرِّ، سرٌّ أنه لا يوجد سرٌّ، والمقصود أنه لا يوجد نوع من المعرفة فى السرِّ، لا يوجد السرُّ الذى يعرف ويحمل محتوى إيجابياً ما^(٨).

لا توجد أسرار؛ أو إنْ شئت لا توجد سوى أسرار: سلسلة متوالية من الأسرار، كل سرٌّ منها يُعدُّ بأن يُعريه السرُّ الذى يليه. ذلك هو- على وجه التحديد- "السرُّ" بمفهومه التقليدى: علامة تُفسَّرُ بطريقة سحرية لا لبس فيها كلَّ العلامات السابقة التى أدت إليها فى لحظة ينيرها حضور الذات المهيب. ومن ثم، فالكشف عن السرِّ هو غاية المعنى، ولا مزيد على ذلك.

لكن، تتبقى الأسئلة الآتية: ما موقف دريدا على وجه التحديد من السرِّ؟ وعلى أىِّ نحو يفهم طرق تكوين الأسرار وتوالدها واستعمالها وإساءة استعمالها؟ وهل سيكون العالم أفضل دون أسرار؟ وما نصيب لعبة التفكير من كل هذا الكلام عن السرِّ؟ هل يُعري التفكير الألبازَ ويزيلُ التعميمات أم يُعري مصدرها الأولى؟ وإلى أىِّ مدى يكون "التفكير" مرادفاً حقاً لـ "تعرية السرِّ"^(٩) demystification؟

(٩) demystification: تعنى الكلمة معجمياً إزالة التعمية وفك الأمور المغلقة الخفية بتفسيرها وإيضاحها والتغلب على إبهامها؛ مما يعنى أنه من الممكن ترجمتها إلى "الإيضاح" أو "إزالة الإبهام". غير أنى تماشياً مع السياق فى كل مرة سوف أرواح بين ترجمتها إلى "تعرية السرِّ" أو "تعرية الغيب" أو "فك المغالق" أو "إيضاح المبهم"- المترجم.

ولسنا نشتط إن قلنا إن السرَّ يهيم على أعمال دريدا من أولها إلى آخرها دون غيره من العناصر الأخرى التي تتكرر عنده؛ لأن دريدا يستخدم السرَّ استعارةً نموذجيةً— إلى حد ما— يعبرُ بها عن معنى النص الأدبي؛ ولأن السرَّ ينطوي على بقايا دلالات دينية إلى حد ما (سرَّ اسم يهوه الذي لم يعلنه أحد، وسرَّ وجه الله الذي لم يره أحد أو يعمل بما يستحقه، وسرَّ يوم القيامة، إلخ)؛ ولأن دريدا يوظف السرَّ توظيفاً لعباً في أوقات السخرية من الذات وفي أوقات الجد المطلق (كما هو حاصل مثلاً في مقاله "الاختلاف المرجئ" حيث يتكلم دريدا عن "اللغز الحقيقي في الاختلاف" ليعلن بعد ثماني صفحات فقط أنه "لا يبشرُ بهذه 'الكلمة' بشارة إنجيلية Kerygmatic")⁽⁴⁾. وعلى هذا النحو، يدرس دريدا في مقالات— من قبيل مقاله "الحاشية" Post-Scriptum ومقاله "كيفية تجنب الكلام"— دورَ السرَّ (طوبولوجيا السرَّ) في اللاهوت السلبي، فيعيد إثبات زعمه المعتاد بأن السرَّ عند علماء اللاهوت السلبي هو— في نهاية الأمر— الله نفسه بمعناه الأنطولوجوتي الذي زعموا أنهم تخلصوا منه. وفي عمله "انفعالات" Passions، يخصص دريدا مقالاً بكامله لموضوع السرَّ، مؤكداً أنه يوجد سرٌّ؛ غير أن الاختيار الحاصل (في أفضل تقليد سلبي ناف) عدم قول ما يكونه السرُّ، وإنما يقال ما لا يكونه السرُّ. وفي مقاله "عن النعمة الكهنوتية" Of An Apocalyptic Tone، يرى دريدا معلّم أسرار الدين— وقد كان ضحية نقد كانط العقلاني اللاذع— حارسَ السرِّ ومعنى نهاية العالم Apokalupsis الأصلي الذي يفضُّ السرُّ، ثم يستكشف دريدا في أعمال لاحقة من قبيل هدية الموت *The Gift of Death* العلاقة بين الاسترار والمسؤولية، بين الاسترار والجماعة. أما في الأعمال الأقل صلة بالموضوع مثل كتابه *التششيت*، فإن التفكير في السرِّ— وما يحدث في غيابه— يسرى في كل تأملات دريدا الخاصة بالنص الذي لا عمق فيه و"الصفحة التي لم تُكتب بعد". ولعل ذلك كله من ثمار وسوسة دريدا بالسرِّ وولعه الخفي به؛ وهو أمر لن يمر— كما سوف نرى— دون وقوعه في مفارقات وضروب من اللبس.

تتنوع ملاحظات دريدا وتعليقاته على السرّ بتنوع السياقات المختلفة فيما بينها اختلافًا جذريًا، وتقدم كل ملاحظة منها مجموعة مختلفة من التأمّلات الحاذقة المتعلقة بتصوره عن ما يتخفى أو يتحجّب أو ينسحب. ولعل مجموعة الاقتباسات الآتية تعبر تعبيرًا أفضل عن هذا التنوع والتغاير:

- لا يوجد السرُّ بما هو سرٌّ؛ فأنا أنكره. وذلك ما يجعلنى أأتمن شخصًا يُصادقنى على سرِّ ما ("كيفية تجنب الكلام: إنكارات").
- اللاحضور، والفجوة التى يحدثها فراغ الرغبة، والحضور، واكتمال المتعة، كلها أمر واحد. ولذا، لم يعدّ يوجد أى اختلاف نصى بين الصورة والشىء، بين الدال الفارغ والمدلول الممتلئ، بين المقلّد والمقلد، إلخ (التشّيت).
- قد نسيّت مظلّتى، هذه عبارة هرسمية مستغلقة وفى الوقت نفسه صريحة واضحة، وهى فى استمرارها وسطحيتها كالبطاقة البريدية التلغرافية تعلن وتحفظ ("عن النعمة الكهنوتية فى ثوبها الجديد").
- ناهيك عن حبى الأدب بوجه عام وإكرامًا لمكانته، فأنا أحب شيئًا مخصوصًا فيه... ألا وهو أنه قد حلّ محلّ السرِّ. حل محل السرِّ المطلق. صحيح أنه يوجد انفعال، ولا انفعال دون سرِّ، هذا هو السرُّ الحقيقى، فلا سرٌّ دون هذا الانفعال ("انفعالات: تقدمة ملتوية").
- أشير قبل كل شىء إلى أن السرِّ منقسم فى نفسه، وأن انقسامه "حرفى مميز"، فهو يقسم ماهية السرِّ التى لا يمكن أن تظهر لشخص بمفرده إن لم تكن مفقودة منذ البداية^(*)... ("كيفية تجنب الكلام: إنكارات").
- وهنا لم يعد المعنى ينطوى على أى عمق (التشّيت)^(١٠).

(*) يقصد دريدا هنا أن السرِّ يعنى التكمم والخفاء والاستخفاء، وتلك ماهيته بدءًا؛ غير أن السرِّ بحكم بنيته الفعلية ينقسم؛ فحتى يكون السرُّ سرًّا لا بد أن يكون بين اثنين وإلا ما عرفنا بوجود سرِّ أصلاً، ومن ثمّ فإفشاء السرِّ خاصّة تكوينية أصيلة فى السرِّ. ومن هنا قوله باستحالة أن تظهر ماهية السر لشخص بمفرده، فماهيته ضائعة منذ البدء - المترجم.

ثمة عدد من المسائل يمكن استنباطها من هذه الاقتباسات. أولها أن من طبيعة السرّ الانسحاب الدائم؛ فهو ضائع على الدوام. وإن كان السرّ هو "ذلك الذى يكون فى الكلام غريبًا على الكلام"^(١١) فلن يودى إفشاء السرّ إلا إلى طريق أبعد، كما هو حال سرّ الله عند القديس أوغسطين ("كل ما نقوله عن الله ليس حقيقيًا، وكل ما لا نقوله عنه هو الحقيقى"). إن الكلام عن السرّ يؤجّل السرّ وحسب، فيظل السرّ دومًا "على الناحية الأخرى" من كل ما نحاول قوله عنه. وثانيًا، لا يوجد اختلاف بين السرّ واللاسرّ، فطبقًا لدريدا لا توجد دوال "ممتلئة" وأخرى "شاغرة"، كما لا توجد نصوص "أعمق" من نصوص أخرى، ولا رموز أو أبجدية أدلّ بشكل أفضل من غيرها. فالعبارة المشهورة الواردة فى نهاية ملاحظات نيثشه - لقد نسيت مظلتى - توضح حالة الأزواج الكاملة فى الوعظ التبشيري the perfectly dual status of the kerygmatic؛ أى قدرة العادى على حجب غير العادى (والعكس بالعكس)، وقد اعتاد قراء كافكا Kafka وبنتر Pinter منهما على ذلك. فمن المحتمل أن يكون أى شىء سرًّا؛ إذ من المحتمل أن يدلّ أى دال على مدلول يختلف اختلافًا جذريًا عن مدلوله المعتاد، وثالثًا، إنّ توهم السريّة أو الاسترار نظير توهم العمق؛ ومن هذه الزاوية نبدأ فى الاقتراب من الأصداء اللاهوتية التى تتضمّن تعليقات دريدا على السرّ، مما يذكرنا بالفقرة الآتية التى يكتبها تيليش Tillich :

إنّ اسم هذا العمق الذى لا ينضب والذى هو أساس كل الوجود هو الله. هذا العمق هو ما تعنيه الكلمة... فإنّ عرفت أن الله يعنى العمق فأنت تعرف الكثير عنه. ومن ثم، لن تكون ملحدًا أو غير مؤمن إن لم تكن تعتقد أو تقول إن الحياة بلا عمق، أو ضحلة، أو أن الوجود نفسه ليس إلا سطحًا. إن قلت ذلك بجديّة تامة فأنت ملحد من وجه وغير ملحد من وجه آخر. من يعرف العمق يعرف الله^(١٢).

طبقاً لدريدا، لا يسع المرء إلا أن يحس بهذا "العمق" المرتبط دومًا بـ"الألوهة"، عاجلاً أو آجلاً. وما دامت كل الأسرار تقتضى عارفاً بها أو على الأقل عارفاً محتتملاً، فإن دريدا حين يستبعد وجود عمق في النص يستبعد أى أحد أو أى شىء يوجد "في الخارج هناك" يملك تأويلًا حقَّ الكلمة الأخيرة بخصوص معنى النص. أما المفسر القروسطى الذى ينكبُّ على الحروف اللاتينية المكتوبة بها كلمة الله المقدسة، فهو يؤمن بوجود عقل إلهى يفهم معنى ما- يفهم دائماً معنى ما- لم يفهمه القارئ. وبصرف النظر عن ما إذا كنا نتحدث عن الدقة المدرسية الصارمة فى التفسير الدومينيكانى أو عن التأويل الصوفى فى الهرمنيوطيقا الإسلامية، أو عن تراث الشروحات اليهودية المدرائية (= التقليدية)، فإن تصور وجود هذا المؤلف الذى يندُّ عن الوصف ويوجد "فى الداخل"- بينما نحن القراء الأقل شأنًا نوجد دومًا "فى الخارج"^(١٣)- يظل تصورًا واحدًا فى جوهره. أما دريدا حين يرادف بين "الاسترار"- أو "السريّة"- و"السطح" فهو يمحو محورًا حاسمًا الفرق بين الداخل "الأليف" والخارج "الدخيل". فالأمر أمر حشد من الرموز المكتوبة على سطح ورقة؛ هذا كل ما فى الأمر. وفى علم التأويل التفكيكى لا يوجد شىء مخفى، لا لأنه لا يوجد شىء يتخفى، بل الأصح لأنه لا يوجد أحد يُخفيه.

فإن كان ذلك كله يعنى "تعرية غيب" الميتافيزيقا على طريقة عصر التنوير فهذا الضرب من نزع هالة القداسة الذى يستبدل بالسبب الغيبى سببًا مرئيًا واضحًا، يظل مثيرًا للخلاف، كما أوضح دريدا ذلك فى موضع آخر. ففى مقاله "عن النغمة الكهنوتية"، كان دريدا يبحث عن "حد تعرية الغيب" الممكن، وهو الحد الذى "ربما) يميز التفكيك عن تعرية الغيب ذات الطابع التقدمى المبسط التى أنجزها عصر التنوير"^(١٤). وتوجد لحظات فى مواضع أخرى عند دريدا، يبدو منها أن "التفكيك" و"تعرية الغيب" مترادفان على نحو لا ريب فيه وبخاصة فى مراحلهما الباكرة، حتى وإن كانت هذه المراحل تهتم فى النهاية بنمطين من التحليل analysis مختلفين اختلافًا جذريًا (وكلمة analysis مشتقة من analyein التى تعنى حرفيًا:

يحلُّ أو يفكُّ العقدة). وتتمثل فرضية هذا الفصل في أن التفكير عمل يجمع بين إيضاح المبهم ثم إبهامه مرة أخرى؛ فالتفكير يُعَيِّن لحظات الحضور الذاتى فى النص ويفكها تاركاً مكانها فراغاً دلاليًا؛ الأمر الذى يحرر النص من تقيده بقصد وحيد، فيدعه يبحر بلا دفة، متجهًا وجهات لا نهاية لها.

بماذا يختلف إيضاح المبهم على طريقة التفكير عن نظائره فى الفكر العقلانى؟ لقد قال موريتز شليك Moritz Schlick ذات مرة، وهو أحد مفكرى مدرسة فيينا الوضعية: "لا يوجد غيبٌ عميق فى العالم". وطبقًا للوضعيين المناطقة من أمثال آير Ayer وكراناب Carnap تنتج الأمور الغيبية وألغاز الحياة اليومية بكل بساطة عن استخدام اللغة "بشكل سيء"، أى تنشأ عن استعمال "اللامعنى" والفرضيات الميتافيزيقية غير الواضحة. أما حين نكف عن إثارة أسئلة غير سليمة ونبدأ فى استعمال الأقوال السليمة التى يمكن التحقق منها، فسوف يتلاشى من تلقاء نفسه هذا "الغيب" المزعوم (وكلمة "الغيب" - طبقًا للوضعيين المناطقة ترادف كلمة "مشكلة"). وفى واقع الحال، يصعب التسليم بأن التفكير ينطوى على مشروع إيضاحى. يقول دريدا فى كتابه *فى علم أنساق الكتابة*: "إنَّ مهمتى فى هذا الكتاب جعلُ كلمات من قبيل "القُرْب"، و"المباشرة" و"الحضور" - وهى الكلمات التى يعتقد المرء أنها مفهومة - غامضةً مبهمَةً"^(١٥)؛ فإن كان دريدا يحرر النص من سره المبهم - أى من الروحانية المتجسدة التى تكمن دفينه كمون كنز مخفى تحت سطح العلامات على الصفحة - فلن يعنى ذلك أنه يريد أن يستبدل بها سرًا من عنده. فما يميز إيضاح المبهم فى التفكير عن كل أنماط الإيضاح الأخرى التى أماطت اللثام عن الغيب فى عصر التنوير، هو على وجه التحديد مساءلة الرغبة فى تفسير مواضع اللبس. وطبقًا للتفكير، يعنى "التفسير" ببساطة إنتاج مجموعة أخرى من العلامات تصف المجموعة الأولى. ومن ثم، يعنى جلاء سرٍّ ما إنتاج سرٍّ آخر، بكل بساطة. "منذ اللحظة التى يوجد فيها المعنى، لا يوجد سوى علامات"^(١٦). أما

الاعتقاد في أن معنى السرّ- الذي ينجلي بانطلاقه من مخبئه الأثير- يستتير به- بطريقة لا لبس فيها- كل شخص معنىً به دون اضطراره إلى استعمال علامة قط؛ فذلك بلا ريب حلم ساذج من أحلام النزعة البنيوية التي يفككها دريدا في مقالات من قبيل "القوة والدلالة". ولذا، يتمتع المعنى، حاله في ذلك من حال السرّ، بمعين دلالي لا ينضب؛ لأنه ما من نهاية للمعنى أو السرّ.

"إن مهمتى جعلُ كلمات... غامضةً مبهمّة": تلك عبارة دريدا اللافتة للنظر بغرابتها، وبصفة خاصة حين يضع المرء نصب عينيه إيضاحات أمثال جاشيه وشروحاتهم عن دريدا، إذ يرى جاشيه أن دريدا يفك "تناقضات" الأنساق الفلسفية ويعرّبها^(١٧). "إن مهمتى جعلُ كلمات... غامضةً مبهمّة": هل تعنى هذه العبارة أن التفكيك يُلغز النصّ ويُعمّيه؟ وبعد كل حديثنا عن إيضاح المبهم وإزالة التعمية أو تعرية الغيب والسرّ، هل يُحوّل التفكيكُ النصوصَ إلى أسرار مرة أخرى؟ وهل يعيد إلى النصّ ضرباً من السرّ الأصلي العامل شرطاً أصلياً في الأدب؟ ربما... لكن إن كان التفكيك يعزو إلى النصّ سرّاً، فهو "سرٌّ شائع" secret de Polichinelle؛ أى: ليس سرّاً على أحد^(١٨). وإذا كان التفكيك يُعمّي النصّ ويُلغزه من جديد، ثم يحرره من مؤشرات المعنى الثابتة، فليس ذلك بالإصرار على السرّ وتفسير النصّ تفسيراً خفياً متعالياً، بل على الأصح بإعادة عتمة darkness أصلية إلى وهم الوضوح (وكلمة darkness من ainigma = تعمية، وتعنى حرفياً to darken = "يُعمّم"). إنَّ التعنيم الذي لا يصل إليه نور Lumière أو تنوير Aufklärung لا ينجلي قط. والعتمة لا شيء فيها يتخفى.

مما يتألف هذا الإبهام، أو هذه العتمة؟ إنها عتمة الهاوية abyss. وتتكرر كلمة الهاوية L'abîme عند دريدا كثيراً، وبخاصة في سياق عدم جدوى الفكر التمثيلي؛ بسبب فراغ العلامة التي تُفرغ نفسها باستمرار وهاوية السلسلة الدالة التي تحمل الرسالة دون أن تفهم "معناها" قط:

- ما إن يُعير [المركز] نفسه مرة إلى هذا التمثيل؛ أى ما إن ينكتب... فتلك هى الهاوية والتضاعف الذى لا يتناهى بلا قرار ("نقل")^(*) ضمن الكتابة والاختلاف).

- المتأهة، وهى هنا هاوية الغوص فى سطح أفقى خالص... (المرجع السابق).

- إن التمثيل القارئ فى هاوية الحضور ليس عَرَضًا على الحضور؛ إذ على العكس تولد الرغبة فى الحضور من هاوية التمثيل، أى من التكثر اللامتناهى فى التمثيل... (فى علم أنساق الكتابة).

- ... تظل التاريخية سرًا. ولا يريد الإنسان التاريخى أن يدخل إلى تاريخيته، وأولاً وقبل كل شىء لا يريد أن يدخل إلى الهاوية التى تقوِّض تاريخيته (مدية الموت)^(١٩).

إن السرَّ الغائر فى سطحية النص المطلقة يظل- على نحو فيه مفارقة- أمرًا يهدد معنى النص فى اللحظة التى يضاعف فيها من هذا المعنى إلى ما لا نهاية. من العدم لا شىء يتهيأ؛ واللاشئ مصدر المعنى. اللاشئ والفراغ الدلالى القارئ فى النص هو الذى يمكن النصوص المضادة والضمنية والسياقية من أن تتكاثر فى تضاعف غير متناه بلا قرار. وإنَّ هذه الهاوية الماكثة تحت النص- أى غياب أى حضور نصى خارق ذى امتياز يتحكم فى النص- لهى التى تمكِّن معناه من أن يومض ويتضاعف متكررًا.

ولا يدل نزع العمق عن النص على نهاية التفسير، وإنما يدل على نهاية الحنين ليس إلا. إذ يسمح سرُّ "السطح المحض" فى النص بحدوث التفسير، بل ويقسم مفسريه المحتملين إلى صنفين: الأول، وهم غير العارفين بالسرِّ ممن لم يدركوا أن السرَّ الوحيد فى النص أنه لا يوجد سرُّ؛ أولئك هم البصَّاصون

(*) Ellipsis: تُترجم إلى "نقل"، وهو عنوان مقال لديدا. والمقصود الانتقال المفاجئ من شىء إلى آخر دون مقدمات أو إرهابات- المترجم.

الأكاديميون ممن يفتشون باستمرار عن العلامات التي أمامهم ويتفحصونها في محاولة منهم لاستعادة المعنى الحق **the Real Meaning**، أما الصنف الثاني فهم المستثيرون الذين يفهمون- في نهاية الأمر- ما ينطوي عليه تفسير النصوص الدينية من وهم أشبه الوهم القديم بعصر ألفى سعيد^(*) the millennia-old illusion، ولكنهم يقررون الاستمرار فيه على أية حال خارج إطار العادة والألم والخوف وعناد الخيال أو فقره ببساطة. وفيما يرى هذا الصنف الثاني، يعنى تفسير النصوص- منذ الآن- التفاعل معها بضرب بعضها بعضاً في مجاميع من العلامات يرد بعضها على بعض. وبمعنى ما، يترك فناء العمق النصي نشاط التفسير سليماً معافى، بعد أن ينيره بضوء جديد فيفهم نشاط التفسير فهماً جديداً لا يخلو من مفارقة وسخرية من الذات واستهزاء بها (ويفكر المرء هنا في عبارة سارتر: "لم أعط سلطة أو أخذها في حياتي دون ضحك"). ومنذ الآن، ما من أحد سيقراً أو يعطى تفسيراً دون ابتسام من قد فهم الخدعة المزوجة التي تنطوي عليها لعبة التفسير: استغلاق النص لا لأن سره قد ختم عليه في صندوق محكم الغلق، وإنما لأنه لم يكن يوجد سرٌّ منذ البدء.

سرُّ عبادة الأوثان عند ابن عربي

في الربوبية سرٌّ، هذا السرُّ هو أنت... (سهل التسترى، مستشهد به في فصوص الحكم)^(٢٠).

في دوائر النظرية النقدية، ثمة قصة لإدجار آلان بو Edgar Allen Poe حظيت بعناية أكبر من أى عمل آخر من أعماله بفضل تحليل جاك لاكان Lacan لها (ومقالة لاكان، بدورها، انتقدها دريدا وباربارا جونسون Barbara Johnson)؛ ألا

(*) العصر الألفى السعيد: فترة الألف عام التي يؤمن المسيحيون أن المسيح سوف يعود فيها ويقم مملكته على الأرض قبل نهاية هذا العالم، ويُصادق الإسلام على هذه العودة دون تحديد زمني- المترجم.

وهي قصة "الرسالة المسروقة" The Purloined Letter؛ ومضمونها أن ثمة رسالة مهمة أخفيت بمهارة عن أعين رئيس الشرطة الذي قام بعمله على أكمل وجه ولكن خياله فقير، فقد فتش المنزل ثلاث مرات وأخفق في العثور على الرسالة، لأن السارق قرر أن "يخفيها" عن أعين المفتشين بتركها أمام أعينهم على طاولة. فبدلاً من إخفاء الرسالة وسترها عن الأعين في مكان خفي، كان سرُّ المظروف واضحاً مرئياً لكل أحد، ومع ذلك لم يخمن كُنه المظروف أيُّ أحد. فالرسالة بانكشافها على هذا النحو، ظلت محتفظة بسريتها. ولم يظن أحد في قصة بو إلى أن الأمر الخفي المُستسرَّ منكشف، لم يظن أحد إلى انكشاف الخفي؛ فما من أحد ظنَّ قط أن هذا يمكن أن يحدث.

تقدم هذه الحكاية عن غير العادي الملتبس بالعادة مثلاً- من زوايا عديدة- على معنى السرِّ في أعمال ابن عربي. إذ يمكن القول إن السرِّ الحقيقي الوحيد- فيما يرى الشيخ الأكبر- هو أنه لا يوجد سرُّ بالمرّة. بالطبع توجد أسرار "واضحة" عند ابن عربي؛ وهي اللحظات التي تمتع فيها المعرفة على الخلق، مثل "سرِّ القدر" (٢١) أو "سرِّ التقدير" (٢٢)؛ أي سرِّ التدبير الإلهي الذي لا تعرفه المخلوقات الفانية. غير أن السرِّ الأهم من كل الأسرار، ويشير إليه ابن عربي بوصفه سرِّ السرِّ أو "سرِّ الأسرار" (٢٣)، وهو السرُّ الأعظم، حاله من حال مظروف رسالة بو الموجود أمام أعيننا فعلاً دون أن يتمكن أيُّ منا أبداً من تخمين ما هو.

يظل السرُّ عند ابن عربي محتفظاً بسريته إلى درجة أن عموم الناس (العامة) لم يدركوا قط أنه يوجد سرُّ. وتقدم خطيئة عبادة الأوثان (الشرك) المثل الأوضح على ذلك. ففي كتاب *الجلال والجمال* يقول ابن عربي عن الآية القرآنية "والهكم إله واحد":

هو خطاب ينسحب على كل مألوه مُتعبّد.

وذلك أن سرِّ الألوهية لولا ما وجدها كل عابد في معبوده أي عند عبادته لمعبوده ما عبده وهكذا لو مكنا [عبدة الأصنام] من فصل

الخطاب لقالوا وإنما ضل المضل لنسبة الألوهية لمن ليس بإله وهو
 إنما عبَدَ من ذلك المعبود سرًّا الألوهية التي هي لله تعالى لما انسحب
 أثرها على ذلك المعبود ربنا تبارك وتعالى فهذا روح قوله (وإلهكم إله
 واحد لا إله إلا هو) فأثبت عين ما نفى في حكم الحقيقة وإنما أخذوا
 هؤلاء بالنسبة التي أضافوها لما نحتوه وسمّوه ونصبوه ورفعوا إليه
 حوائجهم فافهم ذلك فإنه سرٌّ عجيب^(٢٤).

إن فكرة ابن عربي هنا لافتة للنظر: الله هو السرُّ في عبادة الأوثان. إذ
 يمكننا التفكير في أن أكثر الأشياء دنسًا ودينيوية تحتوى ذلك السرِّ، مطويًا فيها،
 يراه أولئك الذين يرون الله مثل خلقه وليس مثلهم في آن؛ يراه من تعلم الرؤية بكلنا
 عينيه فيما يقول الشيخ الأكبر. هذا السرُّ "يمكن ملاحظته"، بل وإنه لينطوى على
 قدرة هائلة؛ القدرة على قلب معنى الآية القرآنية قلبًا كاملاً، القدرة على تحويل
 الممارسة التي يراها عموم المسلمين ممارسة مُحَرَّمَة (فالقرآن يزخر بإدانة عبادة
 الأصنام) إلى صورة من التعبد على درجة من الصحة والقبول شأن الدعاء في
 صلاة المساء^(*). ومن ثم، فحتى أولئك "الوثنيون" الذين لا يفهمون المعنى الحقيقي
 المائل في عبادتهم الأصنام- حقيقة أن النار أو البقرة أو الشمس التي يعبدونها
 ليست سوى صورة واحدة من صور الحق نفسه- سيكون "مألهم إلى الرحمة"^(٢٥).
 أما عبادة الأوثان "الفضلى" التي يمارسها أولئك الذين قد فهموا سرًّا حضور الله في
 كل مكان وزمان- وهو الحضور الذي يحيرهم- فلن يعود بقدرة المرء ووصفهم
 بأنهم "عبدة أوثان". فالوثن في هذه الأحوال يصبح وسيلة تَعْبُدِ يَعِي حَقِيقَتَهَا
 الصوفى؛ لن يعود الوثن مجرد ضحكة الله الأخيرة من العصاة غير المؤمنين، بل
 يصير- على الأصح- إعادة تعيين موقع المقدس على نحو جذرى فيما هو يومى
 عادى "ظاهر" الدنس:

(*) يقصد المؤلف الأدعية التي يتوجه بها المسلم إلى الله في صلاته، وبخاصة عند السجود، وأراد
 أن يضرب مثلاً بذلك صلاة العشاء عند المسلمين، ولكنه أحال- دون قصد أو سهواً- إلى
 الشعائر المسيحية- المترجم.

كل الصور الحسية وغير الحسية محل تجليه. فانه يتكلم من كل صورة وليس في كل صورة، تراه الأعين وتسمعه الأسماع وكلامه ليس بمسموع^(٢٦).

يتحدث ابن عربي عن قُرب الله من الإنسان دون أن يتوصل إلى حل وسط بخصوص أن الله ليس كمثل شيء؛ فتنتاب المرء غوايةً وصف هذه الإيماءة وصفاً جديداً مفاده أنها حالة من حالات التأجيل الدلالي، بالمعنى التفكيكي. وبكلمات أخرى، فبدلاً من فكّ الهيكل الأنطولوجوتي الذي قد حاول الفلاسفة واللاهوتيون وضع الله فيه، يبدأ ابن عربي- بكل بساطة- من حيث انتهى الآخرون فيزيد عليهم أن الله مدلول كل دال، دون أن يقدر أبداً على تحديد ماهية "الله". وذلك على وجه التحديد ما يقوله دريدا عن السرّ على طول أعماله.

ولعل إحدى المشكلات التي يواجهها دريدا- في حقيقة أمره- مع شخصيات من أمثال إيكهارت وديونيسيوس هي هذا الانشغال الوسواسي بالسرّ وب"ضرورة السرّ؛ ضرورة حفظه وصونه واقتسامه"^(٢٧). "شيء ما" (يسميه إيكهارت "لا أعرف ماذا" "neizwaz") مُدخّرٌ للمستقبل دوماً، محفوظ على سبيل الاحتياط، مخفي؛ وتلك هي "الحقيقة العالية" sur-verité التي يقدم عنها دريدا المثل الأتمّ في نزعة مركزية اللوغوس القلقة التي تتذرع بالاسترار والسريّة لتحجب الهاوية التي انبنت عليها. وبصرف النظر عن أن آراء دريدا مؤسسة على قراءات انتقائية إلى حد بعيد للعلامة إيكهارت وديونيسيوس المنتحل- كما حاولت وحاول آخرون غيري إيضاح ذلك في مواضع أخرى- فمن الصعوبة الكبيرة أن نساوي بين سريّة مركزية اللوغوس و"سرّ الأسرار" عند ابن عربي.

إنّ كان الله سرّاً عبادة الأوثان فهو أيضاً سرّاً الذات. واستناداً إلى كل من التصور القرآني والتراث المؤسّس عليه الذي مفاده أن الله قريب من الإنسان ومقيم فيه ("ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"، سورة ق: آية ١٦) توجد علاقة بين معرفة النفس ومعرفة الله، والعلاقة بينهما عنصر متواتر عند العديد من أسلاف

ابن عربي: الغزالي والبيروني وإخوان الصفا^(٢٨). وفي حقيقة الأمر، يكرر ابن عربي - ويطور - الإيمان الصوفي الشائع نوعًا ما بسرّ ألوهية الفرد:

- فلما حرم الفواحش أيّ منع أن تُعرف حقيقة ما ذكرناه، وهي أنه عين الأشياء، فسترها بالغيرة وهو أنت من الغير. فالغير يقول السمع سمع زيد، والعارف يقول السمع عين الحق^(٢٩).

- لا يعرف الطريق الذي يقربّه من الله ويعطيه السعادة التامة إلا من عرف ما في نفسه من الحق^(٣٠).

- سرّ السرّ: ما يميز الحق عن العبد^(٣١).

وكما ذكرنا آنفًا، كُنْه العلاقة الدقيق بين النَّفس والحق يكتنفه الغموض في النقاش الدائر بين دارسي ابن عربي^(٣٢)؛ غير أن المهم هنا أن النَّفس حاوية السرّ، مما يتصادى مع قولة سهل التُّستري ("في الربوبية سرّ، هذا السرّ هو أنت..."). فنحن أنفسنا حملة السرّ، وليس السرّ "بخارج" عنا في السموات أو خلف الجبال، وإنما هو مدفون في صدورنا لغزًا ينتظر الكشف عنه. السرّ كامن في المألوف المعتاد، في مكان لم نكن نتوقع البحث عنه فيه؛ فأشبهة مناورة هايمليك^(*) بهذا المعنى من حيث جمعه "المألوف العادي" إلى "الخفي الغامض".

وإذا كان من شرط فهم القدوس - على المستوى الإيتيمولوجي - الانفصال المتعالي، فإن تعاليم ابن عربي الخاصة بالسرّ تعنى في التحليل الأخير إنهاء أيّ تصور عن القداسة. إذ لا يعنى فهم السرّ - عند الشيخ الأكبر - اكتساب معرفة جديدة غير مألوفة تعمل بمثابة كلمة مرور أو إيماءة ما، بل يعنى - على الأصح - معاينة الكيفية التي وُجدت عليها الأشياء وتُوجد عليها دائمًا. يعنى أن نعيد اكتشاف

(*) مناورة هايمليك: إجراء طبي يُقصد به مساعدة من غصّ بالطعام أو بأية مادة غريبة على لفظ ما غصّ به، وذلك بالضغط على أعلى بطنه على نحو يحمل الهواء على الخروج من رئتيه - المترجم.

ما فى أنفسنا من رباطٍ أولى يربطنا بـ الحق (وهنا نعود إلى أفلاطونية ابن عربى)، وعلاقة بالله قائمة دومًا؛ ذلك هو "الموقف الحقيقى". ومن ثم، يمكننا القول بأن السرَّ ذكرى منسية، حيث يعنى الولوج إلى السرِّ تذكر ما قد كان عليه المرء باستمرار. ولعل أبا العلا عفيفى يعبر عن هذا المعنى بشكل أفضل:

... حين يتحدث ابن عربى عن الوحدة الصوفية بالله فهو يقصد "حالة" تُدرك فيها وحدة الوجود أو تتحقق. لن يصير الصوفى الله، إذ لا توجد صيرورة فى نظرية ابن عربى، فالصوفى واحد مع الله من حيث المبدأ، شأن كل شىء آخر^(٣٣).

ولو سلمنا جدلاً بأن غاية عفيفى الأساسية من دراسته ابن عربى إيضاح أن ابن عربى "يعتق مذهب وحدة الوجود اعتناقًا كاملاً" فمن الممكن استبعاد الظن بأن العلاقة بالله- عند الشيخ الأكبر- تقوم على أساس أى شىء آخر قاله عفيفى. ومع ذلك يصعب عدم التسليم بهذا الانطباع الذى تتركه مواضع بعينها من كتاب *فصوص الحكم*، وبصفة خاصة الفصل العاشر عن النبى هود، حيث يُفهم "الغير" بأنه وهمٌ أقامه الله ليُخفى كُنه أُلوهية النفس الحقيقى عنها. ويثير هذا الانطباع مجموعة مشكلات لدى دارسى ابن عربى، وبخاصة أن الشيخ الأكبر يؤكد فى بعض المواضع استقلال الله عن خلقه بينما يقول فى مواضع أخرى إن الله يعتمد إلى حد ما على خلقه. ولعل ما يمكن استحضاره فى هذا السياق الأبيات الشعرية الواردة فى الفصل الإبراهيمى، وهو الفصل الخامس من *فصوص الحكم*:

فأنى بالغنى وأنا	أساعده فأسعده؟
لذاك الحق أوجدنى	فأعلمه فأوجدته ^(٣٤)

ويثير إنكار غنى الله بعض المشكلات؛ لأن الشيخ الأكبر قد أفرد الله بوصف الغنى فى موضع سابق من *فصوص الحكم*؛ إذ "لا بد من فارق" بين الله والنفس. إن الله قد خلقنا، وهو يتصف بـ "غناه عن مثل ما افتقرنا إليه"^(٣٥). ومن

ثم، فمن ناحيةٍ لدينا ابن عربي "الحريص" على نسبة كل صفات الله- فيما عدا صفة واجب الوجود- إلى النفس، وهو حذر من هذه النسبة حذرًا. ومن ناحية أخرى، تقدم لنا هذه النظرةُ الجسورةُ النفسَ التي لا تكفى بمنح خالقها السعادة ومعرفة الذات وحسب، وإنما تمكنه أيضًا من أن يوجد. ولعله يمكننا حلّ هذه المشكلة بالقول إن الله في التأويل الأول هو الحق دون غيره، أما الله في التأويل الثاني الذي تدعّمه النفسُ وتصونه بالوجود فهو "إله الاعتقاد" ليس إلا^(٢٥). غير أنه يبدو من مواضع في كتاب *الفتوحات المكية* فرضيةً مفادها دخول النفس مع الحق في وحدة واحدة من حيث الجوهر، وليس الأمر مجرد فضل يغدقه الله. وفي حديثه ذى الطابع الروحي العالى عن أولئك الذين "بلا مقام"، يسمّى ابن عربي أولئك المؤمنين تسمية "الإلهيين، لأن الحق تجلّى فيهم"^(٢٦). ويقترب هذا الكلام من تصور إكهارت عن الصلة الجوهرية بين مبدأ النفس الأبدية ومبدأ الألوهية الأبدية.

عن تبعات السرِّ

طبقًا لابن عربي، وتماشياً مع هذه الاعتبارات، لا يؤدي السرُّ إلى الله بكل بساطة، وإنما يؤدي إلى محو الذات ومحقها. إذ إن معرفة "سرِّ السرِّ" تعنى ضياع النفس؛ تعنى لمح "أعماق" النفس. لقد تحدث دريدا عن "الإنسان التاريخي" الذى لا يريد إقرار "الهاوية التى تقوّض تاريخيته"^(٢٧)، ويقدم الإنسانُ الكاملُ عند ابن عربي تصورًا مماثلاً. وطبقًا لدريدا، من يؤمن بتماسك الذات ورسوخها لا يرغب فى الاعتراف بأنها بناء من الصور. وكذلك شأن الإيمان بالقوميات والمذاهب والسلالات: الإيمان الأعمى بأن هذه الأبنية المشيدة حقائق متماسكة مكثفة بذاتها،

(٢٥) المقصود باله الاعتقادات صورة الله التى خلقها كل منا بتصوره عن الله، على نحو ما فعل المعتزلة والأشاعرة اللذان كانا محل انتقادات الشيخ الأكبر، وعلى نحو ما يفعل الآن المسلمون، باتجاهاتهم المعتدلة أو المتطرفة؛ هذه الصور المصنوعة ليست ملزمة على مستوى الإيمان، وينبغى مناقشة إلزامها المُدعى على مستوى السياسة وتفنيده- المترجم.

وعَلَّتْهُ جهلٌ عميقٌ بكيفية اشتغال "المعنى" على الحقيقة؛ الجهلُ بأن أنساق العلامة جميعها مؤسسة على اختلافات لا مطلقات؛ الجهلُ بأن الدوال لا يمكن أن تؤسس نفسها إلا على مدلول يحيل بدوره إلى دال آخر، إلى ما لا نهاية له من الإحالات. ومن هنا، الهاوية التي تقوّض أساس الإنسان التاريخي.

وفي حقيقة الأمر، تؤدّي مساءلة ابن عربي المطلقات والهويات إلى هاوية من نوع مختلف؛ فالباحث عن الحقيقة عند ابن عربي يكتشف أن الحق الذي يجهله فلا يقدر على وصفه، والذي تتخفّى حقيقته فلا يقدر على تصورهما، هو الأساس في الأشياء كلها وليس فراغاً دلاليًا. ومع ذلك، فمن المهم رؤية هذين التحقيقين في أصل الظواهر بمقارنة أحدهما بالآخر؛ إذ بينما نعتز بالمصادفة التامة على الهاوية الدريدية قارة في السطح المطلق يدرك العارف الكامل المحقق أن "كل الأصول غيبٌ"⁽³⁸⁾. إن "الحياة" فيما يرى دريدا (وقد استخدمها دريدا غير مرة مرادفًا لـ *non-representable*) تعنى "أصل التمثيل الذي لا يقبل التمثيل" *origin of representation*، حالها في ذلك من حال السرّ عند الصوفي يكمن في اكتشاف أن "الحقّ أصل وجود الأشياء، وهو يغيب عن الأشياء" (المرجع السابق). وفي كلتا الحالتين، يعنى انكشاف السرّ انكشاف الآخر بجذريته؛ الآخر الكامن خلف الأشياء المألوفة لنا، وهذا الآخرُ بتمامه *taut autre* مصدرٌ ذلك الذي كنا نرتاح إلى الظن بأنه أنفسنا الحميمة التي نعرفها حق المعرفة.

ولا يعنى ذلك - مع ابن عربي - سوى أن المرء حين "يتذوق" السرّ أو الغيب لا يقدر على الحديث عنه⁽³⁹⁾. وكلمة "لا يقدر" هنا لا تعنى تحريمًا أو حظرًا، بل تعنى العجز وعدم القدرة. حين ينفذ المرء إلى عقل الحق الذي يحضر في كل مكان وزمان والذي لا يُعَايَرُ أبدًا، ينصعق المرء لأنه "لا توجد تعابير توفيه حقّه" (المرجع السابق). وكما رأينا في الفصل الأول، سرّ الحق هو موقع (لا موقع) قائم وراء عالم الاختلافات وخارجه وسابق عليه، وهو موقع لا يحدث فيه تمثيل. ويتناول ابن عربي هذا الموضوع بقدر من التفصيل في كتابه *الفتوحات المكية*:

... يستحيل أن يتقيد الله بعبارة من العبارات لأن ما يشاهده الواحد غير ما يشاهده غيره... فلا يقدر العارف على نقل ما يشاهده من ربه إلى عارف آخر؛ فكل عارف منهما يشاهد ما لا يتشاكل. ونقل المعرفة يقتضى التشاكل^(٤٠).

ولنقل مرة أخرى: لا يمكن الحديث عن الحق لا لأنه خبر أو قول أو حرف أبجدي مُسْتَسَرٌّ مُبْهَمٌ، وإنما لأنه لا مثيل له على الإطلاق. وحتى نتكلم عن الحق، لا بد من إيجاد حرف يتضمن بمفرده معانى الحروف الأبجدية كلها مرة واحدة. إن سرَّ السرِّ عند ابن عربي ليس حجب علامات ما حجباً اعتباطياً عن الرؤية العامة- كما يشير إلى ذلك دريدا في قراءته اللاهوت السلبي- وإنما سرُّ السرِّ على الأصح جذرُ كل الهويات الممتنع على التصور.

أما القول بوجود شبه بين عدم القدرة على الحديث عن السرِّ عند ابن عربي والصمت عند كيركيجارد فهو أمر مشكوك فيه. يشير كيركيجارد في كتابه *الخوف والقشعريرة Fear and Trembling* إلى أن إبراهيم لم يقدر على الكلام حين قرر الانقياد لإرادة الله وقتل ابنه الوحيد: "لم يقل إبراهيم شيئاً لسارة ولم يقل شيئاً لإسحق^(*)، إذ من سيفهمه؟"^(٤١). لم يقدر إبراهيم على الحديث عن علاقته بالله لأنه لو تحدث لتحدث بلغة تتأقضى القانون. لقد طلب منه إله الحب والعدالة أن يقتل ابنه، ولذا فسّر إبراهيم سرِّ فريد لا يماثله سرٌّ، ولن يفهمه أحد. وبسبب ذلك السرِّ سارَ إبراهيم وحيداً، ولما فهم مهمته بدأ مسيرة صمته الطويلة، دخل في "علاقة مطلقة مع المطلق"^(٤٢). وعند هذه المرحلة، بدأت لعبة إبراهيم اللغوية الخاصة، فاستعمل مفردات لم يألّفها أي إنسان، لا سارة ولا إسحق. ولم يتمكن كيركيجارد أمام هذه الجوانبية من ترجمة إيمان إبراهيم إلى ضرب من الوصف الواضح المفهوم، لأنه لا شيء لدينا ندخل معه في علاقة فهم. ويختلف هذا التصور عن

(*) ثمة اعتقاد شائع في التقاليد اليهودية والمسيحية مفاده أن الطفل المأمور إبراهيم يقتله هو إسحق وليس إسماعيل، خلافاً للتقليد الإسلامي- المترجم.

التعريف الأصلي الأكثر بساطة الذي يقول بأن السرّ خبرٌ محبوب عن بقية الناس يُوحى به لقلّة مختارة تقدّر على توصيله وإبلاغه: السرُّ هنا صار قصيدة، لا يقبل أثرها الترجمة أصلاً (ونحن نقرب الآن من بنيامين) فلا يمكن أن ينعاد إنتاجه بأية لغة أخرى غير لغته؛ فالتماهى بين صوت القصيدة ومعناها يعزلها على نحو ما انعزل إبراهيم حين اتخذ القرار: لا يمكن إعادة إنتاج التعارض الاعتيادي في القصيدة بين إيقاعاتها ومعانيها بأية لغة أخرى، فتظل القصيدة وحيدة فريدة في حزنها مثل إبراهيم.

ومع أن كيركيجارد يساير تصور ابن عربي بافتراضه وجود الله من وراء مقولات الخير والشر الثنائية، فإن سرّاً إبراهيم لا يفضي إلى انحلال الذات وذوبانها. والكلمة العربية التي يستعملها الشيخ الأكبر ليصف بها هذه الحال هي **الفناء**، فيكثر من استخدامها حين يصف رجوع النفس نهائياً إلى الحق:

في الاتصال بالحق يفنى الإنسان عن نفسه، فينجلى الحق حتى يكون سمعه وبصره. وهذه معرفة "الذوق". فالحق لا يكون في عضو منه حتى يحترق بوجوده. فيحضر الحق عند فناءه^(٤٣).

وكما يقول دريدا: سرُّ الذات هو أنه لا توجد ذات. وإلى أن نكون مستثيرين نجد أنفسنا متأصلين في شيء نظل جاهلين به جهلاً أساسياً. أما المدى الذي يمكن عنده مقارنة تصفية الذات في التصوف بالتعريفية التفكيكية للذوات الوثائقية من نفسها **autos** فهو مسألة صعبة. وما من شك في أن دريدا لا يكشف عن وهن الأساس الذي تقوم عليه الهويات كي يدمجها مرة أخرى في نسق حضور متعال أكبر، ولا يفعل ابن عربي أيضاً ذلك. **فالحق** ليس "كينونة" بأي معنى من معاني الكلمة الأنطولوجية. ذلك أن فهمه المتميز **للفناء** يجعل منه ذوباناً وانحلالاً، لا إضافة ولا تجسيداً؛ لأن الحق ليس **جسماً**. الحق قوة لا شكل لها ولا صورة محددة، إنه قوة مجهولة مستخفية تنتقل عبر الخلق وإعادة الخلق من جديد دوماً وأبداً. وحين يدرك زيد أن سمعه وبصره مستمد في حقيقته من الحق لا من

"نفسه"، فسوف تبرز إلى حيز الوجود صورة مختلفة عن الكون. ولعل العديد من تفاسير ابن عربي الخلاقية لآيات قرآنية معروفة تُفهم فهمًا مغلوطاً لهذا السبب عينه، وهي التفاسير التي يمتدح فيها الأشرار ويحطُّ من شأن الأخيار. وقد انصرف نقاد الشيخ الأكبر عن هذه التفاسير بحجة أنها تكشف عن نسبية الممارسة الأخلاقية أو الحكم الأخلاقي؛ فأخفقوا في أن يضعوا في حساباتهم حضور الله الكلي في كل الأشياء "الخيرة" و"الشريرة" على السواء.

وبطبيعة الحال، تفترض تصفية الذات وحلُّها تصفية المسئولية أيضاً وحلُّها. فإن كانت تقاليد المرء وممارساته الأخلاقية (أدبه) تابعة من اعتقاده في الله بوصفه الآخر فحين يتلاشى هذا الاعتقاد تتلاشى معه الالتزامات الدينية: "الأدب يستلزم الآخر. وحين يوجد مقام يتلاشى عنده كل آخر يكفّ الأدب، لأنه لم يعد يوجد هذا الآخر"^(٤٤). تعني معرفة السرِّ اكتشاف أن المرء لم يعد يقع عليه عبء القيام بأيّ شيء، نظراً لقيام تصورات الالتزام على العلاقة بالآخر. ويعني "ذوق" السرِّ الغيبي صيرورة السرِّ: سرّ الله، والصيرورة انعدام الصورة والاستخفاء وانعدام الصفة، وهي الله نفسه. وعند هذه النقطة، يولع ابن عربي بالاقتراب عن الصوفي أبي يزيد البسطامي (المتوفى ٨٧٨) قَوْلته الآتية:

قيل لأبي يزيد: "كيف أصبحت؟" قال: "لا صبح ولا مساء عندي؛
الصبح والمساء عند مَنْ قيده الصفة، وأنا بلا صفة"^(٤٥).

ونرى صدى هذه القولة فيما يقوله ابن عربي عن الوصول إلى "مقام المعرفة":

لا خلف لي ولا أمام، فلا فرق بين اختلاف الجهات، فقد كنت
كالكرة...^(٤٦).

ويتضح من هذه الأمثلة أننا- في حقيقة الأمر- بصدد تفكيك الذاتية؛ أيّ بصدد إدراك يعي وعياً كاملاً أن صفات المرء ونواياه وأفعاله جميعها تنتمي إلى

شئ أكبر من ذات المرء: تنتمي إلى آخر الذات لا إلى الذات. ومن اليسير الوقوع على نسخة معاصرة من هذا الإدراك؛ فنفهم أخيراً سرّ الإمكان الثقافي الذي يفسر كل عاداتنا ومعتقداتنا، وندرك أننا نرى العالم على نحو ما نراه بفضل خطوط العرض والطول التي ولدنا ضمن حدودها، وبفضل قراءة الكتب المائة الأولى، وبفضل عاداتنا التلفزيونية، وانفعالات والدينا ولا مبالاتهم، وبفضل آلاف العوامل المجهولة التي شكلت ستارة مسدلة على أوامنا عن "أنفسنا".

"فلا فرق بين اختلاف الجهات...": كما لو أن المرء مضى في النهاية إلى ما وراء الاختلافات الثنائية بين الصواب والخطأ، اليسار واليمين، الشرق والغرب، "الخير" و"الشر". ومن الصعب تجنب القول بأن العثور على السرّ عند ابن عربي يعني-- بطريقة ما وبكيفية غريبة في معاصرتها-- أن حال الأشياء حال اعتباطية مطلقة. وبطبيعة الحال، إذا فهم المرء أن المؤمن الفرد غير متمركز في حضور الحق الكلي، فسيكون من اليسير على المؤمن "التقليدي" أن يتقبل تعليقات ابن عربي على الصلاة وعبادة الأصنام (أو على الأقل عدم استبعادها بحجة إشاعة روح النسبية الكلية)، وهي التعليقات التي تثير خلافاً أكبر. أما إن اقتطعنا هذه التعليقات من سياقها، فنسكون بلا شك أمام عدد لا حصر له من التعليقات يتضمنها كتاب **الفتوحات المكية** ويمكن أن نفهم على أنها "نسبية" حتمية أو حتى عدمية:

- أصل الأشياء جميعها التفرقة [الاختلاف]..

- تُشاهد الأشياء باعتبار بُدوّها لا باعتبار كينونتها. فلا فرق بين الملك والخاضعين له في الإنسانية.

- ... لا توجد صور ولا كينونة تتمايز إحداها عن غيرها.

- فإن قلت إن [كرة الحياة] هي الكون فأنت على حق، وإن قلت إنها ليست الكون فأنت على حق، وإن قلت إنها الحق أو ليست الحق فأنت على حق، لأنها تقبل كل هذا.

- يعجز "الشر" عن درك غرض الإنسان وما يلائم طبيعه.

- قد يكون الاعوجاج استقامة على الحقيقة، كاعوجاج القوس:
فالاستقامة المرادة منه اعوجاجه^(٤٧).

ثمة ميول مشتركة تسرى في كل هذه الأقوال على اختلافها: الابتهاج بوضع المتعارضات جنباً إلى جنب، وإيضاح أنها تعنى - في حقيقة أمرها - شيئاً واحداً، لو فهمناها بشكل مختلف. وثمة أيضاً وعى بأن الهوية أو المعنى مقيدان بالعلاقات، وأما خارج هذه العلاقات فتفقد الأشياء معناها الظاهر. والأهم من ذلك وجود فهم عميق يستبصر اقتضاء الهويات نقائضها حتى تدلّ على معنى، وفي هذا السياق نتذكر تعريف ابن عربي الجَنَّةَ بأنها المكان الذى تكون فيه السعادة مهددة باستمرار^(٤٨). حين "يذوق" المؤمنُ عراءَ الغيب عن الوصف يتعذر عليه التسليم مرة أخرى بأية قيم وتقاليد على نحو ما كان يفعل قبل ذوقه. وحين يوجد المؤمن فى منزلة "عارية عن الدرجات"^(٤٩) تغدو كلمة "التراتبية" ذات رنين عبثى لا طائل من ورائه.

وبرغم ذلك، لا ينتهى ترقى النفس بالفناء ولا بالتخلى عن التقاليد. إذ حين يلمح المؤمن سرَّ الهاوية الإلهية التى يركز إليها كل شيء، يتولد عنده أحد رَدَى الفعل الممكنين الآتيين: الخوف أو الاستتارة. فما يُرى شديد الوطأة على البعض:

ثمة مَنْ جرب الكشف ثم ولى عائداً إلى العالم المرئى؛ لأنهم رأوا ما أفرعهم فى كشفهم. وكان منهم صاحبنا أحمد الأسد الحريرى. فعندما أخذ عاد بسرعة إلى حواسه مرتجفاً مرتعشاً. وقد لُمته وطلبت منه ألا يفعل ذلك مرة أخرى، لكنه قال لى: "أنا مرتعب مفزوع مخافة أن تضيع نفسى فى ما رأيت..."^(٥٠).

وعلى شاكلة صاحب ابن عربى كثيرون يخشون ضياع أنفسهم وصيرورتهم إلى الجنون. وحين يعود أولئك الأكثر استعداداً للعودة باختيارهم إلى حدود تقاليدهم

وعالمهم يعودون بفهم مختلف. وكما رأينا في فصل سابق، يترتب على معرفة أن الله حاضر في كل زمان ومكان أن يصير استقبال القبلة (توجُّه المصلى جهة مكة) أمراً غير ضروري، لكن هذه المعرفة الجديدة المختلفة لا تؤدي بآبن عربي إلى القول بعدم وجوب استقبال القبلة في الصلاة؛ بل على العكس يقول لنا الشيخ الأكبر بوجوب المحافظة على الصلاة جهة مكة على شرط واحد؛ ألا وهو أن ندرك أن الله ليس محصوراً في هذا المكان فقط وإنما هو في كل الأماكن الأخرى أيضاً. ويكرر ابن عربي في أعماله هذه المحاذير لخشيته من أن تُفرض معرفة السرِّ بالمؤمن إلى طريق البعد عن الشريعة:

قد يحدث لمن ملك الكشف [من عرف السرِّ] أن يكون في عالم الحس تحت حكمه، بينما لا يعتقد فيه باعتبار نفسه. فهو يعمل به بمقتضى الظاهر، وهو يقول لنفسه "اللتزم في الظاهر بالأوامر الشرعية لأنى عرفت سرّها. فتختلف صفتها في سرّي عن صفتها في علني"^(٥١).

وتصل هذه الحال إلى ما يسميه ابن عربي "إهدار ميزان الشرع" (المرجع السابق). والشيخ لا يرتضى هذه الحال. فالتفاوت الكبير بين الظاهر والباطن غير مقبول عنده. إن سرّ الذات - وعلى وجه التحديد لا ذاتيتها - ينبغي ألا يتعارض مع الأدب. والشيخ الأكبر يؤكد هذا. وكما رأينا في الفصل السابق الخاص بالتأويل، لا بد من وجود ضرب من الصلة بين السرِّ (الباطن) وممارسة السرِّ (الظاهر). ففي هذه الفقرة، يُنهم المؤمن الذي أدته معرفة السرِّ إلى ممارسة ليست من الإيمان في شيء. إذ بدلاً من أن تزيده معرفة السرِّ روحانية تملؤه بالرغبة في رعاية الشريعة، أورثته لا مبالاة وغروراً: "لأنى أعرف سرّاً ما أفعل فلا حاجة بي إلى فعله مرة أخرى".

وعليه، فإن أدت معرفة السرِّ بالفرد إلى العدمية فهي تُهدر أيضاً تقاليد الإيمان والعادات والأعراف المؤسسة على علاقة الفرد بالله. وهنا، يتولد عند ابن عربي تخوف عميق راسخ من أن يسلب كُنهُ الله المحيط الذي لا مثيل له الصوفى عن تقاليد الإيمان التي هي - في حقيقة أمرها - سلوك محدد قائم على فهم الله

فهمًا واضح الحدود والمعالم. إذ حين يدرك الناس أن الحقَّ غير المحدود بحدِّ كامنٍ في كل الأشياء وفي كل الجهات (بما فيها أنفسهم)، يتخوف الشيخ من أن يصير "المستبّر" بهذا الإدراك غير مهتم بأداء فريضة الحج أو باستقبال مكة في صلاته. إذ إن أية تقاليد دينية تعتدُّ بفكرة امتناع الله على التصور اعتدادًا كبيرًا تنطوي في داخلها على مقدرة تصفية الذات وفكّها؛ بمعنى أنها تحمل إمكان مساءلة علة وجود ما تفرضه هذه التقاليد من ممارسات وأعراف. وليس الباعثُ على تخوف ابن عربي من إظهار التحريض على التهاون والخلاعة الأخلاقية (وهي تهمة معنادة تُوجّه إلى المتصوفة جميعًا) باعثًا خارجيًا من قبيل الرغبة في إظهار "الطريق القويم" أو "الصحيح السليم"، وإنما على العكس، يُبدى الشيخ الأكبر نوعًا من الرقابة والانضباط الذاتي فيما يتعلق برفع الستار عن أفكاره التي تُثير خلافات كبرى، وبصفة خاصة في كتابه *فصوص الحكم*؛ إذ يبدو أن الشيخ يعانى قلقًا أصيلًا كامنًا خلف إلحاحه المتواتر على عدم التخلي عن الأدب بعد إدراك سرِّ الحق. ولعل قلقه ناجم عن الخوف من أن يؤدي الكشف عن سرِّ ألوهية النَّفس إلى شعور بالعظمة والكبرياء المفضى إلى مجاوزة حال التواضع والذل.

والحال هكذا، فلا ريب أن نموذج العارف الأكمل عند ابن عربي، هم الملامتية الذين يجسدون المثل الأتمَّ على التواضع وعدم الشعور بالتميز على سائر الخلق. فبالرغم من أنهم ذاقوا سرَّ الله (أي "حققوا المقامات جميعها وعرفوا أن الله يحجب نفسه عن الخلق في هذا العالم")^(٥٢)، فإن أولئك العارفين المحققين يتميزون بعاديّتهم المطلقة. ومع أن "كل شيء في نظرهم محدود بالله" (المرجع السابق)، فلا يجعلهم هذا الوعي بحضور الحق في كل مكان وزمان يتخلّون عن سياقاتهم الثقافية أو ينظرون إليها نظرة الأمر الغريب أو غير الضرورى، وإنما هم على العكس يتجاوبون تجاوبًا كاملاً مع مجتمعهم، فيختلطون بعامّة الناس دون أن يخمن أيُّ أحد منزلتهم الحقيقية:

يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس... [مع أنهم] بمفردهم مع الله.
... الملامتية لا يميزون أنفسهم عن بقية خلق الله بأية ميزة، فلا يعرفهم أحد، منزلتهم من منزلة سائر الناس (المرجع السابق).

وقد يتسامح المرء مع اعتقاد الملامتية في أنهم سرُّ المجتمع، فهم يعيشون مستترين بين عامة الناس، يحذون حذوهم تمامًا في طرق عيشهم وسلوكهم، بينما يبقون على علاقة وثيقة حميمة بالله المطلق من وراء كل شيء. ويرى ابنُ عربي في أحوال الملامتية التي لا تلفت أنظار الناس فضيلتهم الأتم، على عكس العبّاد الذين يلفتون انتباه الناس إليهم بإظهار القداسة، وعلى عكس المتصوفة الذين يعرفهم الناس بـ"خرق العادة"، أما العارفون المحققون الأوائل فيظلون بسطاء، يظلون مواطنين عاديين يعيشون حياتهم اليومية فلا تميزهم عين الرائي.

ولعله من الصعب عدم استحضار كيركيجارد مرة أخرى، ونحن أمام هذا النوع من تمجيد عودة خارق العادة إلى العادة واحتسابه عاديًا. فـ"فارس الإيمان" الشهير عند كيركيجارد - حاله من حال العارفين المحققين "المنعزلين مع الله" - يقف دومًا "في انفصال مطلق" (٤٣)، وفي الوقت نفسه ينتمي - بالمفارقة نفسها - انتماءً كليًا تقريبًا إلى المجتمع؛ ومع أنه "يشعر بألم هجر كل شيء في العالم" فهو "يسترد كل شيء على أساس من اللامعقول" (٤٤)، وبرغم أن فارس الإيمان يقف وحيدًا بانفصاله عن "عموم الناس" فإنه يبقى في العالم مشاركًا فيه؛ فلا تكشف أصالة إيمانه عن نفسها بأفعال زهدية إعجازية (شأن المتصوفة والعبّاد الذين يأخذ ابن عربي عليهم أفعالهم تلك)، وإنما تكشف عن نفسها - على الأصح - باندماجه الكامل مع البرجوازية الصغيرة: "وحتى رجل المدينة الذي يخرج بعد ظهر الأحد متأنفًا ينتزّه ماشيًا إلى فريزبرج لا يبطأ الأرض بقدم أرسخ منه" (٤٥). إن فارس الإيمان - شأن الملامتية - لا يختلف عن من هم حوله، مع أنه يرقى على أقرانه بسنوات من المعرفة الروحية: "إن لم يكن المرء يعرفه فمن المستحيل أن يميزه عن بقية الناس". ويقول كيركيجارد في أحد تشبيهاته الأكثر دقة، إذا كان الراقص الماهر

يثب في الهواء وعلى الأرض ليتخذ وضعًا في الحال، فإن فرسان الإيمان لا ينجحون في القيام بهذه الحركة السلسة، لأنهم يترددون برهة، "ويجعلهم ترددهم هذا غرباء عن العالم"^(٥٦).

وبطبيعة الحال، ليس من الصحيح القول بأن علة غربة الملامتية عن العالم- بالرغم من صورة باموق Pamuk المزاحية التي مؤداها أن ابن عربي "وجودى طيلة الوقت"- هي نفسها العلة في غربة فارس الإيمان عند كيركيجارد عن العالم. ولكن توجد بينهما تشابهات لافتة من حيث رجوعهما إلى الدنيوى اليومى بعد التجربة التي جعلت- بكل الحسابات- من كل شيء نافلة لا ضرورة لها. ففي الحالين، يرجع الأفراد المهمومون إلى أناس لا يقدرّون على فهمهم. وفي الحالين، يتقبل فارس الإيمان والعارف المحقق باختيارهما هذا الموقف فيستخفیان برقيهما الحقيقى إلى حد التعمية على من حولهما بالمشى فى الأسواق والطرقاات محتفظين بسرهما لنفسيهما. وهُم "السعداء" حقًا. وفيما يرى هؤلاء، لا يعنى لمح السرّ تغيير حياتهم، وإنما يعنى على الأصح تغيير موقفهم منها.

وبكلمات أخرى، نحن أمام سرّ يضع كل معتقداتنا وأهواننا السابقة موضع السؤال، غير أنه السرّ الذى- حين نعرفه- يدع كل شيء كما هو. فهل من الممكن القول بوجود شبه هنا بين السرّ بهذا المعنى وسعى دريدا إلى تفكيك مبادئ الأخلاق دون التخلّى عن الأخلاقية؟ استنباء قيم ما ماركسية/نسوية حتى بعد معرفة سرّ الهاوية التي أقيمت عليها هذه المذاهب؟ وبطبيعة الحال، يُتَّهَمُ المفكرون من أمثال ابن عربي ودريدا ممن يسألون بطريقة غير مألوفة تصورات "الخير" و"العدالة"- يُتَّهَمون بأنهم غير أخلاقيين، وعليهم باستمرار اللجوء إلى الطريقة نفسها تقريبًا من الدفاع الدينى لطمأنة النقاد على عمادتهم الإسلامية أو حسّهم الأخلاقى (وقد قام هيدجر بدفاع مشابه فى مؤلفه رسالة فى النزعة الإنسانية Letter on Humanism، حين تُخَوَّفُ من أن تعنى مناقشة النزعة الإنسانية، التحريض على اللإنسانية"^(٥٧)). إن إلحاح ابن عربي على أن السرّ عنده لا يعنى التخلّى عن الأدب

بل يعنى فهماً أغنى له، هذا الإلحاح يجد نظيراً له عند دريدا، إذ يلح دريدا على أن الكشف التفكيكى عن السرّ المتمركز لوغوسياً فى القيم السياسية والأخلاقية التقليدية لا يعنى بالضرورة هدمها، وإنما يعنى على الأصح إعادة تثمينها ثم إطلاقها من جديد.

وكان دريدا قد كتب عن هذه القضية بكل أبعادها؛ فى مؤلفه "انفعالات" عبّر دريدا عن احتراس يمكن فهم مغزاه فيما يتعلق بـ"إعادة إضفاء طابع أخلاقى على التفكيك"^(٥٨)، وهو أمر متوقع يغامر فى النهاية- على الرغم من "جاذبيته"- بـ"توكيد نفسه من جديد كى يطمئن الآخر" (وفى ذلك إشارة ضمنية إلى مختلف أشكال الهجوم التى تصف عمل دريدا بالأخلاقية واللامبالاة السياسية)، وينحدر على مستوى التمركز اللوغوسى إلى حالة "سبات دوجماتيقى جديد" (المرجع السابق). إن نموذج العارف الكامل عند ابن عربى لا يوجد- فى حقيقة الأمر- عند دريدا؛ ذلك العارف الذى يلمح سرّ فقدان ذاته ويظل قادراً على العيش فى العالم الواقعى بلا أىّ تغيير ملموس على سلوكه الخارجى. ومن العسير تخيل أن الاشتراكى أو النسوى الأرتوذكسى يُسلمُ بافتقاد كلمات من قبيل "الإنسانية" و"اليوتوبيا" و"المرأة" أسنّها الدلالية التى تقوم عليها، ويقدر على الاستمرار كما لو أن شيئاً لم يحدث. فى كتاب *مواقع Positions* (١٩٧١) وجّه هودبين Houdebine سؤالاً إلى دريدا يتعلق بالأثر الذى سوف تحدثه الممارسات التفكيكية فى "المشهد الإيديولوجى الراهن"، فأجاب دريدا بشىء من التحفظ نوعاً ما قائلاً إنه "لا مبرر لأن تنتظر منها... قدرة على التأثير فورية وشاملة"^(٥٩). أى: سيمرّ وقت قبل أن تُحدث الممارسة التفكيكية آثارها الملموسة، من قبيل: إعادة تحليل مفهوم الإيديولوجيا، إعادة فهم العلاقة بين "النص المحدود أو السلسلة الدالة" و"الواقع". وما دامت هذه العملية تحدث تدريجياً، فسوف يعرف إيديولوجيو المذاهب جميعها- فى نهاية الأمر- أنهم "لن يعود بقدرتهم تقييد [أنفسهم] إلى حدود سابقة" (وتلك عبارة صوفية لا يمكننى مقاومة إغراء استخدامها فى هذا السياق). وكثيراً ما

يستخدم دريدا كلمة "الخلخة" (ébrander) trembling لوصف ما يحدثه التفكيك من أثر: "من الواضح أن آثار هذه الخلخة "موضعية" تمامًا، ولأنها كذلك، فهي تتطوى في الوقت نفسه على انفتاح غير موضعي، يدمر حدودها ويجنح إلى ربطها بغيرها... في صيغ جديدة دون دعوى بالغموض أو السر" (٦٠). تتخلخل البنية وترتج فتسقط إلى موضع يجب على المرء عنده الاعتقاد بأن الحياة هي في مكان آخر. وليس في ذلك تصور عن تأدية السر إلى عودة إلى المعتقدات والممارسات الممكنة ثقافيًا، كما هو حاصل مع ابن عربي. إذ على خلاف الملامتية، يؤدي لمخ واقعية الهاوية الميتافيزيقية التي يتأسس عليها نسق العلامة الميتافيزيقي إلى فتح ثغرة في مؤشرات الميتافيزيقا ومعاييرها لا إعادة إثباتها؛ وتلك "إرادة تغيير" تَمْضِي نحو شيء جديد جزريًا "يدمر" الحدود السابقة ولا يصون- ولو بطريقة "مستتيرة" تتطوى على مفارقة- الممارسات والعادات نفسها التي كان المؤمن مقيدًا بها حين كان "جاهلاً".

خلاصة: الوهم الخادع عند دريدا وابن عربي

لو أخذنا بأيدينا أى كتاب، وليكن موضوعه الألوهية أو الميتافيزيقا المدرسية مثلاً، فلنسأل أنفسنا: هل يقدم هذا الكتاب تفسيراً مجرداً للكم أو العدد؟ لا. هل يقدم تفسيراً تجريبياً للواقع والوجود؟ لا. ألق به إذن إلى المحرقة: لأنه لا يقدم شيئاً بل سفسطة ووهماً خادعاً (ديفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشرى، III، ص ١٢).

تأتى كلمة illusion (= وهم، خداع) من الفعل اللاتيني illudere الذى يعنى لعب بـ أو سخر. حين نسقط ضحية الوهم فهذا معناه أن شيئاً ما يتلاعب بنا، يخدعنا ويضللنا. وبطبيعة الحال، فالكلمة محايدة فلسفياً؛ إذ يمكن أن يستخدمها على حد سواء المتصوفة والعلماء والتجريبون وآباء الكنيسة وما بعد البنيويين. وذلك ما جعلنا نقول إن دريدا وابن عربى- كل على حدة- يتشابهان فى تأكيدهما فكرة الوهم، كما يتشابهان فى فهمهما ما ينطوى عليه هذا الوهم من مثالب، ويتشابهان أيضاً فى إلحاحهما على ضرورة اختراق هذا الوهم إن كنا نريد حقاً "معرفة" أى شىء بالمرّة.

وفيما نعرف جميعنا، الوهم كذبة مستترة، وليس حقيقة لم نكتشفها بعد. إن الواهمن المضللين أسارى كذبة لا يرتابون فى أنها صادقة. وعند هذا المستوى المحدود، يتفق هيوم Hume ودريدا وابن عربى. يرى هيوم، المطمئن إلى إفاقة كانط من "سباته الدوجماتيقى"، أن دعاوى الميتافيزيقا الدوجماتيقية التى لا يمكن التحقق من صحتها هى التى تقدم الوهم (ويمكن القول إن أفكار ابن عربى تُعدُّ مثلاً نموذجياً على هذا النوع من الدعاوى). فلا عجب أن يكون حل هيوم هو الاهتمام بـ"الواقع والوجود العينى" وحدهما، والتخلّى عن "السفسطة والوهم" اللذين يقدمهما الفكر الميتافيزيقى.

وإذا كان دريدا وابن عربى يتفقان مع هيوم على أن الوهم يحدث فى كل مرة نمارس فيها الميتافيزيقا، فلا ريب أنهما لا يوافقانه على البدائل العملية التى يقدمها لهذا "الوهم". إذ يرى الصوفى (ابن عربى) والمنظر (دريدا) أن العقلانية والتجريبية ليست بأقل وهماً من دوجماتيقية الميتافيزيقا. يرى دريدا أن تصور هيوم عن الوهم يرتكز إلى فرضه المغلوط بأنه يوجد "شئ ما" وراء العلامة التى تمثلها الميتافيزيقا تمثيلاً مغلوطاً. يقترح هيوم- على الرغم من مكانته الذائعة بوصفه "أشد ملاحدة اسكتلندا شهرة"- المذهب التجريبيّ الذى لا يقل فى تعاليه عن الميتافيزيقا التى كان يسعى إلى خلعها عن مكانتها التى احتلتها. وقد خلط أحد نقاد

دريدا المعروفين التفكيرَ بنزعة الشك عند هيوم فجعل من دريدا نسخة فرنسية من هيوم دون فهم السبب الحقيقي في أن النقد التفكيكي لمركزية اللوغوس لم يُعَرَّج على "الألوهية أو الميتافيزيقا المدرسية"^(٦١).

ولعله من الطبيعي وجود أسباب واضحة تفسر لماذا لم يكن ابن عربي ليتقبل التجريبية الإنجليزية اللا أدرية في القرن الثامن عشر، وعلى وجه التحديد رفض هيوم رؤية أن "كل شيء محدود بالله"! أما بخصوص مسألة الوهم فابن عربي كان سيرى أن هيوم قد حالفه الصواب بقوله إن الميتافيزيقا تُعمينا عن الحقيقة وأن الصواب قد جانبه حين اعتقد أن العقلانية والتفسير التجريبي يجعلاننا أقرب إلى الحقيقة. كان ابن عربي سيرى أنه لا فارق هنا بين الأمرين؛ لإيمانه بامتناع الحق على التصور امتناعاً جذرياً. فعند تناول ذلك الذي "ليس كمثل شيء" لا يكاد يهّم ما إذا كان المرء مثاليًا أم عقلانيًا أم تجريبيًا؛ فالمرء يسعى إلى إيجاد صور يصف بها ذلك الذي لا صورة له.

تنتشر الموتيفات المرتبطة بالوهم، كالحلم والخيال، في أعمال ابن عربي ودريدا على السواء، ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن جذوة الشك الباطنية تقريبًا عند كليهما تقضى إلى نتائج متشابهة في قولهما بأن الواقع والمعنى وهمٌّ. ومما له أهمية مركزية في النسق الفكري عند الشيخ الأكبر أن العالم الذي نراه حلم (رؤيا)، بما يحمله ذلك من أصداء كالديرونية Calderon. وشأن العديد من الموتيفات عند ابن عربي، فالوهم مصطلح يستعمله المتصوفة وأصحاب الأفلاطونية المحدثة ليصفوا به حال الجهل المستحكم بغير المستثيرين الذين يعجزون عن إدراك التزامن بين حلول الله وتعالیه؛ وهذه الحال يسميها إخوان الصفا "رؤيا الغفلة"^(٦٢). ويكرّس إيزوتسو Izutsu في درسه المقارن بين التصوف والطاوية^(٦٣) الفصل الافتتاحي لموضوع الوهم عند ابن عربي؛ فيبدأ بفقرة مفتاحية يقتبسها عن **فصوص الحكم**:

(٦١) الطاوية: عقيدة دينية تميل إلى وحدة الوجود، فتزى أن سعادة الإنسان رهن بحفاظه على طبيعته وتحقيقه قدره باطراح هموم الحياة واجتناب الخوف من الموت والعيش ببساطة =

فالعالم متوهم ما له وجود حقيقي، وهذا معنى الخيال. أى خيّل لك أنه
أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الحق وليس كذلك فى نفس الأمر ...
فاعلم أنك خيال وجميع ما تدرّكه مما تقول فيه ليس أنا خيال. فالوجود
كله خيال فى خيال^(٦٣).

إذا كان الحقُّ سرّاً الأشياء جميعها، فالوهم هو جهلنا بهذه الحقيقة. فحقيقة أن
وجودنا متوقف على الحق الممتنع على التصور محجوبة عنا؛ وما دمنّا نعتقد أننا
"تعنى" شيئاً مستقلاً عن الله فنحن مضللّون مخدوعون. وما يُثبِتُ وهمَ استقلالنا
اعتقادنا الواهم فى أن للأشياء هوية بسيطة، بما فى ذلك "أنفسنا" فنشعر أننا
منفصلون مستقلون بأنفسنا. وإيزوتسو على صواب حين يلحظ أن "الحلم" أو "الوهم"
أو "الخيال" ليس معناها الدلالة على أمر بلا قيمة أو أمر زائف، وإنما تعنى ببساطة
"الوجود الرمزي"^(٦٤). حين نخترق وهم المعانى اليومية المعتادة فننفض إلى ما
وراءها سندرك أن كل شيء رمز على الله. فكل شيء نبصره يعود بنا إلى هاوية
الحق الأولية.

وقد يشعر المرء بادية ذى بدء بالتردد فى نسبة مصطلحات واضحة
التعالى من قبيل "الوهم" و"الحلم" إلى مشروع دريدا، برغم أن هذه الكلمات تتكرر
فى أعماله، وهذه أمثلة على ذلك (والتشديد فيها من عندى):

- أثر اللغة يحملها على تمثّل نفسها من حيث هى إعادة تقديم تعبيرية،
ومن حيث هى ترجمة ما كان قد تكوّن فى الداخل إلى الخارج. ...
ولا ريب أن الميتافيزيقا تؤسّس نسقها الجبّار على هذا
الوهم... (مواقع).

=وعفوية كالأطفال. ولا يحدث ذلك كله إلا باتباع الطاو بما هو المبدأ الأول الذى ينبثق عنه
كل وجود وتغير فى الكون. وتعنى كلمة الطاو لغويّاً الطريق. ويُعدُّ الفيلسوف الصينى
لاوتسو مؤسسها الأول - المترجم.

- ... يُنتج هذا الحادثُ نوعًا من السراب الدلالي: انحراف المعنى وأثره المنعكس في الكتابة يبرز أمرًا ما (مواقع).

- ... سراب الشيء نفسه، سراب الحضور الفوري، سراب الإدراك الأصلي (في علم أنساق الكتابة).

- ويرتاب روسو أيضًا في وهم الكلام الحاضر الممتلئ، وفي وهم الحضور في الكلام المظنون أنه شفاف وبريء (في علم أنساق الكتابة).

- حلم [ليفيناس] بالفكر المختلف اختلافًا محضًا من حيث أصله ومصدره. وإنه لفكر خالص ينطوي على اختلاف مرجئ خالص... ونحن نقول حلمًا؛ لأنه يتلاشى مع شقشقة النهار بمجرد أن تستيقظ اللغة (الكتابة والاختلاف) (٦٥).

سراب، وهم، حلم: يبدو أن دريدا يوظف مجموعة مُسرّومة من الاستعارات حين تقع موضوعاته التي يتناولها ضحيةً فتنّة "المعنى الفوري الممتلئ". ففي الاقتباسات الأربعة الأولى، يبدو الوهم في حده الأدنى وهما مرجعيًا؛ بمعنى أنه ثمة اعتقاد في أن كل علامة تشير، أو تحيل بطريقة ما، أو "تعبر" عن شيء متعين تقريبًا، شيء "واقعي" تقريبًا. ولا يفهم ضحايا هذا الوهم أن المدلول "يحتل دائمًا موقع الدال فعليًا" (٦٦)، وأنهم متى تحدثوا بهذه الثقة عن الوهم أو الجنون أو النقاء والظهر فإحالتهم في حقيقة أمرها إحالة إلى شيء آخر، إلى ما لا نهاية.

وبتعبير آخر: نزعة مركزية اللوغوس تحلم؛ تحلم بالاستيلاء على اللوغوس والأصل، تحلم بالعودة إلى حديقة فردوسية. وسواء كان الأمر يتعلق بسعي ليفيناس إلى الآخر في نقائه، أم ببحث هوسرل عن أصول ديكارتيّة يؤسس عليها تصوّره عن "الموضوعية"، فقد سعى دريدا في كثير من أعماله إلى إيضاح أن المفكرين الذين هم على هذه الشاكلة "يحلّمون" متى فتشوا عن "أصل" الأشياء أو "واقعيّتها".

وثمة حديث مشهور يورده ابن عربي في *فصوص الحكيم*، يمكن قراءته بنوع من المفارقة الساخرة في هذا السياق: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"^(٦٧). والميتافيزيقا عند دريدا هي هذا النوم، ولا يدرك النائمون أنهم ينغمسون في النوم (وإن كان روسو ليس منهم)، أما التفكيك فهو "اليقظة" من هذا النوم، التفكيك "هزة" توقيظ المفكر من سباته الدوجماتيقي، أو من سباته المتمركز لوغوسياً على أقل تقدير. يُنهي دريدا كتابه في *علم أنساق الكتابة* بعبارات قالها روسو:

وسيقال إنى أنا أيضاً أحلم. نعم أعترف بذلك؛ ولكنى أفعال ما عجز عنه الآخرون؛ فأقدم أحلامي على أنها أحلام، وأترك القارئ يبحث فيها عن أى شيء قد ينفع الناس الصالحين^(٦٨).

وبرغم أن إيراد هذا الكلام في هذا الموضع لا يعبر عن الولاء لمفكر أرفع مقاماً، لا ولا يعبر عن إطراء مفكر متواضع، فما يقوله دريدا من خلال هذه الفقرة هو "شكراً" لنزعة مركزية اللوغوس الضالة عند روسو. لقد أتاح روسو الحالم لدريدا، وهو أحد اثنين أكثر "انتباهاً ويقظة" (أحد "اليقظين")، استخدام الأحلام استخداماً تفكيكياً، تلك الأحلام التي قد سعى إلى تمريرها على أنها "فلسفة". فهم دريدا في وضوح النهار ما عجز روسو عن رؤيته وفهمه في سويغات الليل؛ لقد التبس الفراغ الدلالي الذي تتطوى عليه كلمات الحلم على روسو فحسبه الواقع: حسبه الأصل والطبيعة والبراءة.

عند هذه النقطة، قد يستشعر المرء أن تصور دريدا عن "الوهم" على صلة بالكاد بالخيال عند ابن عربي. وفيما عدا استخدامهما مجموعة متشابهة من الاستعارات، ثمة صلة بالكاد بين النظرة الصوفية إلى العالم على أنه وهم، ووهم المعنى في الرؤية التفكيكية. ولا ريب أن دريدا - على النقيض تماماً من ابن عربي - يرى كلمة "وهم" نفسها وهماً. أفلا يستعيد الوهم عند دريدا الوهم عند نيتشه (ونيتشه هو مؤلف *أفول الأصنام*) الذي يرفض نسبة الوهم إلى عالم الحواس، لصالح "عالم حقيقي" ما، هو في حقيقة أمره "إضافة كذوبة"^(٦٩)؟

لعل الإجابة عن هذه الأسئلة أن تكون: "نعم" و"لا". فمن جهة أولى، من السخف القول بأن سرّ الوهم عند دريدا يعنى ما يعنيه السرُّ عند ابن عربي. لا يرى دريدا أن الله أصل هوية الأشياء جميعها، بل يرى الأشياء متأصلةً فى الاختلافات بينها وفى اختلافها المرجئ بعضها عن بعض. كما لا يرى دريدا الذات بناءً ووهماً خادعاً على أساس أنها فى أصلها "الله"، بل يراها- بالأحرى- متجذرةً فى مجموعة من الاختلافات التى لا تصوغ قط أى تصور معقول عن الذاتية المتماسكة المستقرة. وبهذا المعنى المباشر، تقول أعمال دريدا أمراً مختلفاً تماماً عن ما تقوله أعمال ابن عربي متصوف القرن الثالث عشر. ومن جهة ثانية، فما يسميه شيتيك "الغموض الأنطولوجى الذى يغلف كل الأشياء" عند ابن عربي^(٧٠) لا يمكن صرف النظر عنه بكل بساطة بحجة أنه نزعة تصوفية تنسكية زهدية، تقلل من قيمة كل شىء فى هذا العالم الذى هو دور من أدوار تأجيل المعنى تأجيلاً دلاليًا هائلاً إلى "وقت تال". فما يشترك فيه دريدا وابن عربي أنهما يفهمان جيداً أن كل معنى متأصلٌ فى هاوية (وهو ما يسميه دريدا "المولود من هاوية التمثيل"^(٧١)). وقد أوضح إيزوتسو أكثر من أى مفكر آخر الأهمية الكبرى التى تحتلها الهاوية abyss فى فكر ابن عربي (والكلمة العربية الدالة عليها هى عماء)؛ فخصص فصلاً رئيساً من عمله لمناقشة العماء و"ظلمة الأعماق" عند الشيخ الأكبر، مع أن مصطلح العماء يتواتر فى أعمال القاشانى- مريد ابن عربي- أكثر من تواتره عند الشيخ الأكبر نفسه. ويقرأ إيزوتسو مصطلح "الهاوية"/العماء بوصفه مرادفاً لعدم القدرة على معرفة الحق مطلقاً؛ فهو موقع صامت بلا حركة سحيق الأعماق لا يُسبر غوره، يسمح للمعنى/التجلى بأن يوجد دون أن يوحى بوجود شىء آخر غيره. إنه "مطلق الغيب"، الذى يسلب كل ماهية، وهو "ظلمة أولية" لا توجد فيها "أدنى حركة"^(٧٢). هذه الظلمة العميقة مصدرُ كل الأسماء والهويات، وهى أيضاً مصدرُ الله. ويتشابه هذا التصور عن الهاوية مع المفارقة المألوفة فى الأفلاطونية المحدثة: غيرُ المسمى علةُ الأسماء، فما لا يتميز أو يتصف هو الذى يُمكنُ المتميزَ المتصفَ من الوجود. لقد نجح إيزوتسو لأسباب ناجمة عن منظوره الطاوى فى تسليط ضوء قوى- وإن يكن على مستوى

الموضوع- على أسلوب محدد من الظلمة والغيب والأعماق عند الشيخ الأكبر، وهى الأمور التى أهملها العديد من النقاد.

ما لا يُسْتَبْرُ غَوْره، والعماء والهاوية: هل يمكن حقاً مقارنة تصور الهاوية فى فكر ابن عربى بالهاوية عند دريدا؟ وهل يمكننا حقاً القول بأن هاوية الحق الذى يمتنع على التصور- والذى هو مصدر كل الظواهر الذى لا يقبل التمثيل- تقف بمحاذاة "السراب الدلالى" فى الاختلاف المرجئ الذى يجعل العلامة تختلف عن أخرى وتؤجلها، فَيُنْتِج الاختلافات باستمرار، بينما يبقى هو غير قابل مطلقاً للإدراك حساً أو عقلاً؟ واقع الحال أن دريدا يسدُّ الطريق على إمكان مثل هذه المقارنات، حين يحرص على تمييز مفهومه عن الهاوية عن المفهوم النمطى الموجود فى مذاهب التصوف السلبية النافية، يقول دريدا:

... الجانب الأول والطريقة الأولى: أبدية عميقة لا يُسبر غورها، أساسية، يمكن الوصول إليها فى السرد الأخرى الغائى، وفى تجربة ما، أو فى الكشف التاريخى (أو التارىخى). أما الجانب الثانى والطريقة الثانية فهى: هاوية غير زمنية، بلا قاع أو سطح، لا يمكن الوصول إليها مطلقاً (لا من جهة الحياة ولا من جهة الموت)، وهى علة كل الأشياء التى لا توجد. إنهما فى واقع الأمر هاويتان^(٧٣).

ولعل السياق الذى وردت فيه هذه الفقرة مهم: فهى تأتى فى مقال يسعى فيه دريدا إلى تمييز التفكيك عن نزعة مركزية اللوغوس المستخفية فى اللاهوت السلبى، حيث يقدم دريدا نسختين من الهاوية: هاوية المتصوفة التى تحدث عنها أمثال إيكهارت وسيلسيوس، ثم هاوية "بلا قاع أو سطح" يقول دريدا إنها تُعَدُّ حركة الاختلاف المرجئ. ويستمر دريدا فى أفكاره عن اللاهوت السلبى النافى فيصف الهاوية الأولى بأنها "عميقة" (لها قاع)، وهى فى نهاية الأمر "يمكن الوصول إليها فى السرد الأخرى الغائى". وبتعبير آخر: هى هاوية لا تهدد فى حقيقة أمرها أنساق العلامة الكامنة خلفها، وإنما تسهم على الأصح فيها فتؤسس

الأنطولوجيا التي تحفظها وتصونها، وتلك هاوية "مألوفة معتادة"، وتبدو هاوية "ذات عمق" (بكل إحياءات العمق الميتافيزيقية، فتصور العمق يمكن حمله عليها). وهي، على عكس الاختلاف المرجئ، تتموقع في بنية زمنية ترمز من خلالها إلى "أبدية" لاهوتية. أما هاوية دريدا فهي على النقيض تقريباً من ذلك كله؛ إنها هاوية غير زمنية مطلقاً، هي مرآة لا سطح فيها ولا قاع؛ طريقها مسدود فلا وصول إليها. ولا ريب أن هذه الهاوية التي تنفقر إلى الصفات اللاهوتية- مثل "أبدية" و"لا توصف"- هي هاوية أثر اللغة المزاح انزياحاً لا نهائياً: الظاهر كله بلا باطن. فإن كانت هذه الهاوية في حقيقة أمرها- كما يقول راسك- "سرٌّ كل تقاليد الخطاب التي لا تدل على شيء"، فلسوف تصطدم مقارنتنا بسرِّ السرِّ عند ابن عربي بتخالف أصيل بينهما.

هوامش الفصل الرابع

- (١) *The Unbearable Lightness of Being*, Milan Kundera, London: Faber and Faber, 1988, p. 122.
- (٢) J. L. Borges, *A Universal History of Infamy*, trans. Norman T. Giovanni, London: Penguin, 1981, p. 12.
- (٣) Alain Robbe-Grillet, *For A New Novel*, trans. R. Howard, Illinois: Northwestern University Press, 1965, p. 83.
- (٤) "The Deconstruction of God", in T. J. Altizer (ed.), *Deconstruction and Theology*, New York: Crossroad, 1982, p. 14.
- (٥) See M. Joy, "Conclusion: Divine Reservations", in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany, NY: State University of New York Press, 1993, p. 266.
- (٦) D. Loy, "The Deconstruction of Buddhism" in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, p. 228.
- (٧) Mark C. Taylor, "nO nOt nO" in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, p. 184.
- (٨) J. D. Caputo, *The Prayers and Tears of Jacques Derrida: Religion Without Religion*, Bloomington: Indiana University Press, 1997, p. 107.
- (٩) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, trans. Alan Bass, Brighton: Harvester Press, 1982, p. 27.
- (١٠) "How To Avoid Speaking: Denials", trans. K. Frieden, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, p. 95; *Dissemination*, trans. Barbara Jonson, London: Athlone Press, 1981, pp. 182, 350; "Of An Apocalyptic Tone Newly Adopted In Philosophy", translated by John P. Leavey, Jr, in *Derrida and Negative Theology*, p. 40; "Passions: An Oblique Offering", trans. David Wood, in Wood's *Derrida: A Critical Reader*. Oxford: Blackwell, 1992, p. 22.
- (١١) Wood, *Derrida: A Critical Reader*, p. 22.
- (١٢) Paul Tillich, *The Shaking of The Foundations*, London: SCM Press, 1968, p. 63.
- (١٣) These are Frank Kermode's terms, taken from his *The Genesis of Secrecy*, London: Harvard University Press, 1979.
- (١٤) Jacques Derrida, "Of an Apocalyptic Tone Newly Adopted in Philosophy", trans. John P. Leavey, Jr, in H. Coward and T. Foshay, *Derrida and Negative Theology*, p. 60.

(١٥) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, trans. G. C. Spivak, Baltimore: John Hopkins University Press, 1976, p. 70.

(١٦) *Ibid.*, p. 50.

(١٧) طبقاً لرودف جاشيه التفكيك هو "محاولة 'تعليل' التنوع غير المتجانس... والتفاوتات المنطقية... التي تطراً دوماً على الحجج الفلسفية حتى وإن كانت هذه الحجج تنتمى بنجاح"، انظر:

"Infrastructures and Systematicity", in J. Sallis (ed.), *Deconstruction and Philosophy*, Chicago: University of Chicago Press, 1987, p. 3.

(١٨) Wood, *Derrida: A Critical Reader*, p. 8.

(١٩) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, trans. Alan Bass, London: Routledge and Kegan, 1978, pp. 296, 298; *Of Grammatology*, p. 163; *The Gift of Death*, trans. David Wills, Chicago: University of Chicago Press, 1995, p. 4.

(٢٠) Ibn 'Arabi, *Fusus al-Hikem*, A. E. Affifi (ed.), Beirut: Dar al-kutub al-'Arabi, 1946. Trans. Ralph Austin, as *The Bezels of Wisdom*, New Jersey: Paulist Press, 1980, p. 106.

(٢١) *The Bezels of Wisdom*, p. 166, *Fusus al-Hikem*, p. 133.

(٢٢) *The Bezels of Wisdom*, p. 116

(٢٣) See Rabia Terri Harris' translation of Ibn 'Arabi's *al-Istilah al-Sufiyyah* in *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* III. 1984, p. 52.

(٢٤) Translated by Rabia Terri Harris in the *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* VIII, 1990, p. 19.

(٢٥) W. G. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany: SUNY Press, 1989, p. 338/*Futuhāt* III. 465.3, 25.

(٢٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 381/*Futuhāt* II.661.10.

(٢٧) "Denials" in H. Coward and T. Foshay, *Derrida and Negative Theology*, p. 89.

(٢٨) فى مفتتح عمل الغزالي *كيمياء السعادة*، نجد العبارة الآتية: "اعلم أن الطريق إلى المعرفة الحقة بالله هو معرفة النفس". مستشهد به فى:

(W. G. Chittick, *The Heart of Islamic Philosophy: The Quest for Self-Knowledge in the Teachings of Afdal al-Din Kashani*, New York: Oxford University Press, 2001, p.112).

وفى الرسالة الأولى من رسائل إخوان الصفا يوجد تعبير مماثل عن أن معرفة النفس تعنى العرفان الإلهي: "أعرفكم بنفسه أعرّفكم برّبّه". مستشهد به فى:

- (M. Fakhry, *A History of Islamic Philosophy*, London: Longman, 1983, p. 171).
- (٢٩) *The Bezels of Wisdom*, p. 133.
- (٣٠) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 171/*Futuhāt* III.7.,28.
- (٣١) From *the al-Istilah al-Sufiyyah* in *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* III, 1984, p. 52.
- (٣٢) See M. Tahrali's "The Polarity of Expression in the *Fusus al-Hikem*", in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, pp. 351-360.
- (٣٣) A. E. Affifi, *The Mystical Philosophy of Ibnul Arabi*, Cambridge: Cambridge University Press, 1939, pp. 140-141.
- (٣٤) *The Bezels of Wisdom*, p. 95, *Fusus al-Hikem*, p. 83.
- (٣٥) *The Bezels of Wisdom*, p. 55.
- (٣٦) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 376.
- (٣٧) Jacques Derrida, *The Gift of Death*, trans. David Wills, Chicago: University of Chicago Press, 1996, p. 4.
- (٣٨) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 152/*Futuhāt* II.101.29.
- (٣٩) See W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 352/*Futuhāt* III.384.18.
- (٤٠) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 353/*Futuhāt* III. 384.18.
- (٤١) S. Kierkegaard, *Fear and Trembling*, trans. Alistair Hannay, London: Penuin, 1990, p. 55.
- (٤٢) *Ibid.*, p. 85.
- (٤٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 328/*Futuhāt* III. 298.17.
- (٤٤) See D. Gril, "Adab and Revelation", in S. Hirtenstein and M. Tiernan(eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, p. 230.
- (٤٥) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 376/*Futuhāt* II.133.19.
- (٤٦) Cited in C.Addas, *Ibn 'Arabi ou la Quête du souffre rouge*, trans. M. Tahrali. Paris: Gallimard, 1989, p. 182.
- (٤٧) The extracts are taken from W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 67/*Futuhāt* II.518.12; W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 48/*Futuhāt* III. 225.32; W.G. Chittick, *Sufi Path*, p. 137/*Futuhāt* I. 119.3;W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 291/*Futuhāt* III.389.21; w. g. Chittick, *Sufi Path*, p. 302/*Futuhāt* II.563.23.
- (٤٨) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. 106/*Futuhāt* II. 653.25.
- (٤٩) *Ibid.*, p. 56/*Futuhāt* II.226.2.
- (٥٠) *Ibid.*, p. 56/*Futuhāt* I.276.19.
- (٥١) *Ibid.*, p. 257/*Futuhāt* II.233.34..
- (٥٢) *Ibid.*, p. 374/*Futuhāt* III.34.28.

- (٥٣) S. Kierkegaard, *Fear and Trembling*, p. 6.
- (٥٤) Ibid., p. 70.
- (٥٥) Ibid., p. 68.
- (٥٦) Ibid., p. 70.
- (٥٧) Heidegger, "Letter on Humanism", in D. Krell (ed.), *Basic Writings: Martin Heidegger*, London: Routledge, 1978, p. 291.
- (٥٨) "Passions", in Wood, *Derrida: A Critical Reader*, p. 14.
- (٥٩) Jacques Derrida, *Positions*, trans. Alan Bass, London: Athlone Press pp. 89 – 90.
- (٦٠) *ibid.*, p. 91.
- (٦١) See M. H. Abrams, "Constructing and Deconstructing", in M. Eaves and M. Fisher (eds), *Romanticism and Contemporary Criticism*, London: Cornell University Press, 1986.
- (٦٢) S. H. Nasr, *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*, Cambridge: Belknap Press, 1964, p. 31.
- (٦٣) T. Izutsu, *A Comparative Study of the Key Philosophical Concepts in Taoism and Sufism*, Tokyo, 1967, p. 1.
- (٦٤) T. Izutsu, *Taoism and Sufism*, p. 2.
- (٦٥) *Positions*, pp. 23, 46; *Of Grammatology*, pp. 157, 140; *Writing and Difference*, p. 151.
- (٦٦) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 73.
- (٦٧) T. Izutsu, *Taoism and Sufism*, p. I.
- (٦٨) From *Emile*, p. 76, cited in Derrida, *Of Grammatology*, p. 316.
- (٦٩) Nietzsche, *Twilight of the Idols*, trans. R. G. Hollingdale, London: Penguin, 1990, p. 46.
- (٧٠) W. G. Chittick, *The Self-disclosure of God: Principles of Ibn al-'Arabi's Cosmology*, Albany: SUNY Press, 1999, p. xxvi.
- (٧١) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 163.
- (٧٢) T. Izutsu, *Taoism and Sufism*, p. 18.
- (٧٣) "Post-Scriptum", in H. Coward and T. Foshay, *Derrida and Negative Theology*, p. 315.

الخاتمة

تصفية الذات في ما بعد البنيوية

ثلاث لحظات من الأفلاطونية المحدثة في المعتمد الدریدی

من المعتاد أن يقوم المؤلف في خاتمة كتابه بتحيك عمله وإتمامه: الموضوعات التي أثارها، وتلخيص فرضياته والأفكار التجريبية التي غامر بتقديمها. وفي درسنا المقارن بين دريدا وابن عربي، توجد الكثير من الفرضيات التي يمكن إجمالها على النحو الآتي: التماثل بينهما في عدم الثقة في قدرة الفكر العقلاني والميتافيزيقا على تناول الله والمعنى تناولاً غير إشكالي؛ ثم إلحاحهما على عدم القدرة على فهم الحق والكتابة البتة، على الرغم من المزاعم الفلسفية الميتافيزيقية التي تدعى القدرة على ذلك؛ بالإضافة إلى اهتمامهما المشترك بـ"البلبلة" وتفضيلها بما هي أداة أصيلة لـ"الانفتاح" على الآخر/الحق الكامن في ما وراء تضييقاتنا الميتافيزيقية وعوائقها؛ ثم التوازي الخادع بينهما في الإيمان بإمكانات النص اللامتناهية وأن هذه الإمكانيات تتعدل بدرجات متنوعة وفق ظروف القارئ؛ وتصورهما المتماثل عن أعماق السرّ المتخفية في أصل كل الهويات؛ وتطابقهما في تصور ما تتطوى عليه هذه الهويات من "وهم خادع"؛ ثم أخيراً عدم إيمانهما بأن الذات تتطوى على جوهر مستقل بذاته.

وبدلاً من جمع هذه التشابهات التجريبية وترتيبها في "صيغة" تُقربُ بعضها من بعض حتى تتلاقى عند نقطة نهائية، فسوف نختم بملاحظة عن توسيعها على نحو يباعد بينها ولا يُقربها من بعضها البعض؛ إذ باعتبار لحظات بعينها في أعمال

ثلاثة مؤلفين في المعتمد الدريدي- ألا وهم: بلانشو، بنيامين، فوكو- سوف نرى أن التشابه بين دريدا وابن عربي المتصوف ذى الطابع الأفلاطوني المحدث ليست حالة خاصة به، أو وفقًا على دريدا وافتتانه المعروف عنه بعلم اللاهوت السلبي. فثمة استعارات أفلاطونية محدثة- قد نزعَت عنها دلالتها اللاهوتية- تسرى في نصوص من قبيل "ما المؤلف" What is an Auther؟، و"مهمة المترجم" The Task of the Translator و"العزلة الضرورية" The Essential Solitude. إذ حين يرفض هؤلاء المؤلفون التفاسير العقلانية التحليلية، وهم يتحرّون من جديد مفاهيم من قبيل الذات والنص، تظهر نبرة ما في أعمالهم تتطوى على شبه متحفظ بما هو "أفلاطوني محدث".

وينطوى القول بذلك على مخاطر واضحة. لعل أولها أنه ما من أحد قد أشار إلى أن مؤلفين من أمثال فوكو وبلانشو "أفلاطونيون محدثون"؛ وتلك حقيقة لا مرأى فيها. إن معجم الأفلاطونية المحدثه بدءًا من تساعات *Enneads* أفلوطين ثم تنويعاته المتطورة عند القديس أوغسطين وديونيسيوس الأريوباغي المنتحل وانتقاله في العصر الوسيط إلى العلامة إيكهارت حتى عودته إلى الظهور من جديد في عصر النهضة الإيطالي (عند كوزانوس Cusano وفيتشينو Ficino)- هذا المعجم يشكل معتمدًا يعتريه التفاوت، بتمثلاته الإسلامية (إخوان الصفا، و"لاهوت أرسطو") واليهودية (ابن ميمون)، وهي تمثلات أصيلة لا يمكن اختزالها إلى وصف بسيط جاهز. وبرغم ذلك، فالاستعارة الرئيسة في كل الكتابات الأفلاطونية المحدثه تنطوى على تصور عن الواحدية الخالصة التي تفوق الوصف، والتي تتولى دومًا حشد التكررات المتنوعة الهائلة على وجهها وسوقها إلى الواحد الإلهي الأول الذي يتعذر وصفه... ولسوف يلعب هذا النموذج الأنطولاوتى المتعالى دورَ الفاعل في النقود ما بعد البنيوية لا دور الشبيه.

أما الخطر الثاني من هذه المخاطر فيتمثل في أن محاولة تعيين نغمة أفلاطونية محدثة عند هؤلاء المؤلفين سوف تُفهم فهمًا مغلوطاً على أنها ترديد لتعليقات هابرماس العنيفة على هيدجر حين نعت فلسفته بأنها "تصوف وثنى جديد"^(١). وقد رأينا أن هابرماس، وهو يستبعد التفكيك واصفاً إياه بأنه "مسرح تاريخي يتحول على خشبته التصوف إلى تنوير" (المرجع السابق)، يصدر عن رغبة في صون تصور الأنوار **Aufklärung** الكانطية من "الرغبات الفوضوية" عند دريدا وأمثاله. وعليه، يستخدم هابرماس كلمة "متصوف" استخدماً ازدرائياً مخافة الوقوع في الفوضى التي هي - على وجه التحديد- هاوية اللا أصل التي يرى هابرماس أنها تتناقض - في النهاية- الفكرَ التحرري التقدمي (ولنتذكر أن تصوف دريدا "يخلع عن السياسة والتاريخ المعاصر رتبة الوجود العيني والصدارة"). فمتى استخدم هابرماس كلمة "متصوف" عبّر عن شعوره بمخاطرة تسطيح الواقع ووصفه باللاعقلانية وعدم الأصالة.

ولا نترسّم خطى هذا البرنامج الدفاعي حين نستكشف اللحظات "الصوفية" عند بلانشو وبنيامين وفوكو، وإن يكن تحقيقنا أقرب إلى محاولة باتاي Bataille الكشف عن إمكانات صوفية في تفكيك الذات عند نيتشه، مستخدماً أنجيلا دي فوليجنو Angela di Foligno وميشتيلد فون ماجدبرج Mechtild von Magdeburg ("وأنت لا تفهم كلمة من عمل نيتشه دون ابتعاث هذه التصفية المتألفة في صورة الكلية")^(٢). إن كُنْه هذه "التصفية" على وجه التحديد- و"الكلية" التي تتحلُّ إليها الذات انحلالاً مبهرًا- يجعلنا نبدأ أولاً ببلانشو ومفهومه عن "نور" الكتابة الذي يسبب العمى، والذي هو أيضاً "هاوية ونور مرعب مثير، في آن معاً، ينغمر فيه المرء"^(٣). وبيدو بلانشو إحدى شخصيات عديدة في المعتمد الدریدی، ممن يرون في الكتابة إلغاء الذات أكثر من كونها تعبيراً عنها، فالكتابة فعل تهديمي أكثر من كونها فعلاً إبداعياً.

فعل الكتابة و"الافتتاح" عند بلانشو

لقد تحدث تيموتى كلارك Timothy Clark عن رؤية بلانشو قائلاً إن الكتابة عنده "ليست فى جوهرها مهنة أو حتى 'نشاطاً ثقافياً'... [بل] رسالة تطاردها قوة دينية"^(٤). فالقارئ النبيه حين يقرأ أعمال بلانشو النثرية- وهى أعمال عسيرة مرهفة- يكتشف فيها (كما فعل العديد من النقاد)^(٥) إلحاحاً رهبانياً- تقريباً- على الكيفية التى تؤدى بها الكتابة إلى محو الذات تدريجياً ورفض كل شىء سوى النص. وتكثر فى مقال "العزلة الضرورية"- على الأخص- أصداء الأفلاطونية المحدثة: تصور أن النفس تنتمى إلى قوة لا توصف، تكمن وراء الوجود الظاهر، تخلق باستمرار آثاراً، بينما تظل هى نفسها مستخفية وراءها على نحو شديد الغرابة؛ تصور أن ثمة عودة إلى فضاء أو مسافة تسلب المرء عن نفسه، مسافة تتموقع خارج الزمن؛ تصور أن العالم ألعوبة يمكن التخلي عنها وهجرها، وعزُو أفعال الفرد إلى "شىء ما" سوى الذات... وتتضافر كل هذه الاستعارات معاً بطرق شديدة العلمانية، الأمر الذى يُمكنُ بلانشو من استكشاف الطريقة التى تجعل الكاتب يتلاشى فى عمله من خلال فعل كتابة العمل.

ولعل أولى الاستعارات الأفلاطونية المحدثة التى نصادفها فى مقال "العزلة الضرورية" قوة غائبة تحضر حضوراً يكتنفه الغموض إلى حد ما، ويسمىها بلانشو "قوة محايدة لا شكل لها ولا صورة، عارية عن أى مصير، تكمن من وراء كل شىء مكتوب"^(٦). هذه القوة السارية فى كل كتابة، إذ تغيب عنها الصفات تماماً، تتميز بطابع أفلاطونى محدث، ويكفى حضورها الكلى لتبرير كلمة "الدوام" أو "المطول للغاية" incessant. وفى حقيقة الأمر، تكمن بذور تصفية المؤلف عند بلانشو فى إرجاع فعل الكتابة لا إلى الكاتب نفسه وإنما إلى "شىء" ينتمى الكاتب إليه انتماءً أصلياً لا فكاك منه. يقول بلانشو إن "الكتابة تجعل المرء صدى لما لا يمكن أن يُوقف الكلام" (المرجع السابق). وحين تكون الكتابة صدى حركة دائبة

غائبة لا يمنع المرء نفسه من التفكير في *تساعات* أفلوطين حيث يقول: "بما أن الكلام صدى الفكر في النفس، فالفكر في النفس صدى يأتي من مكان آخر غيرها..."^(٧). وطبعاً، في مقابل عالم الفيض المتدرج تدرجاً دقيقاً عند أفلوطين، لا يوجد تصور عن التراتب عند بلانشو، ولا هو يُرتَّبُ الظواهر ترتيباً هرمياً. وبرغم ذلك، فالمؤلف عند بلانشو "ينتمي في العمل إلى ما يعلو على العمل دائماً"^(٨)، وتلك حال النفس في الأفلاطونية المحدثة إذ تنتمي إلى "مصدرها" وتعبّر expresses عنه. ولا بد من تحرّى الدقة في استخدام كلمة "تعبير" expression، فالمؤلف إن كان يتخارج ex-presses منه الكلام، فليس في ذلك تصور كلاسيكي عن الشخصية ولا صورة من صور "الكلية الشمولية"، وإنما الحاصل على الأدق أن المؤلف "بطريقة أو بأخرى، لم يعد نفسه، فالمؤلف ليس أحداً على وجه التحديد"^(٩). لم تعد استعارة المؤلف ينبوع إبداعية يتدفق، وإنما صار المؤلف - على الأصح - ناطقاً بلسان غريب، إنه وسيط "قوة" مستخفية لا شكل لها أو صورة، وفي ذلك إيضاح هيدجري حيث يقدر غير المؤلف على تجلية نفسه.

وتسمح استعارة المؤلف بأن يكتسب نشاط الكتابة نفسه عددًا من الوظائف ذات الطابع الأفلاطوني المحدث على الأخص. ألا وإن الوظيفة الأولى هي الانعزال: تعنى الكتابة اعتزال العالم وهجره، فيكف عن أن يكون مصدر أية محاكاة ممكنة. "الكتابة تعنى... انسحاب اللغة من العالم"^(١٠). فالمؤلف يأبى الحطّ من شأن اللغة بتحديددها في لعب دور التمثيل، وإنما يسمح للغة بأن تتكلم بملاء طاقتها، يسمح لها أن "تكون وتوجد" فلا يلزمها بأن "تعنى" قسرًا. إن إلزام اللغة بالعمل الصالح - إن جاز لنا القول - أمر لم يرض به الشاعر فاليري: "لقد وجد أنه من الحسن الحديث عن كل شيء، والكتابة عن كل شيء؛ وبذلك ألّهته كلية العالم المبعثرة عن كلية العمل الفريدة في دقتها، فأنس من نفسه التحول عنها"^(١١). وهنا، يتبنى بلانشو موقفًا أخلاقيًا بيوريتانيًا تقريبًا نحو الفكر التمثيلي، حيث أوقع العالم

اللغة في شراكه فأغراها بتمثيله والكتابة عنه؛ الأمر الذي "حوّلها" عن الشيء الضروري الوحيد، ألا وهو العمل نفسه. لقد كان فاليري مضطراً تقريباً إلى تبني موقف مشوب نحو اللغة، فانتابه هاجس انغماس الكتابة واستغراقها في شئون العالم؛ إذ بدلاً من "سحب اللغة من العالم" والاحتفاظ بتماميتها وخلصها ألح فاليري على تشظيتها ومزجها "بكلية العالم المبعثرة". إن هذا التصور الدقيق ذا الطابع الأفلاطوني المحدث عن التشظية صار - كما سنرى - الاستعارة المركزية في عمل بنيامين عن الترجمة.

ولعل المفارقة كامنة في أن ما يعنى التحرر يدل أيضاً على الاستسلام؛ فكما أن النفس في الأفلاطونية المحدثّة لا بد أن تتخلى عن فرديتها إن أرادت الرجوع إلى الواحد الأول، لا بد أيضاً أن يتنازل المؤلف عن فكرة استقلاله إن أراد الانتماء حقاً إلى الكتابة:

إن كانت الكتابة تعنى الاستسلام إلى الدوام أو المطول للغاية فالكاتب يرضى بتكبد عناء أن تُفقد ماهية الكتابة وجوهرها قدرته على قول "أنا"، فيفقد من ثمّ القدرة على جعل الآخرين يقولون "أنا". ولذا، فلا سبيل عنده لإعطاء الحياة إلى شخصيات تصون حريتها قدرته الإبداعية^(١٢).

وإنّ مفارقة غريبة لتفرض نفسها هنا: على الكاتب أن يتخلى عن القدرة على الإبداع إن أراد حقاً أن يكتب. وكما أن النفس عند إكهارت لا بد أن تبقى "فارغة عارية" كي تولد روحياً، فعلى المؤلف عند بلانشو أن يفقد "القدرة على قول 'أنا'" إن أراد تجلية "صدى" الدوام المطول للغاية.

فما يحدث أساساً عند بلانشو حين يبدأ المؤلف في الكتابة أن يرى على سطح الورقة - من طرق عديدة - فقدان ذاته وانطفاء الاختلاف الناشئين عن لحظة

"انفتاح" ذات طابع أفلاطوني محدث؛ فانزلاق حياة المؤلف إلى "لوعة اللامتناهي" يُرجع صدى اللحظة التي تعود فيها النفس الهائمة- في نهاية الأمر- من المتعدد والمتناهي إلى خواء الواحد الأول الذي لا صورة له ولا شكل؛ أو كما يقول أفلوطين "الواحد وحده"، وهو قول يوحى بنغمة تهكمية من عنوان مقال بلانشو. ففي السطور الختامية من المقال نقرأ:

الكتابة... هي البقاء على اتصال عبر اللغة وفي اللغة بمحيط المطلق حيث يغدو الشيء صورة مرة أخرى، وحيث تشير الصورة إلى ما لا هيئة له أو شكل وليس إلى هيئة مخصوصة. إذ بدلاً من أن تكون الصورة شكلاً مستمدًا من الغياب يحضر هذا الغياب في الصورة حضورًا لا هيئة له أو شكل. إن الصورة الأدبية انفتاح مبهم فارغ أو خاوي على ما يوجد حين لا يوجد العالم، حين لم يكن العالم موجودًا بعد^(١٣).

ولعل سلسلة الصفات النافية السلبية المتتابعة في هذه الفقرة- "ما لا هيئة له"، "الغياب"، "فارغ"، "مبهم"- تؤكد رنين اللحظة الغامضة المرعبة حين "يتصل" المؤلف- في النهاية- بذلك الذي يتجاوز عمله. وتلك هي اللحظة التي يلمح فيها- ببقائه منفتحًا على اللغة- اللامسافة القائمة عند أصل الاختلافات كلها، حيث لا تفضى الدوال إلى مدلولات أخرى، وإنما "تومي" بكل بساطة إلى الخواء: الفراغ الكامن خلف كل دلالة. و"المحيط المطلق" عند بلانشو هو هذه العتمة التي ينتهي إليها العالم حيث تفقد الصور موضوعاتها والدوال مدلولاتها و"الأشياء" معانيها، والمؤلفون ذواتهم؛ لأن هذه العتمة لا يحدث فيها المعنى. وبصرف النظر عن ما إذا كان الموضوع كافكا أو هولدرلين، فهذا الافتتان بأصل اللغة العزيز على الوصف أو الكلام- والخنوع الذي يصيب حتمًا من يستشرفون هذا الأصل- يُعدُّ المظهر الأكثر "تصوفًا" عند كاتب لا يتبنى أفكارًا متعالية.

الترجمة عند بنيامين بوصفها عودة إلى الواحد الأول

تتخلل الفراغات والقوى وأشكال اللاتهامى عمل بنيامين، حاله فى ذلك من حال بلانشو؛ غير أن بنيامين يفتتن - على خلاف بلانشو - فتنة واضحة - يمكن التدليل عليها - بتاريخ النزعة الباطنية ذات الطابع الأفلاطونى المحدث، ذلك التاريخ الذى يتضمن قراءات أوريجينس المدققة وشروح بوهمه وفيتشينو لعمل أفلوطين *التساعات*. فى مقاله عن الترجمة "مهمة المترجم" (١٩٢٣)، لا يعالج بنيامين موضوعه إلا بوصفه قوة جبّارة ذات طابع أفلاطونى محدث. إن عالم المتعدد الذى يتصف بالتشظى والزوال والتهدم، والذى لا يعكس بومضاته المتقطعة سوى ألق خافت بعيد للواحد الأول الذى لا يوصف - هذا العالم ينبئنا عن عالم المترجم عند بنيامين، وهو عالم يهتم فيه المترجم بـ "موضوع رئيس كبير؛ ألا وهو دمج الألسنة العديدة فى لغة واحدة حقيقية هى السارية حقاً"^(١). فالعودة إلى الواحد الأول من خلال المتعدد هى مهمة المترجم عند بنيامين. وبطبيعة الحال، لن تثير علاقة بنيامين بالأفلاطونية المحدثه دهشة حقيقية؛ فالعناصر الرئيسة فى الأفلاطونية المحدثه على تنوعها - الواحدية والأصول المنسحبة دوماً التى يتعذر وصفها - تنتشر فى أعماله المختلفة على نحو ما يأتى:

- الأصل دوامة فى مجرى الصيرورة التى تجرف فى طريقها المواد الرئيسة المتضمنة فى عملية التكوين. فما هو أصلى لا ينكشف فى وجود الوقائع الظاهرة العارية... (أصل الدراما الألمانية).
- ... لا تظهر مواد الذاكرة فرادى، على هيئة صور، بل إنها تتبئنا عن وحدة كلية هلامية لا شكل أو صورة لها... على نحو ما ينبئ نقل الشبكة صياداً بما اصطاد من سمك (صورة بروست).
- التواريخ، أسماء الأماكن، حجم الكتب، مالكوها السابقون، أغلفتها، وما أشبه: كل هذه التفاصيل تنبئ [جامع الكتب] بشيء ما؛ وهى تفعل ذلك ليس بوصفها وقائع جافة معزولة، وإنما بوصفها وحدة

كلية منسجمة. ومن كيفية هذا الانسجام ووقعه عليه، يتمكن [جامع الكتب] من معرفة إذا كان هذا الكتاب له أم لا (تفريغ مكتبتى) (١٥).

إن معجم الأفلاطونية المحدثة- منذ أفلوطين حتى فيثثينو- معجم واسع، وهو يبلغ من الاتساع حالاً يكفى لتفنيده أية محاولة لتحديدته أو تعريفه. غير أن مخزونه الشائع من العناصر المتكررة- التعددية والواحدية، الفيض الإلهي، التنظي، المصدر، العودة- يتخلل كُله أعمال بنيامين بل ويمثل مرتكزها، فيعلن هذا المخزون عن نفسه حتى في التطبيقات التي تغالى في عدم تبنيها أفكاراً متعالية. وعلى سبيل المثال، يرى المرء في مجلات موسكو الطريقة التي يحل بها بنيامين الواحدة الشمولية في الدولة السوفيتية:

إن بقاء هذا الوجود العيني في حالة خمول أمر مستحيل، لأنه في كل تفاصيله الصغرى جميل ويمكن فهمه من خلال العمل فقط. اندماج الأفكار الشخصية بمجال قوة موجودة مسبقاً؛ ... والاتصال المنظم المضمون بالرفاق؛ لكل هذه العوامل تبدو الحياة هنا مقيدة بإحكام إلى درجة أن المرء يتعفف... ويتردى فكرياً كما لو كان مرّاً بسنوات من الحبس الانفرادي... ("موسكو").

كما أنه عند استكشاف علاقة الأطفال وألعابهم بالمجتمع الأكبر الذي ينتمون إليه يستحضر بنيامين شيئاً ما "آخر" وأكبر من المرء نفسه، يظهر ويكشف عن نفسه مرة أخرى:

وفي النهاية، ليس الطفل منعزلاً كروبنسون كروزو، فالأطفال لا يكونون مجتمعاً مقطوع الصلة عن ما يحيط به، فهم ينتمون إلى الدولة والطبقة التي جاءوا منها؛ مما يعنى أن ألعابهم لا تحمّل على الشهادة على أى وجود منفصل مستقل بذاته، وإنما هي على الأصح حوار صامت دال بينهم وبين دولتهم (تاريخ الألعاب الثقافى) (١٦).

يرى بنيامين- حاله في ذلك من حال فيلسوف كافكا المؤمن بأن معرفة الأشياء الأكبر في الحياة كامنة في دراسة الأشياء الأصغر- أن القطاعات الصغرى في المجتمع- ألعابه وأكلاته الجانبية وفنونه وآدابه الدنيا وزوايا شوارعه- هي المرشد إلى معرفة الكل. إن إدراك الوحدة الخفية بين الشظايا من وراء عالم الأشياء وخلفه تقريباً، على هذا النحو، له ما يناظره بشكل واضح في الأفلاطونية المحدثة. وعلى خلاف بلانشو، يضيف بنيامين هنا طابعاً سياسياً على ما هو أفلاطوني محدث؛ فيترجم معجم أفلوطين وبروكلاس Proclus^(*) إلى تعابير سوسيو سياسية. ومن ثم، تحلُّ الدولة- في تحليلات بنيامين العديدة للثقافة ونظرية الثقافة- محلَّ "الواحد الأول" بوصفها مصدر كل الآثار، فتغدو كلمات مثل مجتمع وثقافة بديلاً عن فيوضات الواحد الأول الذي لا يوصف عند أفلوطين.

ولا يعلن اهتمام بنيامين السياسي بفقدان الذاتية عن نفسه صراحةً في مقال "مهمة المترجم"؛ فهو المقال الأكثر باطنية من مقالات بنيامين العديدة. وفي حقيقة الأمر، يقدم بنيامين عشرة استعارات يعبرُ بها عن العلاقة بين الترجمة والأصل- الترجمة بوصفها زهرة الأصل، أو شبحاً وفكرة طارئة بعد الأصل، الترجمة بوصفها عملية إيناع أو نافذة مفتوحة على الأصل أو شظية من شظايا زهرية مُهشَّمة- غير أنه يهمنها منها بشكل خاص استعارتان ذواتا أصول أفلاطونية محدثة. الاستعارة الأولى هي تشبيه الصدى الذي استخدمه بنيامين في وصف الترجمة، وهو التشبيه نفسه الذي استخدمه بلانشو ليصف به عمل المؤلف. ويظهر هذا التشبيه في أواسط مقاله تقريباً، في فقرة يحرص فيها بنيامين على التمييز بين الشاعر والمترجم:

(*) بروكلاس: فيلسوف يوناني، يُعدُّ آخر فلاسفة الأفلاطونية المحدثة الكبار. وقد كان ذا أثر ملحوظ في انتشار هذه الفلسفة في العالمين البيزنطي والإسلامي- المترجم.

على خلاف العمل الأدبي، لا تجد الترجمة نفسها في وسط غابة اللغة بل على حافتها الخارجية المشجرة، في مواجهتها، تمرُّ بها دون أن تلجَّها؛ فتستهدف الترجمة بلغتها الخاصة المكان الوحيد الذي يقدر عنده الصدى على ترجيع صدى العمل في لغته الأجنبية^(١٧).

وقبل التعليق على هذه الاستعارة لعله من المفيد اقتباس فقرة من *تساعات* أفلوطين اقتباساً كاملاً هذه المرة، وهي فقرة على صلة وثيقة بما يقوله بنيامين:

ولأن الكلام صدى الفكر في النفس، فكذلك الفكر في النفس صدى يأتي من مكان آخر غيرها؛ أي بما أن الفكر الملفوظ صورة عن فكر النفس، فكذلك فكر النفس صورة عن فكر يعلوها وهو المفسر لهذا المجال الأعلى^(١٨).

تتير عبارات أفلوطين عددًا من النقاط في فقرة بنيامين: أولاً، المترجم كيان يتموقع خارج شيء يحاول استنساخه دون أمل. وهذا التخارج - إن جاز التعبير - سرٌّ؛ سرٌّ هوية الأصل، سرٌّ يظهر أنه يملك موقعاً محدداً في هذا التشبيه على الأقل. إذ إن خطوة إلى الأمام أو إلى الخلف، أو استخدام فعل بشكل خاطئ أو صفة زائدة يؤدي إلى ضياع الصدى. وثانياً، تذكرنا مقارنة فقرة بنيامين بـ *التساعات* بأن تشبيهه بنيامين يماثل القاعدة الأفلاطونية المحدثة المألوفة الخاصة بمماثلة الواحد الأول ويختلف عنها في آن معاً؛ فـ الواحد الأول لا يتقبل الاختلافات، وحين تعود إليه النفس التائهة عليها أن تصير مماثلة له. غير أنه إذا تتبعنا تشبيه بنيامين بعناية فسنتكشف أن ما يسميه بنيامين "صدى الأصل" هو - في حقيقة أمره - صوت المترجم. فالمترجم لا الأصل هو مصدر الصدى. وعلى المترجم أن يغيّر موقعه، طبعاً قبل أن يظن إلى اكتمال رجوع صدى صوته؛ إذ إن مساعيه لا تتجه إلى محاكاة شيء خارجي، وإنما تتجه بالأحرى إلى استعمال هذا الشيء ليعيد إنتاج ما يكونه المترجم حقاً. فالأصل، بدلاً من أن يمتلك أيَّ محتوى يضطر المترجم إلى

"تقليده"، يغدو بكل بساطة محرّكاً لا يوصف يُعيد الصوت إلى صاحبه، فهو قوة خفية يبدو أنها تخلق وتستنسخ دون أن تشارك في عملية الخلق.

ولعل استعارة الترجمة بما هي الثوب الذى يُغطّى محتوى الأصل العارى تدعم، مرة أخرى، الهوةَ الناقية السلبية التى لا يمكن عبورها بين **النص الأصيل** *Urtext* و**الترجمة** *Übersetzung* التى يتحدث عنها بنيامين فى عديد من اللحظات. وتأتى هذه الاستعارة عقب تأمله "العنصر المقوم" فى الأصل، ذلك العنصر "الذى لا يُعبر نفسه للترجمة":

... العلاقة بين المحتوى واللغة فى العمل الأصيل مختلفة تماماً عنها فى العمل المترجم. إذ بينما يتحد المحتوى واللغة فى الأصل اتحاد الثمرة وقشرتها، تغطى لغة الترجمة محتواها كما هو حال ثوب ملكى ذى طيات فضاضة. لأنها [لغة الترجمة] تدل على لغة أسمى من لغتها فتظل غير ملائمة لمحتواها، تظل مستبدة وأجنبية⁽¹⁹⁾.

ويتمكن المرء، هنا، من الإمساك بنوع من المرح التفكيكى ينشر نفسه على تصور ما عن البراءة فى مقال بنيامين؛ وحدة الأصل - بريئة فردوسية - تحل لغتها السحرية محل الشكل والمحتوى معاً، وتُتلفُ عالم المترجم المتعدد، فتفصل الدوال انفصلاً آتماً عن مدلولاتها، ولا يتزامن الكلام مع معناه⁽²⁰⁾. وإذا كان بنيامين يرى الأصل فردوساً مفقوداً فليس من الواضح إن كانت مهمة المترجم استعادة هذه البراءة، أم أن ذكرى هذا فقدان كافية بحد ذاتها كى يمارس المترجم عمله على نحو مستقل عن الأصل، أم أن الحلم بالأصل لا يفضى - فى حقيقة أمره - إلا إلى إبداع فراديس جديدة، تنفصل انفصلاً مبهماً عن سلفها القديم وترتبط به على نحو ما فى آن معاً. إن الاستعارة التى يستخدمها بنيامين فى هذا الشاهد لا تثير التناول، وهى استعارة يجدها المرء عند غيره (عند إيكهارت على سبيل المثال: "تستوعب الإرادة الله تحت ثوب الخيرية. أما المفكر فيفهم الله عارياً؛ لأن الله يتجرد عن

الخيرية والوجود"^(٢١)، غير أن مثلها الأكثر تواؤماً مع بنيامين موجود عند ابن عربي نفسه:

والأنبياء لهم لسان الظاهر به يتكلمون لعموم الخطاب، واعتمادهم على فهم العالم السامع. فلا يعتبر الرسل إلا العامةً لعلمهم بمرتبة أهل الفهم، كما نبّه عليه السلام على هذه المرتبة في العطايا فقال "إنسى لأعطى الرجل وغيره أحب إليّ منه مخافة أن يكبه الله في النار". فاعتبر الضعيف العقل والنظر الذي غلب عليه الطمع والطبع. فكذا ماجأوا به من العلوم جاءوا به وعليه خلعة أدنى الفهوم ليقف من لا غوص له عند الخلعة، فيقول ما أحسن هذه الخلعة! ويراها غاية الدرجة.

ويقول صاحب الفهم الدقيق الغائص على درر الحكم - بما استوجب هذا- "هذه الخلعة من الملك". فينظر في قدر الخلعة وصنفها من الثياب، فيعلم منها قدر من خلعت عليه، فيعثر على علم لم يحصل لغيره ممن لا علم له بمثل هذا^(٢٢).

ومع أن ابن عربي لا يتحدث صراحة - هنا- عن الترجمات ولا المعرفة الإلهية، وإنما عن كيفية التعامل مع أحاديث الأنبياء الشريفة، فالمسألة التي يثيرها عن التفسير شبيهة بمسألة الترجمة. إذ طبقاً لمفسري العصر الوسيط كان التفسير ترجمة؛ لكنه ليس ترجمة من العربية إلى الفارسية أو من اليونانية إلى اللاتينية وإنما ترجمة اللغة الإلهية الخفية (الباطن بما هو "المعنى الداخلى العميق") إلى لغة يتمكن الإنسان من فهمها (الظاهر بما هو "المعنى الخارجى السطحى"). وبهذا المعنى، يرى بنيامين وابن عربي معاً الترجمة/الظاهر ثوباً خارجياً يغطي حقيقة داخلية (الباطن). ومع ذلك، تختلف الاستعارتان؛ ففي النسخة الصوفية يقدّم الثوب الخارجى خبراً ذا مغزى عن صاحبه، إذ يرتبط ثراء الملبس إيجابياً بسلطة الملك التي يقصد الثوب الإدلال عليها، أما في تشبيه بنيامين فليست هذه هي الحال؛ حيث يفصل التباين "المستبد الأجنبي"، وهو تباين إشكالى على نحو أكبر، الظاهر عن

الباطن عند بنيامين، مما يبتر الترجمة عن أصلها. فإذا كان إدراك مغزى خلعة الملك عند ابن عربي يأتي بوعد المعرفة، فإن "عدم ملائمة" الخلعة عند بنيامين يقلل من إمكانات فهم الأصل من خلال ترجمته، أى يقلل من إمكانات الوصول إلى الواحد الأول من خلال المتعدد.

"ما المؤلف؟": فوكو وتصفية الذات في ما بعد البنيوية

لا تسألنى من أنا ولا تطلب منى
أن أبقى كما أنا... (أركيولوجيا
المعرفة)^(٢٣).

إنّ السعى إلى إيجاد مماثلة بين تعرية الذات دلاليًا عند فوكو واستعارات بعينها في التصوف الأفلاطوني المحدث (إسلاميًا كان أم مسيحيًا) ليس أمرًا غريبًا على ما يبدو. فشان عمل باتاي عن نيتشه وأنجيلا دى فوليجنو Angela di Foligno يوجد بلا ريب مجال لمحاولة فهم الكيفية التي ينحلُّ بها المؤلف انحلالاً أفلاطونيًا محدثًا عند فوكو إلى "نسق قانوني ومؤسسي يحيط بعالم الخطابات ويحدده ويمفصله"^(٢٤). ومع أن الدراسات التي تجعل من فوكو ونزعة التصوف موضوعًا لها ليست دراسات شائعة فلا شك أنها ليست بالنادرة. ولعل الدراسة الأكثر أهمية من بينها دراسة كريستيان جامبي Christian Jambet عن فوكو والروحانية الإيرانية الإسلامية. وكان مما شجع جامبي على ذلك اهتمام فوكو بالثورة الإيرانية والعوامل الصوفية في أصولها الفكرية^(٢٥)، حيث يجد جامبي في استخدام فوكو العبارة المعروفة "الاهتمام بالنفس" معادلًا لها في تعبير السُّهروردي المطابق لها "اشتغال بالنفس"؛ الأمر الذي يقود المؤلف إلى استنتاج أن تفسير العوالم الذاتية والموضوعية وإيضاحها عند فوكو... يمثل ممارسة تهدف إلى "التحرر من الذات"^(٢٦).

ومن المعروف أن هدف مقال فوكو - "ما المؤلف؟" - ليس "التحرر من الذات" صوفياً، وإنما يهدف - على الأصح - إلى إعادة فهم سياسى وعملى للكيفية التى توجد بها "الذات" بوصفها "وظيفة المؤلف". ومن ثم، لا توجد عند فوكو ممارسة روحية من خلال الفناء، بل يحاول فوكو فهم الوضعية الوهمية التى يشغلها المؤلف بتعابير اجتماعية سياسية يشرح من خلالها "معنى اختفائه الحق" (ص ١٩٨). أما الملمح الأفلاطونى المحدث اللافت للنظر فى مقال فوكو - بالإضافة إلى تسطيح الذات والحماسة التى جعلته مستعداً لتصفية كلمات من قبيل "المؤلف" و"الكتاب" - فهو الحضور اللافت لقوة لا تُرى إلا عند إزاحة المؤلف. وبمعنى ما، ثمة سؤال غير مطروح فى المقال، يبدو مثل الطرس^(٤) الكامن تحت كل سطر تقرؤه: إن كان لا يوجد مؤلف/ملك (A) author فمن أو ما الذى يمارس فعل الكتابة؟ هذا السؤال لم يكن مهماً عند فوكو ألا يجيب عنه فى نهاية المقال، مع أنه كان قد طرحه من قبل فى كتابه *نظام الأشياء The order of Things*:

يجيب مالارمه عن سؤال نيتشه "من يتكلم؟" - ويعود مراراً إلى هذه الإجابة - بالقول إن ما يتكلم هو الكلمة نفسها فى عزلتها واهتزازها الهش ولا شئيتها؛ وليس المقصود هنا معنى الكلمة بل وجودها المبهم غير المستقر^(٢٧).

فى إجابة مالارمه هذه (مالارمه الذى "كان يمحو نفسه باستمرار من لغته"^(٢٨)) يجد فوكو - بتعابير غير سياسية البتة - بعضاً من مناهضة التصورات الكلاسيكية عن لغة التأليف التعبيرية والمفهوم الأداتى عن اللغة "حاملة المعنى". وبكلمات أخرى، مفهوم اللغة التى كانت - فى زمن كتابة "ما المؤلف؟" - قد "حررت نفسها من بُعد التعبير"^(٢٩). وكما كان أمر بلانشو ومفهومه عن "القوة المحايدة التى لا صورة لها ولا شكل... الكامنة من وراء كل شىء مكتوب"، يقصد مالارمه - فيما يرى فوكو - إلى قصر هذه القوة على اللغة نفسها وما تثيره الكتابة

(٤) الطرس: رق أو لوح كُتب عليه مرتين أو ثلاثاً بعد مسح الكتابة الأولى عنه - المترجم.

من إبهام دون إثارة ظنون سياسة تتعلق بأصول هذه القوة، على نحو ما آل إليه الحال عند مفكرى ما بعد البنيوية لاحقاً. إن هذه القوة المبهمة تشدّ الدلالة دون أن تدلّ على نفسها أبداً، كما أنها تبلور نفسها في صور بينما تتسحب؛ الأمر الذى يذكرنا بلحظتين فقط فى مقال فوكو يشير فيهما إلى "شئ ما" يغمض قليلاً غموضاً "القوة التى لا صورة أو شكل لها" عند بلانشو:

تتعرى الكتابة على نحو ما تتعرى لعبة تتجاوز باستمرار قواعدها وتنتهك حدودها المقررة لها. فليست القضية فى عملية الكتابة تجلية فعل الكتابة أو تمجيده، ولا توطيد مكانة الفاعل فى اللغة؛ وإنما القضية على الأصح مسألة إبداع مسافة يتلاشى فيها باستمرار فاعل الكتابة ويختفى.

وفى تطور العلم مستقبلاً، ربما يتخذ فعل التأسيس مظهراً أكبر قليلاً من مجرد مثل على ظاهرة أعمّ، تكشف عن نفسها خلال العملية^(٣٠).

ومما له علاقة بموضوعنا، هنا، ليس الفواعل فى هاتين الفقرتين وإنما الأفعال: "فعل التعرية"، "فعل الكشف". إذ بدلاً من أن تكون هذه الأفعال هيجلية، فهى تحمل فى طياتها أصداءً أفلاطونية محدثة تُمَثِّلُ أساسَ تصفية الذات فى ما بعد البنيوية. أما صفة الذات الجديدة التى صارت مألوفة الآن فهى أنها مسافة بؤرية أو انفتاحاً تتجمع عنده، أو فيه، تنويعاً من الخطابات التى يختلف بعضها عن بعض اختلافاً مستمراً لا نهاية له، ومن ثمّ لم تعد الذات مصدراً مستقلاً بنفسه يتولى عرض الظواهر عرضاً ذاتياً. إن وهم الذات عند متصوفة من أمثال العلامة إيكهارت والشيخ الأكبر ابن عربى وديونيسيوس المُنتَحِل لا يقل بحال عن الوهم اللاحق الذى رأى فى الذات "وظيفة المؤلف"؛ إذ فيما يقول فوكو النصوصُ هى التى تنتج المؤلف، فلا يسبق المؤلفُ النصوصَ أو يعلو عليها. إن مفهوم "الذات" ومفهوم "المؤلف" يُعبّران عن محاولة "التمثل"^(٣١)؛ ففى التصوف تُعدُّ الذاتية محاولة لا رجاء منها من أجل تمثّل شئ ينتمى أساساً إلى الله؛ وفى ذلك جهل بـ"الموقف

الحقيقي" القائل بأن الله كلى الحضور، وأنه موجود في كل شىء وكل زمان ومكان. أما فى المنظور ما بعد النبوى فالتأليف إنْ هو إلا محاولة لتمثل الكتابة ناجمة عن الرغبة فى مناهضة "فعل الكشف" و"فعل التعرية" والقوى التى تنتهك قانون الكتابة وضبطها، ثم تحديدها بزعم أن المتسبب فيها المؤلف. والحال هكذا، لم يعد المؤلف هو "المبدع"، وإنما هو مجرد فاعل مُشَبَّهٌ مفروضٌ اصطناعاً على ما يصطخب به العمل نفسه.

الله والكتابة: المركز ليس هو المركز، و"الله" ليس هو الحق

لا يقع المركز فى مركز الوحدة الكلية، وما دام المركز لا ينتمى إلى الوحدة الكلية نفسها (أى ليس جزءاً من الوحدة الكلية)، فإن مركز هذه الوحدة الكلية يوجد فى مكان آخر. المركز ليس هو المركز^(٣٢).

لن يكون مثيراً للدهشة أننا- فى نهاية المطاف- نمضى نحو استخلاص النتيجة الآتية: تُماثلُ الطريقةُ التى يتكلم بها المفكرون الصوفيون عن الله، من أمثال ابن عربى، مماثلةً غريبةً الطريقةَ التى يتكلم بها ما بعد النبويين، من أمثال دريدا، عن الكتابة. فلا الكتابة ولا الحق يصمدان بما يكفى ليكونا "مركز" أى شىء. وعلى الرغم من أن الفاصل الزمنى بين ابن عربى ودريدا سبعة قرون- وقد بيَّنتُ معالمَ فكرهما فى هذا الدرس- فإنهما يتعرضان لنقد عنيف أقرب إلى الذم والقذح، نظراً لأنهما اجترعا على وصف نظرائهم وأقرانهم بـ"العمى" والتعمى عن هذا الموقف الحقيقى. فقد عجز الأشاعرة عن فهم أن "مركز" لاهوتهم (الله المشبه) لم يكن

أقرب إلى الحق من "مركز" لاهوت المعتزلة، خصومهم المنافسين. أما البنيويون الذين قد ادّعوا أنهم ينتقدون النزعة التجريبية فلم يروا أنهم قد شاركوا هم أنفسهم في تثبيت أركان "مركز" النزعة التجريبية، ألا وهو تصور أن الحقيقة "إما أن تكتمل بمعرفة جديدة أو تبطلها هذه المعرفة"^(٣٣). وقد أدرك ابن عربي ودريدا معاً إدراكاً واضحاً أن ثمة مجموعة متنوعة من الأوثان قد التبس على الفلاسفة واللاهوتيين - على مدى القرون - أنها هي "المركز"؛ أنها نقطة يُحال إليها إحالة مطلقة فتسوِّغ أو تُبرِّر - على نحو لا جدال فيه - كلَّ الفرضيات القائمة حولها.

وإذا كان دريدا وابن عربي يشتركان في أمر ما بوجه عام - وهما مفكران مختلفان أشد الاختلاف - فلعله إدراكهما الكيفية التي توجد عليها التمثيلات الحاجبة التي تسبب ضللاً يصعب تجنبه. ومن ثم، لا عجب أن يصف الميتافيزيقا بأنها أصفاد "وعقدٌ معقود"، وأن يصف مشروعيهما بأنه سعى إلى حلِّ هذه "العقد"، ولا عجب أيضاً في أن يريا حالة البلبلة والحيرة سبيلاً إلى معرفة "أحق" وأقوم، أو أن يريا نصوصهما حاملةً عدداً من المعاني لا يمكن التحكم فيها أو ضبطها مطلقاً، أو أن يدركا "الذات" (وكل الهويات التي تقدم الذات تقديمًا مستقلاً) بوصفها وجوداً متأصلاً في "هاوية"... إن هذا المخزون المشترك من العناصر الرئيسية والاستعارات بين دريدا وابن عربي ناتجٌ - في الأساس - عن ارتيابهما الأصيل في الفكر العقلاني الميتافيزيقي، وليس حصيلة تجميع أوجه شبه سطحية بينهما.

وما من عجب في أن يُتخذَ كلُّ من ابن عربي ودريدا موضوعَ مقارنات بالطاوية Taoism. يرى إيزوتسو Izutsu في درسه المعروف الذي أنجزه عام ١٩٦٧ أن إنتاج (شينج) "عشرة آلاف شيء" في التاو (تاو) ← شينج ← وان وو) يُعدُّ "النظير الطاوي الدقيق لـ الحق في الإسلام"^(٣٤)؛ بمعنى: الكيفية التي يُجلّى بها الحقُ نفسه عند ابن عربي على الدوام في عالم الموجودات الممكنة (الحق ← التجلي ← الممكنات)^(٣٥). وبالمثل، فإن نقاداً من أمثال ميتشل ياه Michelle Yeh أدركوا الاعتراض المشترك بين دريدا والحكيم الطاوي شوانج

تسو Chuang Tzu على "إنشاء تصورات ثنائية"^(٣٦)، بينما ذهب نقاد آخرون من أمثال دونالد ويزلنج Donald Wesling إلى أبعد من ذلك فوصفوا فكر دريدا بأنه "طاوية غير مكتملة"^(٣٧). ويُعدُّ إيزوتسو الأكثر إقناعاً بسلامة مقارنته من هاتين المقارنتين، ومع هونجشو Fu Hongchu ثمة تمييز أكثر رصانة لعدد من الاختلافات الواضحة بين "حالة النشاط والفاعلية" عند دريدا و"التعالى الطاوى"^(٣٨). وبرغم ذلك، تعكس أوجه الشبه السالفة بين التفكيك والتصوف عدم رضا أساسى عن بنية الفلسفة ذات الطابع الميتافيزيقى الماهوى، وإنْ اختلفت البدائل التى يقدمها كلُّ منهما اختلافاً تاماً.

ويبقى السؤال: ما العوائد التى يجنيها التصوف والتفكيك من أى درس مقارن بين ابن عربى ودريدا؟ وحين نتكلم عن إعادة التشديد على امتناع الله والنص على التصور امتناعاً جذرياً، وعدم الثقة فى الفكر الميتافيزيقى، وإثبات البلبلة وعدم تناهى التفسير، وهى الأمور المشتركة بين التصوف والتفكيك، فما النتائج المترتبة على هذه التشابهات بالنسبة إلى الطريقة التى نستأنف بها قراءة دريدا وابن عربى؟

فى حالة ابن عربى ثمة نقطتان مهمتان يمكن إيضاح معالمها؛ تتعلق الأولى بالمنزلة التى يحتلها الشيخ الأكبر بسبب عبقريته فى إنشاء نسق، أما النقطة الثانية فتخص منزلة هذا النسق نفسه من الناحية الأنطولوجية. لقد تكلم حميد دبشى، الناقد الأحدث، فى دراسته القيمة عن المفكر الصوفى الإيرانى عين القضاة الذى عاش فى القرن الثانى عشر - تكلم عن ابن عربى بوصفه "سارداً عظيماً ذا نظرة كلية كبرى"^(٣٩)، ينتج "تصوفاً" لائقاً ومتصالحاً ميتاً على المستوى السياسى" (المرجع السابق). إن قراءة دبشى لابن عربى غير عميقة ولا سند لها؛ وبخاصة حين يدعى ادعاءً لافتاً مؤداه أن التصوف بُعدٌ عين القضاة "فقد سخريته ومفارقته المركزية" ففقد قدرته على "فكِّ العقل فكاً حاسماً" - هذه القراءة لا يدعمها دبشى باقتباس واحد من أعمال ابن عربى، وهو المتصوف الذى حملته دبشى مسئولية الاغتيال

الميتافيزيقي للتصوف. والبرهان الوحيد الذي يقدمه دبشى على هذا الادعاء دليل من السيرة الذاتية غير مقنع: أعدم عين القضاة وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره، بتهمة الزندقة، أما ابن عربى "فقد عاش حياة مديدة مترفة"، لأن عين القضاة هدم الميتافيزيقي هدمًا تفكيكيًا أما ابن عربى فكان متوطنًا تمامًا مع الميتافيزيقي. غير أن ما يتضح من أية قراءة أصيلة لابن عربى أن نسقه لا يضطلع بوصف الماهيات والتراتبات الصلدة الراسخة وصفًا متمركزًا لوغوسيًا، بل إن نسقه - على الأصح - عبارة عن سلسلة من التدرجات التى تفضى بالمرء فى نهاية المطاف إلى "موقف اللاموقف"^(٤٠). وعلى العكس من القول بأن نسق ابن عربى مثال على الميتافيزيقي، يفضى بنا هذا النسق فى حقيقة أمره - ونحن نمر عليه - إلى موضع لا يوجد فيه (بتعبير البسطامى) صباح أو مساء، ولا توجد فيه أسماء أو صفات.

أما النقطة الثانية المرتبطة بأنه قد يُبْتَنَى نسق مؤقت كى يتم التخلّى عنه فى نهاية المطاف - بمعنى استخدام الأسماء والصفات للحديث عن ذلك الذى يكون فى نهاية الأمر "غير معروف" وبلا "تعريف"^(٤١) - فمن الممكن أن يقال إن ابن عربى يضع مصطلحات مثل "اللاهوت" و"إله" تحت ما يسميه دريدا "الشطب" (قيد الشطب sous rature). وبرغم أن دريدا قد استخدم هذه الاستراتيجية النصية فى العديد من المناسبات - ألا وهى استراتيجية محو الأقوال التى يرى المرء سلامتها بمجرد أن يكتبها - وإن كان يتم الاحتفاظ من خلالها بما يُمَحَى - فإن مصطلح "قيد الشطب" يأتى - فى حقيقة أمره - من عمل هيدجر المنشور عام ١٩٥٦م **تحو سؤال الوجود Towards A Question of Being**. فى هذا العمل، يسعى هيدجر إلى الرد على ما قد طلبه منه يونجر Junger؛ ألا وهو أن يقدم له هيدجر "تعريفًا مناسبًا للعدمية"^(٤٢)، فيخبرنا هيدجر أنه "لا توجد معلومات يمكن إعطاؤها عن العدمية والوجود... حتى يمكن تقديمها بشكل ملموس فى صورة أقوال خبرية". وبرده هذا، يبدو هيدجر شبيهًا بابن عربى فى فهمه الحق بما هو الأمر الذى لا يُدرك. ويقول هيدجر إن هذه المشكلة "تقودنا إلى ضرورة إيجاد لغة مختلفة"^(٤٣)، ومع هذه

الضرورة لا تُكتب كلمة الوجود إلا على هذا النحو: ~~الوجود~~، حاله في ذلك من حال الله عند ابن عربي الذي لا يمكن الحديث عنه إلا وهو قيد الشطب: ~~إله~~. إن هذا الشطب ليس مجرد فعل سلبي، فلا يذكرنا- بكل بساطة- بما لم نقدر على الحديث عنه وحسب، وإنما يُلْمح فعلُ الشطب أيضًا إلى وجود الكثير مما يمكن قوله إلى ما لا نهاية له من الأقوال. وقد كانت سبيفاك Spivak على صواب كامل حين لاحظت مدى الاختلاف بين هيدجر ودريدا باستثناء ما يتعلق بتعبير "قيد الشطب". وعلى سبيل المثال، يشير شطب الوجود عند هيدجر- ~~الوجود~~- إلى "حضور لا جدال فيه"، بينما يُوْشر مفهوم دريدا عن الأثر المشطوب- ~~الأثر~~- إلى "غياب الحضور والحاضر الغائب دومًا وأبدًا"^(٤٤). والشك التفكيكي الذي يملأ سبيفاك في هذا "الحضور الذي لا جدال فيه" عند هيدجر يسرى، أيضًا، على الحق عند ابن عربي. وأما عند دريدا فالسبب في وضع الكلمات تحت الشطب أن في اللغة ثمة لعبة غير مستقرة، وليس السببُ القصورَ الدلالي عن التعبير عن مدلول مراوغ قائم "في الخارج هناك". وعدمُ الاستقرار الدلالي هذا- أي انعدام القدرة على التحديد انعدامًا جذريًا ضمن حدود المؤشرات المتناهية في هذه اللعبة- يجعل هذا التشقيق أمرًا ضروريًا؛ فلا يجعلنا حضورًا ما لا يُدَلُّ عليه، ولا يوصف، نرثى باستمرار على أن لغتنا "متناهية" و"ناقصة".

في أية مقارنة بين ابن عربي- المفكر الصوفي في العصر الوسيط- ودريدا- ما بعد النيبوي الفرنسي- يظل ما يترتب على منزلة الكتابة عند دريدا وتلقيها وإعادة تقييمها في النهاية أمرًا أكثر دلالة سواء على مستوى الكيف أو الكم. وأول هذه النتائج المترتبة حتمًا تقديرُ العلاقة بين التفكيك وأنساق الإيمان الروحية المقابلة له تقديرًا جديدًا. ولا يعني ذلك إعادة تعبئة التفكيك وشحنه على أنه تصوف ما بعد ديني، وإنما يعني بوضوح إدراك المنشأ اللاهوتي الذي تتبع منه بعض أفكاره. وقد أوضح كيفن هارت Kevin Hart من قبل أن التفكيك قد استقبل في العالم الناطق بالإنجليزية- بداية الأمر- ضمن "سياقات كانت في أقل تقدير دنيوية

وشديدة الإلحاد^(٤٥). ثم افترض هارت أن المرء يمكنه قراءة دريدا فى سياق جابيس وليفيناس وسيلان Celan بدلاً من الثالث المعتاد نيتشه وفرويد وهيدجر. والحق أن قراءة أعمال دريدا فى هذا السياق الجديد تفترض - من ثم - ربط دريدا بتراث أكبر؛ فالتفكيك ليس ببساطة (فيما يقول مارك س. تايلور) تأويل موت الله. وعلى مدى العشرين سنة الماضية، قامت مجموعة كبيرة من مختلف الباحثين بتعيين لحظات انعدام المركز المناقض للميتافيزيقا فى عدد من التراثات الدينية؛ على نحو ما فعل كوارد Coward مع شانكارا Sankara، ولوى Loy مع ناجارجونا Nagarjuna، ودبشى Dabashi مع عين القضاة الهمذاني، وكابوتو Caputo مع إيكهارت، وياه Yeh مع لاوتسو Lao-tzu، على سبيل المثال لا الحصر. أما مدى مشروعية ما تدّعيه هذه الدراسات السابقة (وكذلك الدراسة الحالية) فيظل أمراً محل نقاش؛ غير أن ما لا ريب فيه أنه فى ضوء هذه الدراسة يمكن تعديل السمعة التى اكتسبها التفكيك؛ ألا وهى أنه عدمى يُناقض الدين. وقد نظر إليه هذه النظرة جودهيرت Goodheart فوصفه بأنه "تزعة شكية تُناقض اللاهوت"، ووصفه جولد Gould بأنه "تقيض اللاهوت"، وقال دوفرين Dufrenne إنه "غير لاهوتى"، أما شنيدينو Schneidenau فوصفه بأنه "ضربة قوية للمسيحية من أولها إلى آخرها"^(٤٦).

وعليه، ثمة ظلال من الشك تتعلق بما قدمه نقاد من أمثال نوريس وجاشيه وكلر من "إيضاحات" متنوعة وتأويلات "جادة" لأعمال دريدا؛ وبخاصة أن هذه القراءات لم ترَ دريدا متصوفاً وإنما مفسراً مواضع اللبس، أى: رأت فى أعماله نهجاً "يفسر التنوع غير المتجانس... والتفاوتات المنطقية... التى تطرأ دوماً على الحجج الفلسفية حتى وإن كانت هذه الحجج تنمو برهانياً بنجاح"^(٤٧). إن النظرة الإيضاحية لعلّة الوجود فى التفكيك تُناقض تماماً كلمات دريدا فى كتابه *فى علم أنساق الكتابة*: "إن غرضى النهائى من هذا الكتاب جعل ما قد اعتاد المرء على فهمه من كلمات مثل 'القرب' و'المباشرة' و'الحضور' أمراً مبهمًا"^(٤٨). و"أمراً

مبهماً" enigmatic تعنى حرفياً معتمًا darken (من الكلمة اليونانية ainigma):
إظلام أو إعتام ما قد كان واضحًا لنا في السابق، مرة أخرى؛ إبهام شيء ما كان
لدينا شعور بأنه واضح. وعند مقارنة دريدا بابن عربي، لا يمنع المرء نفسه من
التفكير في أن هذا الاشتباه الحاصل عندهما في الوضوح والصفاء العقلاني بوصفه
الأمر المضللّ المقيدّ معًا يفضى لاحقًا إلى إثبات حالة اللايقين التي عليها الله أو
النص، حالة الغشاوة أو العتمة أو العمى أو الظلمة ainigma؛ هذا النوع من
الإثبات ينتمى إلى تاريخ أوسع من الأفكار. ويقول هوجو راتنر Hugo Rahner في
عمله الأساطير اليونانية والتصوف المسيحي *Greek Myths and Christian
Mystery* إن استتارة الفكر والفنون اليونانية ازدهارها في القرون الأربعة الأولى
بعد السيد المسيح قد استتارت لاحقًا الرغبة في استعادة "الجو الصوفي" مرة أخرى:

... إن التائق الأبولوجي في فن النحت اليوناني... والكوميديا الأثينية
الساخرة ثم عقلانية السنوّة stoa أدت إلى تصفية الإيمان التقليدي
بالآلهة والإلاهات... [و] قادت اليونانيين تدريجيًا إلى السواد بعالم
الشعائر الدينية الغريب عليهم⁽⁴⁹⁾.

لقد أيقظت يقينيات التنوير في الفكر اليوناني الحنين إلى شعائر دينية صوفية
قديمة، وهو حنين أسماه راتنر ظلام الأزمنة الباكرة السابق على العصر الهيليني:
"ما يبحث عنه الإنسان الآن هو الأمر الشاذ الغريب... في مواجهة دعة الأزمنة
الكلاسيكية الأولمبية" (المرجع السابق). غير أن ذلك لا يقدم دريدا بوصفه انتفاضة
متأخرة ضد النسقية في التاريخ الجدلي- المَعْلَب نوعًا ما- بين النور والعتمة،
العقل والشعور، البنية والتصوف، وإنما المقصود ببساطة بيان أن الإيماءة
التفكيكية- وما أعادته من عتمة أصيلة إلى أفكارنا الواضحة المغالية في الطموح
بغباؤها- يمكن إعادة إدراجها في تاريخ ميتافيزيقي من التمردات ضد ما هو
ميتافيزيقي.

وأخيراً، فلعل النتيجة الأكثر أهمية المترتبة على قراءة تفكيك السستينيات الفرنسية فى سياق غريب عليه بعض الشىء- ألا وهو سياق تصوف العصر الوسيط- الوقوف على المعانى الصوفية المدهشة التى تحملها تعابير دريدا: اللاتهاى، لعبة بلا نهاية، ما لا يمكن تحديده، الأثر، القوة المراوغة التى هى "أقدم" من الوجود نفسه^(٥٠). وبطبيعة الحال، ما من وجود لـ الله **God** فى عالم دريدا؛ ذلك الذى كان سيضفى على هذه التعابير معنى يتوافق مع "التصوف". فالنص اللامتهاى عند دريدا ناشئ- كما قلنا من قبل- عن الفراغ اللامتهاى لا عن عقل إلهى لا متناه؛ فذلك الشىء الذى يمتع على التصور عند دريدا يكمن أساساً فى لعبة اختلافات سارية فى النص لا رحمة أو هودة فيها، ولا يكمن فى تصور إلهى غير ممكن إدراكه إستيمولوجياً. غير أنه من الأهمية بمكان إدراك أن استخدام دريدا هذه التعابير لا ينجو من أصداء فكرة الله، فلا يفلت من شبح الإلهى، وأن تعليقات دريدا من قبيل أن "الوعى باللاشىء الذى يؤسسُ الوعى بالشىء نفسه عليه..."^(٥١) يمضى بالاختلاف المرجئ *différance*- كما قد تخوَّف دريدا من قبل- فى اتجاه الله الذى يغيب فلا يحضر، والذى يتولد عنه كل شىء فى علوم اللاهوت السلبية النافية. ولعل احتجاجات دريدا على هذا النوع من الفهم تشبه شبهًا كبيرًا صرخات مؤلف يريد لنصه المضى فى اتجاه ما دون آخر.

إن دريدا وابن عربى يوقعان البلبلة والحيرة فى نفس القارئ؛ فيجعلاننا نفكر مرتين فى الأشياء التى اعتدنا على التسليم بها. وينبهاننا إلى الثقة الزائدة التى نخذع بها أنفسنا- فى غالب الأمر- متى تحدثنا عن "حقائق" لم نضعها موضع مساءلة جدية. إنهما يثيران فىنا توترًا وقلقًا مؤداه أن كل الأمور التى قد ارتحنا إليها (عن "الله"، و"الحقيقة"، و"الأدب"، إلخ) لم نفكر فيها تفكيرًا جذريًا حقًا، فتشكلت انطلاقًا من معتقداتنا وخبراتنا لا انطلاقًا من جسدية الأشياء نفسها. وعلى نهج

الانقطاع والتخلي gelâzenheit عند إيكهارت^(*)، تطلب منا أعمال من قبيل *الفتوحات المكية* ومقال "البنية والعلامة واللعب" أن نبقي منفتحين، وبتعبير دريدا: منفتحين على الآخر؛ ألا وهو "انفتاح مطلق على الآتى"^(٤٢) وتصفية ذاتية طوعية لكل تصوراتنا (المسبقة) عن الآخر حتى نلقاه في غيريته الحققة. وفي حالة ابن عربي، يُترجم ذلك إلى البقاء منفتحين على الله بـ"تفريغ المحل وتقديس القلب عن دنس الأفكار النظرية"^(٤٣). وما إن يدرك العارف الكامل عند ابن عربي - في نهاية المطاف - أن المركز الذي يستقبله دومًا في صلته ليس هو المركز على الحقيقة، فسوف يتمكن من قبول الحق في كل تجلياته، فلا يملأ "محلًا"ه بأبنيته اللاهوتية الخاصة به. وهذا التشديد على الانفتاح في الإبستمولوجيا الصوفية والتفكيرية معًا يشكل الصلة الدالة - والأوضح - بين كاتبين جعلنا ندرك - كلُّ بطريقته الأصلية المتميزة - أن ما نسميه "الله" قد لا يكون هو الله، وأن ما نسميه "الحقيقة" قد لا تكون هي الحقيقة.

(*) مفهوم فلسفي صوفي عند العلامة إيكهارت قائم على أساس الميتافيزيقا، فالعلامة إيكهارت وهو يخضع كل الفضائل المسيحية للانقطاع أو التخلي - الذي هو حالة النفس الحرة الخالية من أي تخيل أو أية صورة - يُشبهه صفاء النفس الداخلي بمحل الله الطبيعي؛ الأمر الذي يلزم الله بأن يُصدق وجوده ذاته على كل نفس صافية راغبة في استقباله. ويمثل هذا المفهوم مفهوم التخلية والتخلية في التصوف الإسلامي - المترجم.

هوامش الخاتمة

- (١) J. Habermas, *The Philosophical Discourse of Modernity*, Boston: MIT Press, 1987, p. 184.
- (٢) From Georges Bataille, *Oeuvre Completes* 6: 22, cited in Amy Hollood's "Bataille and Mysticism: A Dazzling Dissolution", *Diacritics* 26: 2, 1996, p. 74.
- (٣) Maurice Blanchot's "The Essential Solitude" is taken from A. Smock's translation, *The Space of Literature*, Lincoln: University of Nebraska Press, 1982, p. 33.
- (٤) T. Clark, *Derrida, Heidegger, Blanchot*, London: Cambridge University Press, 1992, p. 68.
- (٥) See in particular S. Brent Plate's "Obfuscation: Maurice Blanchot's Religious Recitation of the Limits" (*Literature and Theology* 11:3, 1997) فاللغة في *توما الخامل* "لغة دينية، وتجربة الحد بين الثنائيات المتعارضة تجربة دينية"، انظر: p. 239
- (٦) Blanchot, *Space of Literature*, p. 28
- (٧) Plotinus, *The Enneads*, I.2, trans. Stephen Mackenna, London: Penguin, 1991, p. 19.
- (٨) Blanchot, *Space of Literature*, p. 24
- (٩) Ibid., p. 28.
- (١٠) Ibid., p. 26.
- (١١) Ibid., p. 22.
- (١٢) Ibid., p. 27.
- (١٣) Ibid., p. 33.
- (١٤) W. Benjamin, *Illuminations*, trans. Harry Zohn, London: Pimlico, 1999, p. 77.
- (١٥) Taken from W. Benjamin, *The Origin of German Drama*, trans. John Osborne, London: Verso, 1998, p. 45; W. Benjamin, *Illuminations*, pp. 210, 65.
- (١٦) Both quotations taken from M. w. Jennings (ed.), *Walter Benjamin: Selected Writings Volume II: 1927-1934*, London: Belknap Press, 1999, pp. 30, 116.
- (١٧) W. Benjamin, *Illuminations*, p. 77.
- (١٨) Plotinus, *The Enneads*, p. 19.
- (١٩) W. Benjamin, *Illuminations*, p. 76.

(٢٠) بخصوص تفصيلات أوسع، انظر الفصل الأول من:

Kevin Hart's *The Trespass of the Sign*, London: Cambridge University Press, 1989.

(٢١) Taken from Eckhart's sermon *Quasi stella matutina*, cited in Jacques Derrida, "How to Avoid Speaking: Denials", trans. K. Frieden and found in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany, NY: State University of New York Press, 1993, p. 115.

(٢٢) From chapter 25 of *Fusus al-Hikem*, trans. Ralph Austin as *The Bezels of Wisdom*, New Jersey: Paulist Press, 1980, p. 258.

(٢٣) Cited in L. D. Krizman (ed.), *Michel Foucault: Interviews and Other Writings 1977-84*, London: Routledge, 1988, p. 1.

(٢٤) D. Lodge (ed.), *Modern Criticism and Theory: A Reader*, London: Longman, 1988, p. 205.

(٢٥) "...[فهم الحقيقة] في إيران يهتدى بالدين الذي ينطوى على صورة خارجية ومحتوى باطنى.

أى أن كل ما يقال وفقاً لصورة القانون الخارجية يشير أيضاً إلى معنى آخر...". وقد تحدث

فوكو عن إيران في مقابلة تحت عنوان "إيران: روح عالم بلا روح"

cited in Krizman, *Michel Foucault: Interviews and Other Writings*, p. 223.

(٢٦) C. Jambet, "The Constitution of the Subject and Spiritual Practice", in T. J. Armstrong (ed.), *Michel Foucault: Philosopher*, Brighton: Harvester Wheatsheaf, 1992, pp. 233-248.

(٢٧) Michel Foucault, *The Order of Things*, London: Tavistock Publications, 1970, p. 305.

(٢٨) Ibid., p. 306.

(٢٩) *Twentieth Century Literary Criticism*, p. 197.

(٣٠) Ibid., pp. 207, 198.

(٣١) Ibid., p. 202.

(٣٢) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, trans. Alan Bass, London: Routledge and Kegan, 1978, p. 279.

(٣٣) Ibid., p. 288.

(٣٤) T. Izutsu, *A Comparative Study of the Key Philosophical Concepts in Taoism and Sufism*, Tokyo, 1967 vol. 2, p. 192.

(٣٥) Ibid., p. 194.

(٣٦) M. Yeh, "Deconstructive Way: A Comparative Study of Derrida and Chuang Tzu", *Journal of Chinese Philosophy* 10, 1983, p. 96.

- (٣٧) D. Wesling, "Methodological Implications of the Philosophy of Jacques Derrida for Comparative Literature", in J. J. Deeney (ed.), *Chinese-Western Comparative Literature: Theory and Strategy*, Hong Kong: Chinese University Press, 1980, p. 79.
- (٣٨) Hongchu Fu, "Deconstruction and Taoism: Comparisons Reconsidered", in *Comparative Literature Studies* 29:3, 1992, p. 314.
- (٣٩) H. Dabashi, *Truth and Narrative: The Untimely Thoughts of 'Ayn al-Qudat al-Hamadhani*, Richmond: Curzon, 1999, p. 604-5.
- (٤٠) W. G. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*. Albany: SUNY Press, 1989, p. 377/*Futuhat* IV.76.27.
- (٤١) W. G. Chittick, *ibid.*, p. 62/*Futuhat* I. 160.7; *The Bezels of Wisdom*, p. 74.
- (٤٢) Martin Heidegger, *Zur Seinsfrage*, London : Vision Press, 1974, p. 80.
- (٤٣) Martin Heidegger, *Zur Seinsfrage*, p. 81.
- (٤٤) G. C. Spivak in her preface to *Of Grammatology*, p. xviii.
- (٤٥) Kevin Hart, "Jacques Derrida: The God Effect", in P. Blond (ed.), *PostSecular Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1998, p. 260.
- (٤٦) All cited in Kevin Hart, *The Trespass of the Sign*, p. 23.
- (٤٧) Rodolphe Gasché's essay, "Infrastructures and Systematicity", can be found in J. Sallis (ed.), *Deconstruction and Philosophy*, Chicago: University of Chicago Press, 1987, p. 4.
- (٤٨) Jacques Derrida, *Of Grammatology*, p. 70.
- (٤٩) H. Rahner, *Greek Myths and Christian Mystery* , trans. Brian Battershaw, London: Burns and Oates, 1963, p. 17.
- (٥٠) Jacques Derrida, *Margins of Philosophy*, p. 26.
- (٥١) Jacques Derrida, *Writing and Difference*, p. 8.
- (٥٢) N. Midgley (ed.), *Responsibilities of Deconstruction*, Coventry: Warwick Journal of Philosophy, 1997, p. 3.
- (٥٣) W. G. Chittick, *Sufi Path*, p. III/*Futuhat* I.289.20.

ثبت المفردات والتعابير المهمة في الكتاب

A

(A)uthor	مؤلف/ملك
Ab-grund	متعالٍ، مُتسامٍ (في هذا الكتاب)
Absolute Unseen	غَيْبٌ مطلق
Abyss	هاوية
Acrostics	أشكال التطريز
Actual situation	الموقف الحقيقي
Affirmative theology	لاهوت إثباتي (إيجابي)
Allegory	تمثيل كناني، أمثلة
Amnesia	فقدان ذاكرة
Anagrams	جناسات تصحيفية
Analogy	تناظر، مماثلة، مشابهة، قياس تمثيلي
Apokalupsis	نهاية العالم
Apophatic theology	لاهوت نافٍ (سلبى)
Approach	مدخل، معالجة، مقارنة
Appropriation	مواصفة، استملاك
Arrogant confidence of the system	إيمان مغرور بالنسق
A-systematic confusion of systems	إصابة الأنساق ببلبلة غير نسقية
Atemporality	لا زمنية
Attributes	صفات
Authentic spirituality	روحانية أصيلة

Author Intention	قصد المؤلف
Autos	ذوات واثقة من نفسها (فى هذا الكتاب)

B

Being	الوجود
Bewilderment	حيرة، بلبلة
Binary oppositions	تعارضات ثنائية
Breath	تنفس

C

Cataphatic theology	لاهوت إيجابى إثباتى
Celebration of a wake	احتفاء باليقظة
Centre of absolute anchoring	مركز رؤسٍ مطلق
Certain fold	طَيَّة ما (دريدا)
Chance	صدفة
Chaos theory	نظرية الفوضى أو الهيبولى
Coherent a structure	بنية متماسكة
Colonial shakles	أغلال استعمارية
Communicative reason	عقل تواصلى
Complete denudation of God's attributes	تعطيل الصفات الإلهية أو نفيها تماما
Comprehensibility of the text	قبول النص الإدراك
Concept	مفهوم، تصور
Confusion	لبلة، حيرة

Constant interruption	مقاطعة مستمرة (دريدا)
Contiguity	جمع، تضام
Coup de grace	ضربة قاضية
Coup des Dés	رمية نرد

D

Déborder	يفيض
Deconstruction	تفكيك، تقويض
Demystification	تعرية السر، تعرية الغيب، فك المغالِق، إيضاح المبهم
De-ontologizing gesture of the Real	إيماءة الحق المتقوضة أنطولوجيًا
Derridean canon	المعتمد الدریدی
De-structuration	هدم
Différance	اختلاف مرجئ (دريدا)
Difference	اختلاف
Difference of difference	اختلاف الاختلاف
Dissemination	تشتيت
Dissolution	حل، تصفية، نقتيت، فك
Divine Essence	الذات الإلهية
Divine name	اسم إلهي
Divine self-revelation	كشف إلهي
Divine vastness	الاتساع الإلهي
Dynamic nature of textuality	كُنه النصية دائبة الحركة

E

Easterners	مشارقة
ébrader	يُخلخل

écriture	كتابة
Effusion	فيض
Elusiveness of the Real	مراوغة الحق
Emanation	فيض
Emancipation	إعتاق، إطلاق، تحرير
Emancipatory	تحررى
Emptiness	فراغ، خواء، شاغرية
Endless by proliferating myriad of substitutions	بدائل متكررة إلى ما لا نهاية
Enslavement of human beings	استعباد الإنسان
Epekeina tes ousias	ما وراء الوجود الظاهر
Errant	هائم على غير هدى، تائه
Error	خطأ
Ethic of nostalgia for origins	أخلاق الحنين إلى الأصول
Ever-receding origins	أصول منسحبة دومًا
Existentialism	الوجودية
Experience of the Husserlian other	تجربة الآخر عند هوسرل
Experience with the impossible	تجربة مع المستحيل
Exploding semantic horizons	تفجير الأفاق الدلالية
Expresser	مُعَبِّر

F

Failure	سقوط
Far-fetched	بعيد الاحتمال
Fascination	افتتان، فتنة
Fetishism	فيتشية

Fetter	عقال، قَيْدٌ
Finitude	تتاهى
First cause	سبب أول، علة أولى
Force	قوة
Fragmentation	تشظية
Freedom	حرية
Freeing	تحرير
Full presence	حضور تام ، تمامية الحضور
Fullness	امتلاء، غنى

G

Genesis	تكوين، أصل
Genesis of secrecy	أصل الاسترار، تكوين السرية
Ghost of God	شبح الله
Ghost of the text	شبح النص
Gift	عطاء، هدية، منحة
God of Belief	إله المعتقدات
Grammatology	علم أنساق الكتابة
Grammophobia	خوف مَرَضَى من الكتابة
Guidance	هداية

H

Heraclitean flux	تغير أو تقلب هيراقليطى مستمر
Heresy	هرطقة، إلحاد
Hermeneutic variation	انحراف تأويلي
Hermeneutics	علم التأويل
Hidden text	نص خفى

Honesty	إخلاص
Humanism	نزعة إنسانية

I

Identities	هويات، ماهيات
Illusion	وهم، خداع
Immanence	حلول، محايثة، تشبيهه الله (فى هذا الكتاب)
Immanent	مُشَبَّهة (فى هذا الكتاب)
Imperialist destruction	هدم إمبريالى
Impossibility of the Real	استحالة الحق
Incoherent incoherence	تفكك مشوّش
Ineffable One	الواحد الأول الذى لا يوصف
Infinite	لا متناه
Infinite will	إرادة لا متناهية
Infinity	اللاتناهى، عدم التناهى
Innocence	براءة
Intangibility	عدم قابلية الإدراك
Intelligence	إدراك عقلى
Intentions	مقاصد
Interminably shifting sands	رمال متحركة إلى ما لا نهاية
Interpretation	تفسير، تأويل
Interpréter	مُفسّر، مؤوّل

J

Just deconstruction	تفكيك عادل
---------------------	------------

L

Lifting of an illusion	رفع الوهم
Linguistic imperialism	إمبريالية لغوية
Logocentric	متمركز لوغوسياً
Logocentric metaphysics	ميتافيزيقاً متمركزة لوغوسياً
Logocentrism	نزعة مركزية اللوغوس
Law of Contradiction	قانون التناقض

M

Meaning-machine	ماكينة معنى، آلة معنى
Metaphysical sands	رمال ميتافيزيقية
Metaphysical trap	شرك ميتافيزيقي
Metaphysics	ميتافيزيقاً
Midrash	تفسير يهودى تقليدى
Mirage	سراب
Misinterpretation	تفسير مغلوط، إساءة التفسير
Mistake	غلطة
Monocultural and monolingual project	مشروع أحادى الثقافة واللغة
Monument	أثر، شاهد
Motif	عنصر متكرر
Multiple	مُتَكَثِّر، متعدد
Mystery	سرٌّ، غَيْبٌ

N

Native innocence	براءة فطرية
Negation of negation	سلب السلب
Negative theology	لاهوت سلبى

Newplatonism	أفلاطونية محدثة
Non-violently receiving the Other	استقبال الآخر دون عنف
Nonfinite	غير متناه
Neo-kabbalistic hermeneutics	علم التأويل القابالي المحدث
Non-representable origin of representation	أصل التمثيل الذي لا يقبل التمثيل
Non-secret	اللاسرّ
Noema	جوهر
O	
Obsession	هاجس، وسوسة
Oeuvre	كتاب
Omnipotence of God	قدرة الله المطلقة
Oneness	الوحدانية
Oneness of God	وحدانية الله
Openness	انفتاح، فتح، فتوح
Opposition	اعتراض (في هذا الكتاب)
Order	نظام
Original Sin	خطيئة أصلية
Orphan	يتيم
Oscillation	تذبذب
Other	الآخر
Otherness of the other	أخرية الآخر
Otherness of the Real	أخرية الحق
Ov	كائن
Overdetermining God with positive attributes	مغلاة في تحديد الله بإثبات الصفات

P

Paleonymy	توظيف معانٍ قديمة في سياق جديد (دريدا)
Pantheism	حلول الله في الكون
Paradigm	صيغة معرفية منتجة، نموذج معرفي مولد
Peaceful transparency	شفافية سلمية
Perplexed	مُتَحَيِّر، حَيَارَى
Perplexity	حيرة
Philosophical discourse	خطاب فلسفي
Play	لعب
Plenitude	وفرة
Polysemeia	تعدد المعانى
Position	موقف
Possibility of the impossible	إمكان المستحيل
Preface	مقدمة
Proper	الصحيح، الحرفي، الخاص، الخصوصي، الممتلك امتلاكاً شرعياً وسليماً ملائماً ولائقاً (دريدا)
Proper meaning	المعنى الحرفي الصحيح (دريدا)
Purity	نقاء

Q

Quantum mechanics	ميكانيكا الكم
-------------------	---------------

R

Radiation	فيض
-----------	-----

Rational faculties	ملكات عقلية
Rationality	عقلانية
Readability of the text	قبول النص القراءة
Real	الحق (في هذا الكتاب، والمقصود: الله الحق)
Real meaning	المعنى الحق (في هذا الكتاب)
Real's manifestations	تجليات الحق
Reason	عقل
Reduction	اختزال، انتقااص
Reflective thought	فكر نظري
Reformation	إصلاح ديني
Representation of speech	تمثيل الكلام
Representing the Real	تمثيل الحق
Rigidity	صرامة، جمود
Ruins	بقايا، أنقاض
S	
Sages	سدنة، حكماء
Secrecy	استرار، سرية
Secret	سرّ
Secret sign	علامة السرّ
Secular version	نسخة علمانية، رواية علمانية
Self-presence	حضور الذات
Semantic emptiness	شاغرية/فراغ/خواء دلالي
Semantic freedom of the text	حرية النص الدلالية
Semantic go-between	وسيط دلالي

Semantic liberation	تحرير دلالي
Semantic mirage	سراب دلالي
Semantic surface	سطح دلالي
Sensus spiritualis	روحانية متجسدة
Shackle	قيد، غل
Short text	نص قصير
Sign	علامة
Sign-systems	أنساق علامة
Sin	خطيئة
Socratic disclaimer	تنازل سقراطي
Spirit	روح
Station	وقفة (في هذا الكتاب)
Structure	بنية، بناء
Subjugation of writing	إخضاع الكتابة
Subordination	تبعية
Sufi gnosis	عرفان صوفي
Summa theologiae	بحث لاهوتي شامل
Superessentiality	جوهرانية متعالية
System beyond being	نسق أبعد من الوجود

T

Tain of the mirror	طلاء المرآة القصديري
Textual strategies	استراتيجيات نصية
The One	الواحد الأول
The one and the same	الواحد وحده
The people of reflection	أهل النظر

Theocentric	متمركز لاهوتيًا
Totality	كلية
Totalizing exegesis	إضفاء صفة الكلية على تفسير ما
Tout autre	الأخر في تمامه
Trace	أثر
Trackless Desert	صحراء بلا دروب
Tradition	تراث، تقليد
Traditionalist	سلفي، تقليدي
Transcendence	علو، تنزيه الله (في هذا الكتاب)
Transcendent	مُنزَه (في هذا الكتاب)
Trembling	خلخلة، قشعريرة
Truth	حقيقة
Tyrannical discourse	خطاب استبدادي
Tyranny of writing	استبداد الكتابة

U

Ultrastructuralism	بنيوية متطرفة، أو مُغالية
Uncontrollability of writing	امتناع الكتابة على التحكم أو الضبط
Unending play of surfaces	لعبة أسطح بلا نهاية
Ungrund	هاوية بلا قرار، لا أساس
Uninterrupted tradition	تراث متواتر
Unity of being	وحدة الوجود
Unknowability of the Real	امتناع الحق على المعرفة
Unknowable	لا سبيل إلى معرفته
Unseen	غَيْب (في هذا الكتاب)
Unshaken conviction	إيمان راسخ

Unspeakable	مسكوت عنه
Unthinkability of God	امتناع الله على التصور
Unthinkable	لا سبيل إلى تصوره
Untruth	باطل
Utopia	يوتوبيا

V

Vagrant	تائه زائع
Vehicle of meaning	أداة نقل المعنى
Veil	حجاب
Via negative	تعريف بالسلب
Vilification of écriture	قَدْحٌ في الكتابة
Virgin substance	جوهر بكر
Vitality of écriture	حيوية الكتابة
Vitality of the text	حيوية النص
Void	فراغ، خواء، شاغرية

W

Wander	يتيه، يهيم على غير هدى
Wandering	شروذ، تيه، سَيْرٌ على غير هدى
Wandering in the streets	التيه في الدروب
Wandering motifs	عناصر حائمة، تائهة، جوّالة
Waterfall of effects	شلال من الآثار
Wholly other	الأخر في تمامه
Wind	نفس
Worldhood of the world	عالمية العالم

ببليوجرافيا

- Abrams, M. H., 'Construing and Deconstructing' in M. Eaves and M. Fisher (eds), *Romanticism and Contemporary Criticism*, London: Cornell University Press, 1986, pp. 127–157.
- Addas, C., *Ibn 'Arabi ou la Quête du souffre rouge*, Paris: Gallimard, 1989.
- Affifi, A., *The Mystical Philosophy of Ibnul Arabi*, Cambridge: Cambridge University Press, 1939.
- Almond, I., 'Doing Violence Upon God: Nonviolent Alterities and their Medieval Precedents', *The Harvard Theological Review* 92:3, 1999, pp. 325–348.
- , 'How Not to Deconstruct a Dominican: Derrida on God and "Hyper-Truth"', *Journal of the American Academy of Religion* 68:2, 2000, pp. 329–344.
- , 'Divine Needs, Divine Illusions: Preliminary Remarks Towards a Comparative Study of Meister Eckhart and Ibn al-'Arabi', *Medieval Philosophy and Theology* 10, Fall 2001, pp. 263–282.
- Altizer, T. J. (ed.), *Deconstruction and Theology*, New York: Crossroad, 1982.
- Anidjar, G. (ed.), *Acts of Religion*, London: Routledge, 2002.
- 'Arabi, Muhyiddin Ibn, *Futuh al-Makkiyya*, O. Yahia (ed.), Cairo: Al-Hay'at al-Misriyyat al-'Amma li'l-Kitab, 1972.
- , *Fusus al-Hikem*, A. E. Affifi (ed.), Beirut: Dar al-kutub al-'Arabi, 1946.
- Trans. R. Austin, as *The Bezels of Wisdom*, New Jersey: Paulist Press, 1980.
- , *Shajarat al-Kawn*, trans. A. Jeffery, Lahore, Pakistan: Aziz, 1980.
- , *al-Istilah al-Sufiyyah*, trans. Rabia Terri Harris, *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* III, 1984, pp. 27–54.
- , *Kitāb al-Jalā wa-l jamāl I*, trans. Rabia Terri Harris, *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* VIII, 1989, pp. 5–32.
- Arberry, A. J., *Reason and Revelation*, London: Allen and Unwin, 1957.
- Austin, R., 'Meditations Upon the Vocabulary of Love and Union in Ibn 'Arabi's Thought', *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* III, 1984, pp. 6–19.
- Bayrakdar, M., *La Philosophie Mystique chez Dawud de Kayseri*, Ankara: Éditions Ministère de la Culture, 1990.
- Benjamin, W., *The Origin of German Drama*, trans. J. Osborne, London: Verso, 1998.

- Benjamin, W., *Illuminations*, trans. Harry Zohn, London: Pimlico, 1999.
- , *Selected Writings Volume II: 1927–1934*, M. W. Jennings (ed.), London: Belknap Press, 1999.
- Blanchot, M., *The Space of Literature*, trans. A. Smock, Lincoln: University of Nebraska Press, 1982.
- Bloch, E., *Atheismus im Christentum*, in *Gesamtausgabe*, Frankfurt am Main: Suhrkamp, 1968, vol. 14.
- Borges, Jorge Luis, *Labyrinths*, Harmondsworth: Penguin, 1981.
- Bruns, G. L., *Hermeneutics Ancient and Modern*, Michigan: Yale University Press, 1992.
- Caputo, J. D., *Radical Hermeneutics: Repetition, Deconstruction and the Hermeneutic Project*, Bloomington: Indiana University Press, 1987.
- , *The Prayers and Tears of Jacques Derrida: Religion Without Religion*, Bloomington: Indiana University Press, 1997.
- Chittick, William G., 'The Perfect Man as the Prototype of the Self in the Sufism of Jami', *Studia Islamica* 49, 1979, pp. 135–157.
- , 'The Five Divine Presences: From Al-Qunawi to Al-Qaysari', *Muslim World* 72:2, 1982, pp. 107–128.
- , 'The Imprint of the Bezels of Wisdom', *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* 1, 1982, pp. 30–93.
- , *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, Albany: SUNY Press, 1989.
- , *The Self-Disclosure of God: Principles of Ibn al-'Arabi's Cosmology*, Albany: SUNY Press, 1998.
- , *The Heart of Islamic Philosophy: The Quest for Self-Knowledge in the Teachings of Afdal al-Din Kashani*, New York: Oxford University Press, 2001.
- Clark, Timothy, *Derrida, Heidegger, Blanchot*, London: Cambridge University Press, 1992.
- Classical Persian Sufism: From its Origins to Rumi*, L. Lewisohn (ed.), London: Khaniqahi Nimatullahi Publications, 1993.
- Corbin, H., *Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi*, trans. R. Manheim, New Jersey: Princeton University Press, 1969.
- , *Spiritual Body and Celestial Earth: From Mazdean Iran to Shi'ite Iran*, trans. Nancy Pearson, New Jersey: Princeton University Press, 1977.
- Dabashi, H., 'Ayn al-Qudat Hamadani and the Intellectual Climate of his Times', in *Routledge History of Islamic Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1996, pp. 374–429.
- , *Truth and Narrative: The Untimely Thoughts of 'Ayn al-Qudat al-Hamadani*, Richmond: Curzon Press, 1999.
- De Man, P., *The Resistance to Theory*, Manchester: Manchester University Press, 1986.
- Derrida, Jacques, *L'Écriture et la Différence*, Paris: Éditions du Seuil, 1967, trans. Alan Bass, *Writing and Difference*, London: Routledge and Kegan, 1978.
- , *De la grammatologie*, Paris: Les Éditions de Minuit, 1967, trans. G. C. Spivak, *Of Grammatology*, Baltimore: John Hopkins University Press, 1976.

- , *La Dissémination*, Paris: Éditions du Seuil, 1972, trans. Barbara Johnson, *Dissemination*, London: Athlone Press, 1981.
- , *Marges de la Philosophie*, Paris: Éditions du Seuil, 1972, trans. A. Bass, *Margins of Philosophy*, Brighton: Harvester Press, 1982.
- , *Positions*, trans. A. Bass, London: Athlone Press, 1987.
- , *Psyché: Invention de l'autre*, Paris: Éditions Galilée, 1987.
- , P. Kamuf (ed.), *A Derrida Reader: Between the Blinds*, Exeter: Harvester Wheatsheaf, 1991.
- , 'Passions: An Oblique Offering', in David Wood (ed.), *Derrida: A Critical Reader*, Oxford: Blackwell, 1992.
- , 'Of an Apocalyptic Tone Newly Adopted in Philosophy', trans. J. P. Leavey, Jr., in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany: SUNY Press, 1993, pp. 25–72.
- , 'How to Avoid Speaking: Denials', trans. K. Frieden, in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany: SUNY Press, 1993, pp. 73–142.
- , 'Post-Scriptum: Aporias, Ways and Voices', in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, Albany: SUNY Press, 1993, pp. 283–324.
- , *The Gift of Death*, trans. David Wills, Chicago: University of Chicago Press, 1995.
- Eckhart, Meister, *Werke*, N. Largier (ed.), Frankfurt am Main: Kohlhammer, 1993.
- Eco, Umberto, *The Aesthetics of Thomas Aquinas*, trans. Hugh Bredin, London: Radius, 1988.
- Ellis, J. M., *Against Deconstruction*, New Jersey: Princeton University Press, 1989.
- Fakhry, M., *A History of Islamic Philosophy*, London: Longman, 1983.
- Foucault, Michel, *The Order of Things*, London: Tavistock Publications, 1970.
- , 'What is an Author?', in D. Lodge (ed.), *Modern Criticism and Theory: A Reader*, London: Longman, 1988, pp. 197–210.
- Gasché, R., *The Tain of the Mirror*. Cambridge: Harvard University Press, 1986.
- , 'Infrastructures and Systematicity', in J. Sallis (ed.), *Deconstruction and Philosophy*, Chicago: Chicago University Press, 1987.
- al-Ghorab, M., 'Muhyiddin Ibn al-'Arabi amidst Religions and Schools of Thought', in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi. A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, pp. 200–227.
- Gril, D., 'Adab and Revelation', in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993, pp. 228–263.
- Habermas, J., *Philosophical Discourse of Modernity*, Boston: MIT Press, 1987.
- Haleem, Abdel, 'Early Kalam', in S. H. Nasr and O. Leaman (eds), *Routledge History of Islamic Philosophy*, pp. 70–87.
- Hart, K., *The Trespass of the Sign*, London: Cambridge University Press, 1989.
- , 'Jacques Derrida: The God Effect', in P. Blond (ed.), *Post-Secular Philosophy*, London: Routledge and Kegan, 1998, pp. 259–280.
- Hartman, G., *Psychoanalysis and the Question of the Text*, Baltimore: John Hopkins University Press, 1978.

- Harvey, I., *Derrida and the Economy of Différance*, Bloomington: Indiana University Press, 1986.
- Hirtenstein, S. and Tiernan, M. (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi, A Commemorative Volume*, Dorset: Element, 1993.
- , *The Unlimited Mercifier: The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabi*, Oxford: Anqa Publishing, 1999.
- Hollywood, A., 'Bataille and Mysticism: A Dazzling Dissolution', *Diacritics* 26:2, 1996, pp. 74–85.
- Hongchu Fu, 'Deconstruction and Taoism: Comparisons Reconsidered', in *Comparative Literature Studies* 29:3, 1992, pp. 296–321.
- Izutsu T., *A Comparative Study of the Key Philosophical Concepts in Taoism and Sufism*, Tokyo, 1967.
- Jambet, C., 'The Constitution of the Subject and Spiritual Practice', in T. J. Armstrong (ed.), *Michel Foucault: Philosopher*, Exeter: Harvester Wheatsheaf, 1992, pp. 233–248.
- Kaufmann, W., *From Shakespeare to Existentialism*, New York: Doubleday, 1960.
- Kenny, A. (ed.), *The Wittgenstein Reader*, London: Blackwell, 1994.
- Kermode, F., *The Genesis of Secrecy*, London: Harvard University Press, 1979.
- Kierkegaard, S., *Fear and Trembling*, trans. Alistair Hannay, London: Penguin, 1990.
- Knysch, A. D., *Ibn 'Arabi in the Later Islamic Tradition: The Making of a Polemical Image in Medieval Islam*, Albany: SUNY Press, 1999.
- Krell, D. (ed.), *Basic Writings: Martin Heidegger*, London: Routledge, 1978.
- Kritzman, L. D. (ed.), *Michel Foucault: Interviews and Other Writings 1977–84*, London: Routledge, 1988.
- Kundera, M., *The Unbearable Lightness of Being*, London: Faber and Faber, 1988.
- Leaman, O., *An Introduction to Medieval Islamic Philosophy*, London: Cambridge University Press, 1985.
- Loy, D., 'The Deconstruction of Buddhism', in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, pp. 227–254.
- Midgley, N. (ed.), *Responsibilities of Deconstruction*, Coventry: Warwick Journal of Philosophy, 1997.
- Nasr, S. H., *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*, Cambridge: Belknap Press, 1964.
- Nealon, J., 'The Discipline of Deconstruction', *PMLA* 107:5, 1992, pp. 1266–1279.
- Neiton, R., *Allah Transcendent: Studies in the Structure and Semiotics of Islamic Philosophy, Theology and Cosmology*, Richmond: Curzon Press, 1994.
- Nietzsche, F., *Twilight of the Idols*, trans. R. J. Hollingdale, Penguin: London, 1990.
- Norris, C., *Derrida*, London: Fontana, 1987.
- Notcutt, M., 'Ibn 'Arabi in Print' in S. Hirtenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, pp. 328–339.

- Pamuk, O., *The Black Book*, trans. Güneli Gün, London: Faber and Faber, 1990.
- Philosophy in the Middle Ages*, A. Hyman, and J. Walsh (eds), Indianapolis: Hackett Publishing Co., 1973.
- Plotinus, *The Enneads*, trans. S. Mackenna, London: Penguin, 1991.
- Pseudo-Dionysius: The Complete Works*, trans. C. Luibheid, London: SPCK, 1987.
- Rahner, H., *Greek Myths and Christian Mystery*, trans. B. Battershaw, London: Burns and Oates, 1964.
- Robbe-Grillet, A., *For A New Novel*, trans. R. Howard, Illinois: Northwestern University Press, 1965.
- Rorty, R., 'Wittgenstein, Heidegger and The Reification of Language', in C. Guignon (ed.), *Cambridge Companion to Heidegger*, London: Cambridge University Press, 1983, pp. 337–357.
- , *Contingency, Irony and Solidarity*, London: Cambridge University Press, 1989.
- Routledge History of Islamic Philosophy*, S. H. Nasr and O. Leaman (eds), London: Routledge and Kegan, 1996.
- Sallis, J. (ed.), *Deconstruction and Philosophy*, Chicago: University of Chicago Press, 1987.
- Schimmel, A., *Mystical Dimensions of Islam*, Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1975.
- Scholem, G., *Kabbalah*, New York: Schocken Books, 1974.
- Schürmann, R., *Meister Eckhart*, Bloomington: Indiana University Press, 1978.
- Sells, Michael, *Mystical Languages of Unsaying*, Chicago: University of Chicago Press, 1984.
- Tahrani, M., 'The Polarity of Expression in the Fusus al-Hikam', in S. Hirstenstein and M. Tiernan (eds), *Muhyiddin Ibn 'Arabi: A Commemorative Volume*, pp. 351–359.
- Taylor, M. C., *ErRing: A Postmodern A/theology*, Chicago: Chicago University Press, 1984.
- , 'nO nOt nO', in H. Coward and T. Foshay (eds), *Derrida and Negative Theology*, pp. 167–198.
- Tillich, P., *The Shaking of the Foundations*, London: SCM Press, 1968.
- Turner, D., *The Darkness of God: Negativity in Christian Mysticism*, London: Cambridge University Press, 1993.
- Vattimo, Gianni (ed.), *Religion*, London: Routledge, 2000.
- Walshe, M. O'C., *Meister Eckhart: German Sermons and Treatises*. London: Watkins, 1979.
- Watt, M. W., *Islamic Philosophy and Theology: An Extended Survey*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1965.
- Wesling, D., 'Methodological Implications of the philosophy of Jacques Derrida for Comparative Literature', in J. J. Deeney (ed.), *Chinese–Western Comparative Literature: Theory and Strategy*, Hong Kong: Chinese University Press, 1980, pp. 79–104.

- Wolfson, H. A., *The Philosophers of the Kalam*, Cambridge: Harvard University Press, 1976.
- Wood, D., *Derrida and Difference*, Coventry: Parousia Press, 1988.
- Yeh, M., 'Deconstructive Way: A Comparative Study of Derrida and Chuang Tzu', *Journal of Chinese Philosophy* 10, 1983, pp. 95-126.

المؤلف فى سطور :

أبان ألموند

يُدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة البوسفور بإسطنبول/تركيا. وقد نشر عددًا من المقالات فى مجلات متخصصة صادرة بالإنجليزية. و"التصوف والتفكيك: درس مقارنة بين ابن عربى ودريدا" هو كتابه الأول. من أعماله اللاحقة:

- The New Orientalists: Postmodern Representations of Islam
From Foucault to Baudrillard, Paperback 2007.

- History of Islam in German Thought: From Leibniz to
Nietzsche, Routledge, 2009.

المترجم فى سطور :

حسام نايل

باحث ومترجم مصرى.

من أعماله المنشورة:

- ١- "صور دريدا" (تحرير وترجمة)، المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٢م.
 - ٢- "أرشيف النص: درس فى البصيرة الضالة" (تأليف)، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٦م.
 - ٣- "البنىوية والتفكيك: مداخل نقدية" (تحرير وترجمة)، دار أزمنة، الأردن، ٢٠٠٧م.
 - ٤- "استراتيجيات التفكيك" (ترجمة وتأليف)، دار أزمنة، الأردن، ٢٠٠٩م.
- بالإضافة إلى عدد من المقالات والترجمات فى دوريات مصرية وعربية متخصصة. ويعمل حالياً على الانتهاء من ترجمة كتاب تحت عنوان: المعتمد الأدبى فى التفكيك (هيدجر، بلانشو، دريدا).

المراجع فى سطور :

محمد يريرى

يُدْرَس الأدب العربى القديم والحديث بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وبجامعة بنى سويف. صدر له كتاب عن ديوان قبيلة هذيل، ويصدر له قريبًا كتاب عن الشعر الجاهلى ونزعة الشك. له عدد من المقالات والترجمات التى تتناول الأدب العربى، قديمه وحديثه، شعره ونثره. كما راجع عددًا من الكتب المترجمة عن الإنجليزية.

التصحيح اللغوى : مسعود حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

... ولأن الجناحين اللذين يحلق بهما الكتابُ في الهواء هما الشيخ الأكبر ابن عربي والفيلسوف الفرنسي دريدا فإن التوتر والقلق يتعلقان بإثارة مشكلات حول أفكارنا ومعتقداتنا ... فما نسميه "الحقيقة" قد لا تكون هي الحقيقة ...

النص صحراء بلا دروب، لا تعطى نفسها أبداً. فإن كان لا بد من الدخول إليها والسير فيها، فما نفع الخرائط؟ وما نفع شمعة في ليلها الطويل؟ أوليست هذه حياتنا نمضي فيها من درب إلى درب على الظن، ثم إن نظرنا خلفنا نتحقق أنها ما كانت سوى الصحراء، وكنا نحسبها المسالك ذات الأوتاد؟! ...

مع الشيخ العربي والفيلسوف الفرنسي نتدرب على التغير، وفي التدرب على التغير تأدية إلى هاجس وظن وريبة. والهاجس والظن والريبة معلمة التواضع وتخل عن الحكم والاستبداد والتحكم. أما التأدية الأعظم فإلى زحزحة التمركز حول الذات وزحزحة صورة الآخر صنعة الذات ...

هذا الكتاب خطوة على طريق الارتباب المتواصل في مألوفاتنا وعاداتنا الراسخة دينياً وسياسياً، وثقافياً واجتماعياً ... وهو بما يقدمه من معرفة عربية قديمة أعربها علينا وفرنسية جديدة ألفها إلينا يهزأ بما نحن عليه من جهل بأنفسنا وبغيرنا. وسوف يزداد الهزء إن اتخذ البعض ردود فعل سلبية نحوه ...

(المترجم)

التصوف والتفكيك